

التصوف فى الإسلام

عبد اللطيف محمد العبد

التصوُّف في الإسلام

"وأهم الاعتراضات الواردة عليه"

تأليف

الدكتور/ عبد اللطيف محمد العبد

أستاذ الفلسفة الإسلامية

ووكيل الدراسات العليا والبحوث

بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة

فهرس

موضوع التصوف

١- نسبة التصوف

٢- مفهوم التصوف عند المسلمين

٣- أهداف التصوف

٤- سمات التصوف

٥- أسباب نشأة التصوف

٦- الطرق الصوفية

٧- المعرفة

٨- المقامات الصوفية

المقامات

٩- الأحوال الصوفية

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والشكر له عزَّ وجلَّ شكرا لا مزيد عليه، بما أسبغ علينا من النعم ظاهرة وباطنة، وفي مقدمتها نعمة الإسلام.

والصلاة والسلام على الرسول الأمين، والنبي الرءوف الرحيم، والحبيب والشفيع، سيدنا محمدﷺ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد..

فهذه دراسة في ميدان علم التصوف لدى المسلمين، أتقدَم بها تحت عنوان:

" التصوف في الإسلام وأهم الاعتراضات الواردة عليه".

وأقصد بقولي "في الإسلام" أي: بعد ظهور الإسلام لدى بعض المسلمين؛ وذلك بهدف حصر الدراسة في مبادئ التصوف لدى هؤلاء، دون الحديث عن أي تصوف هندي أو مسيحي أو غير ذلك، إلا بمقدار المقارنة أو التفتيش عن الجذور في بعض المعاني والسلوك.

ولن يستطيع كتاب مثل هذا، أن يقول كل شيء مما يتعلق بمبادئ التصوُّف؛ نظرا لسعتها وعمقها، وإنما حاولت هذه الدراسة أن تركز على أهمية ما يعتمد عليه التصوف من مقامات وأحوال، ومن سلوك طريق العلم وطريق العمل.

والمهم هنا أن البحث لم يعبأ في الدرجة الأولى إلا بشهادة أهل التصوُّف أنفسهم؛ لأن مزالق الدارسين لم تأتِ إلا من أخذ مادة البحوث عن قوم آخرين، لم يدققوا في معاني التصوُّف من جهة، ولم يمرُّوا بتجارب الصوفية من جهة أخرى.

فلم يكن غريبا أن نعتمد على مصادر قديمة ومصادر حديثة؛ فالمصادر الأولى كان أغلب مؤلفيها من الذين مارسوا التصوُّف علما وعملاً، مثل الطوسي (المتوفى عام ٣٧٨هـ) في كتابة "اللمع"، وقد أفدت منه كثيرا.

والمصادر الأخرى نجد أغلب مؤلفيها من الدارسين المتخصصين ومن العلماء الأفاضل، الذين اطلعوا على الفكر الإسلامي في ماضيه وحاضره، اطلاع الناقد الحكيم، وذلك مثل أستاذنا الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، وهو الآن – في عام ١٤٠٧ هـ - شيخ مشايخ الطرق الصوفية في

مصر، وقد أفدت كثيرا من علمه وفضله، لاسيما من كتابه "مدخل إلى التصوُّف الإسلامي"، وكذلك من لقائي مع فضيلته مشتركين في مناقشة بعض الرسائل العلمية الجامعية.

ومن الملاحظ أن كتب التصوُّف القديمة والحديثة وافرة ومتعددة؛ وهنا تأتي ضرورة التأني في الاطلاع، والتمهل في اختيار المصادر والموضوعات، مع استخدام منهج الموازنة والتحليل، وقد حاولت كل ذلك والحمد لله تعالى.

وثمة ملاحظة جديرة بالاعتبار، وهي أن بعض المؤلفين لم يلتزموا منهج العدالة في القول وأمانة الكلمة، حيث إن بعضهم قد مجد الفكر الصوفي تمجيدا كبيرا، دون أن يكلف نفسه عناء النظر في بعض زلات فريق من أهل التصوُّف. مع أن واجب الوفاء كان يحتم أمثال تلك اللفتات؛ حرصا على كرامة قوم مسلمين، بأداء النصيحة لهم، لاسيما أنهم – أي الصوفية – لم يدَّعوا العصمة من الخطأ، اللهم إلا من شذ منهم وظنَ أنه فوق البشر، وقد حاولت بأمر الله تعالى أن أكون مِن الناصحين لا مِن المشنعين؛ عملاً بالحديث الشريف الذي أخرجه مسلم، عن أبي رقية تميم بن أوس الداري رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"الدين النصيحة" قلنا: لمن؟ قال: "لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم".

وهناك بعض المؤلفين الذين هاجموا التصوُّف بكل ما أوتوا من قوة؛ وهؤلاء قد جانبهم الحق والصواب كذلك.

فإنه مما لا شك فيه، أن التصوُّف السني يشتمل على كثير من الآداب والأخلاق، والتزام الأمر والنهي الشرعيين، وإحياء ما اندثر من السنن لدى العامة، ومعالجة ما خفي من علل القلوب.

وعليه فإن الرفض التام لمبادئ التصوُّف، سيؤدي إلى رفض ما هو مطابق لأصول الإسلام، وذلك أمر خطير، لا يملكه مخلوق مهما كان، فمن ذا الذي يملك إبطال مقام التوكل أو التوبة أو الصبر، بعد أن نصّ عليها كتاب الله العزيز، وسنة رسوله الكريمﷺ، وبعد أن طبـقها النبي وأصحابه وجميع السلف الصالح!.

وقد حاولت هذه الدراسة جاهدة أن تبحث عن الحق والحقيقة، في كل ما تعرّضت له من قضايا ومشكلات خاصة بالتصوُّف، فالحكمة ضالة المؤمن.

وشيء آخر تستطيع هذه الدراسة أن تدَّعيه، وهو البعد عن المجاملة والمحاباة والتعصب الأعمى؛ لأن صاحب الدراسة لا ينتمي إلا إلى مدرسة القرآن والسنة.

لكن هذه الدراسة، مهما بلغت من عمق أو سطحية، لا يمكنها أن تدَّعى إصابة الحق والصواب؛ فإن زمن العصمة قد ولى، وحسب الدراسة أنها اتخذت من الكتاب والسنة ميزانًا، ومن سيرة السلف الصالح نبراسا تستضيء به في الحكم على أحد المواقف الصوفية، أو التدخل بين الصوفية وبعض منتقديهم، من أمثال ابن الجوزي (المتوفى ٥٩٧ هـ) في كتابه "تلبيس إبليس".

ومن منهج الدراسة هنا، نقل العديد من نصوص التراث الصوفي السابق؛ ليكون ذلك بمثابة الوثائق التي تُضاف إلى مصافي الأدلة والبراهين على ما نذهب إليه.

ومع هذا فقد تجنب البحث معظم الأقوال التي وردت في كتب التراث، مما لا ينفع ولا يضر، وكذلك تجنب الآراء الموغلة في الشطح والدعاوى، كأن يقول أحدهم مثلاً إن أشد ألوان الصبر هو الصبر عن الله تعالى، وقد صرخ الشبلي

نفسه حين سمع هذه العبارة، حتى كادت روحه تتلف. (اللمع للطوسي ص ٧٦).

ولم يرد في البحث شيء من هذه الأمور، إلا في معرض الإنكار والرد، دون الإقرار أو الموافقة أو الإغضاء عنها؛ فنحن مدركون أننا أمام أمة إسلامية قد يتأثر العديد من أفرادها بهذا الكلام، أو يعتنقونه على عجل ودون تدقيق. لاسيما وأن التصوُّف من الموضوعات التي تجذب كثيرا من الناس؛ نظرا لخصب جوانبه الروحية، التي تؤثر تأثيرا كبيرا في جانب العقيدة.

ذلك أن التصوُّف منهج سلوك، يدفع إلى البحث عن الحقيقة والسعادة، خصوصا وسط هذا الركام الغليظ من المذاهب المادية والعبثية، التي يفقد فيها الإنسان آدميته وشخصيته، والتي صارت هي آفات النفوس التي يركز التصوُّف على محاربتها.

لقد استطاع التصوف بعد أن بعدَ الناس عن منهج السلف الصالح، أن يحفظ الشعلة الروحية التي ذبلت، بعد أن انتقل الدين من القلب إلى اللسان.

واستطاع رجل قوي الإرادة صادق العزيمة مثل الحسن البصري، أن يجدد للناس أمور دينهم، وأن يحيي الخوف من الحساب، وأن يعيد الزهد وضبط النفس إلى ما كان عليه السلف الصالح؛ وذلك بفضل عقيدته الصادقة، وعلمه الجم، ومحاسبته لنفسه.

وكل هذا يلخص معنى الحضارة الإسلامية، التي تتبلور في إعداد "الإنسان المسلم" بحق، وهو الذي يقوم إيمانه على العقل والوجدان معا؛ مما ينتج عنه معرفة إنسانية أصيلة تجمع بين العقل والقلب.

وكان الخليفة المأمون يقول: لو سئلت الدنيا عن نفسها، لم تستطع أن تصف نفسها بأحسن من قول الشاعر:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت

له عن عدو في ثياب صديق

ونحن لا ننكر أن الصوفية قد اندسَّ فيهم من أساء إليهم، ممن اتخذوا التصوُّف ستارا لمذاهب باطنية وسرية، أو لعصبيات معينة، أو مظاهر رياء ونفاق وسمعة.

ومع هذا فنحن متفائلون وواثقون من أن الصوفية لو طهروا صفوفهم من هؤلاء لبقي لهم الخير الكثير.

فلقد كان في الصوفية، من تحقق فيهم أنهم عباد الرحمن، الذين أجمعوا على أنه لا تحليل ولا تحريم بعد شريعة رسول الله ﷺ، وإنما هو فهم يعطى في القرآن لرجال الله.

وكانت والدة أحد الخلفاء العباسيين تقول عن الجنيد، وهي ترى سلطانه على جماهير بغداد: هذا هو الخليفة، لا ابني، هذا هو الملك الذي يجلس على القلوب والعقول.

لقد اهتمَ الصوفية الحق، بأن المراد بالعلم هو العمل به؛ فالفقيه مثلاً لا يكون كذلك بمجرد علمه بالفقه، بل لا بد أن يعمل بفقهه.

واهتموا بنشر شعار الحب بين الناس والكون، فليس الكون عندهم مجرد جماد، بل إنه ذو شعور وتسبيح لله تعالى.

ومما يحمد لأهل هذا الطريق أن الزهد عندهم - في حقيقته - ليس فقرا مذلاً، ولا ضعفًا مميتًا، ولا قناعة خانعة، بل إنه ترفع وإباء وعزة وعزيمة؛ مما يثمر الصلاح والولاية.

ومعناه أن تكون الدنيا في يد الإنسان، لا في قلبه، وأن يملك المال ولا يملكه المال، وأن يسخر الجاه والمنصب

للخير والحق، لا العكس مما ينجم عنه كافة ألوان الشرور التي سمعنا عنها في التاريخ والتي مازلت تترى.

يقول الأستاذ العقاد في هذا موضحا الفرق بين الصوفية وخصومهم:

"مفهوم أن يكثر أعداء التصوُّف بين الذين يسمون أنفسهم بالعصريين التقدميين؛ لأننا إذا لخصنا فلسفة التصوُّف في كلمة واحدة هي "القناعة"، فالكلمة الواحدة التي تلخص لنا "العصرية التقدُّمية" هي الطمع أو الادعاء، ولا عجب في ثورة الأدعياء على القناعة والقانعين[١]".

هكذا تتلخص الخصومة في كلمتين: القناعة والطمع!.

كذلك يرى باحث آخر فاضل، ما نراه من أفضلية الإصلاح على الهدم في ميدان التصوُّف، فيقول:

"وعندي أننا لو غربلنا التراث الصوفي، وقدَّرنا جهود ابن القيم، وابن الجوزي، والغزالي، وابن عطاء الله السكندري وغيره، لأمكننا أن نخرج بحصيلة رفيعة القدر في

---

[1] عباس محمود العقاد: بين الكتب والناس ص ٤٧٥، الطبعة الأولى، ١٩٦٦م، دار الكتاب العربي، بيروت.

مجال الخلق والتربية والسلوك، ولأمكننا أن نصوغ نصف العلوم الإنسانية في قالب إسلامي جميل ونافع".

ثم يشيد بدور الصوفية في التوجيه الرشيد فيقول الشيخ محمد الغزالي:

"لقد رفض كثير من الموجهين اعتبار التصوُّف علما، وتركوه للجماهير تتبع فيه آثار شيوخ لا يحسنون التربية والقيادة، بيد أن هؤلاء القاصرين، كانوا أقدر على اقتياد العامة من فقهاء جافين مكروهين، فقدوا صفاء النفس وسماحتها وطيبتها[1]".

والحق أنه كما يفْهم من هذا الكلام، كان للطرق الصوفية في التهذيب الروحي والخلقي، منهج ذو فاعلية؛ لأنه يتجه إلى وجدان الإنسان أساسا.

وكان الشيخ محمد عبده، رحمه الله تعالى، مؤمنًا بفاعلية هذا المنهج في التربية والإصلاح الديني والاجتماعي، وقد قال يوما للسيد رشيد رضا:

---

[1] محمد الغزالي (الشيخ): علل وأدوية، ص ١٧٤، ط٢، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤م، دار الكتب الإسلامية بالقاهرة.

"إذا يئست من إصلاح الأزهر، فإنني أنتقي عشرة من طلبة العلم، وأجعل لهم مكانًا عندي في عين شمس، أربيهم فيه تربية صوفية، مع إكمال تعليمهم".

وكان محمد عبده، هو الذي اقترح على السيد جمال الدين الأفغاني، هذا الاقتراح أيام كانا ينشئان "العروة الوثقى" في باريس[1].

ويعقب السيد رشيد رضا على ذلك قائلاً:

"ولو تمَّ للأستاذ الإمام هذا، على الوجه الذي يريده، لكان أعظم أعماله فائدة[2]".

***

ولم يتسع منهج هذه الدراسة، لعرض نماذج من أعلام الصوفية، وإن ورد ذكر العديد منهم في معرض الاستشهاد بأقوالهم وسلوكهم؛ ذلك أن دراسة الأعلام تحتاج إلى مؤلفات

---

(1) د. أبو الوفا التفتازاني: مدخل إلى التصوُّف الإسـلامي: ص ٢٤٧ ط٣، ١٩٨٣م، دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة.

(2) محمد رشيد رضا: تـاريخ الأسـتاذ الإمـام ١: ١٣٠، القـاهرة، طبعة ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١م. (وقارن المرجع السابق للدكتور أبو الوفا)

أخرى، وقد سبق إليها بعض الدارسين، لكن المجال مازال بحاجة إلى تعاون دائم.

هذا وإنني إذ أتقدم بهذه الدراسة التي أهدف بها إلى إحقاق الحق، فإنني أدعو الله سبحانه أن يتقبل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يرضى عنه كلبنة في خدمة رسالة الإسلام.

والله ولي التوفيق..

د. عبد اللطيف محمد العبد

القاهرة في صفر ١٤٠٧ هـ

أكتوبر ١٩٨٦

موضوع التصوُّف

١- نسبة التصوف

المصطلح الأجنبي للتصوُف:

يطْلِقُ بعض المستشرقين على التصوُف الإسلامي بصفة خاصة Sufism الذي يحافظ على أصله الإسلامي مع إضافة اللاحقة مصطلح(ism).

أما لفظ تصوُف بصفة عامة فيقابله في الإنجليزية لفظ Mysticism ومن نفس المادة Mystify بمعنى يحير أو يربك، ومنها أيضا لفظ Myth بمعنى خرافة أو أسطورة.

وبالرغم من شيوع كلمة "تصوُف" فإنها أيضا من الكلمات الغامضة، التي تتعدد مفهوماتها، وتتباين أيضا.

ولعل السبب في هذا، أن التصوُف خط مشترك بين حضارات متباينة في عصور وأمم مختلفة؛ ولهذا فإن كل صوفي يعبر عن رأيه الخاص بناء على تجربته الشخصية، وأيضا بناء على ما يسود مجتمعه من عقائد ونوازع[1].

---

[1] د. أبو الوفا التفتازاني: مدخل إلى التصوُف الإسلامي، ص٣، ط٣.

ويرى بعض الباحثين شرقًا وغربا، أن التصوُّف دخيل على الإسلام؛ نظرا لأن اسمه مقتبس من كلمة يونانية هي كلمة "ثيوسوفي" Theosophy أي "الحكمة الإلهية[1]" من "ثيوس" أي "الله"، و "صوفيا" أي "الحكمة"، وهي شائعة إلى الآن في اللغات الأوروبية بهذا المعنى، وقد رجح الأستاذ عباس العقاد كون التصوُّف بمعنى الحكمة الإلهية، مراعيا أصله اليوناني[2].

ويكون معنى الصوفي- بناء على هذا- الحكيم الإلهي: "فالصوفي هو إذن الذي يفتش عن الله ليجده، ويتعرف إليه[3]".

---

(1) العقاد (عبـاس محمـود): الفلسـفة القرآنيـة، ص ١٧٣، طبعـة ١٣٦٦ هـــ - ١٩٤٧ م، المكتبـة العصـرية، بيـروت. (وقارن د. أبو الوفا: مدخل ص ٢١).

(2) العقـاد: مطالعـات فـي الكتـب والحيـاة، ص ٨٣، ط٣، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦م، دار الكتاب العربي، بيروت.

(3) جبور عبد النور: التصـوُّف عنـد العـرب، ص ٧٨، بيـروت، ١٩٣٨م.

الاشتقاق من الصف أو صوفة:

ويرى بعضهم أن كلمة "صوفي" لقب؛ لأنه لا يشهد له من جهة العربية اشتقاق أو قياس.

وهناك آراء أخرى لها نفس ضعف هذا الرأي منها:

أنه مشتق من "الصف"؛ لأن الصوفية في الصف الأول أمام الله تعالى، أو من "صوفة بن مرة" أحد سدنة الكعبة في الجاهلية، أو من "الصِفَة" – بكسر ففتح.

الاشتقاق من الصفاء:

أو هو مأخوذ من "الصفاء" أو "الصفو"؛ نظرا لأن التصوُف يهدف إلى ترقية النفس، من أجل السعادة[1]. وهذا الرأي هو الأرجح عندي لهذا السبب، وهو الصفاء الروحي، الذي هو حقيقة التصوُف، وقد أشار إلى هذا أبو الفتح البستي حين قال:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا

جهلاً وظنوه مأخوذًا من الصوف

---

[1] د. أبو الوفا: مدخل ... ص٨، وانظر ص ٢١

ولست أنحل هذا الاسم غير فتى

صافى فصوفي حتى سمي الصوفي[1]

ولعل التصوُّف كله مؤسس على تصفية القلب والروح.

الاشتقاق من الصوف:

وذهب بعضهم إلى كلمة "صوفي" مأخوذة من "الصوف"، ومن الذين قالوا بهذا الطوسي صاحب "اللمع".

فهو يرى أن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع، ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم:

"ذلك لأنهم معدن جميع العلوم، ومحل جميع الأحوال المحمودة، والأخلاق الشريفة، سالفًا ومستأنفًا، وهم مع الله تعالى في الانتقال من حال إلى حال، مستجلبين للزيادة، فلما كانوا في الحقيقة كذلك لم يكونوا مستحقين اسما دون اسم[2]".

---

(1) المالكي (الشيخ محمد بن محمد المالكي): الـدر الثمـين والمـورد المعين،٢: ١٦٩، ط١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م، مصـطفى البـابي الحلبي بمصر.

(2) الطوسي (أبو نصر عبد الله بن علي السرّاج الطوسي، المتوفى عام ٣٧٨هـ):اللمع ص٤٠. تحقيق: د. عبد الحليم محمود، وطه عبـد

ومن هنا رأى الطوسي، أن ينسبهم إلى ظاهر اللبسة؛ لأن لبسة الصوف دأب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهي أيضا شعار الأولياء والأصفياء والمتنسكين:

"فلما أضفتهم إلى ظاهر اللبسة، كان ذلك اسما محملاً عاما مخبرا عن جميع العلوم والأعمال والأخلاق والأحوال الشريفة المحمودة[1]".

ومن الأدلة على هذا، أن الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى عليه السلام، فنسبهم إلى ظاهر اللبسة، فقال عزَ وجل:

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيونَ ﴾ (المائدة، الآية ١١٢)

وكانوا قوما يلبسون البياض؛ فنسبهم الله تعالى إلى ذلك، ولم ينسبهم إلى نوع من العلوم والأعمال والأحوال، التي كانوا مترسمين بها، ويقاس الصوفية على ذلك.

الباقي سرور، ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠م، دار الكتب الحديثة بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد.

[1] المصدر نفسه، ص ٤٠ – ٤١

ونجد بعض الدارسين حديثًا يتابع الطوسي على ذلك، حيث يرى بعضهم أن التصوُّف مصدر الفعل الخماسي المصوغ من "صوف"، للدلالة على لبس الصوف؛ فالمتجرد لحياة الصوفية يسمى في الإسلام متصوفًا:

"وينبغي رفض ماعدا ذلك من الأقوال التي قال بها القدماء والمحدثون في أصل الكلمة[1]".

وهذا النصُّ يعتبر من قبيل العبارات المرذولة، التي تتنافى مع حرية البحث العلمي؛ إذ إنه يدعى الكمال، والكمال لله تعالى وحده.

وذهب الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازاني، إلى أن هذا الرأي هو الأصوب، فيقال: تصوَّف الرجل إذا لبس الصوف؛ وكان لبس الصوف شعارا للعباد والزهاد لأول نشأة الزهد[2]. لكن الدكتور أبو الوفا، لم يلغ الآراء الأخرى؛ لأنه يعتبر كلمة "تصوُّف" من الأمور الغامضة المحيرة، والتي يمكن تفسيرها بناء على التجربة الصوفية الخاصة.

---

(1) لويس ماسينيون، ومصطفى عبد الـرازق: الإسـلام والتصـوُّف، ص١٤، ط١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م، مطابع دار الشعب بالقاهرة.

(2) د. أبو الوفا: مدخل ... ص ٢١

وذهب ابن الجوزي إلى أن هذا الرأي محتمل، لكنه أعرض عنه، وأشار إلى أن الناس يختلفون في طباعهم بالنسبة للبس الصوف.

فإن الأعراب إذا لبسوا الصوف، واقتصروا على شرب اللبن لم نلمهم؛ لأن مطايا أبدانهم تحمل ذلك.

وأهل السواد أو المدن، إذا لبسوا الصوف، وأكلو الكوامخ، لم نلمهم أيضا، ولا نقول عن الواحد منهم قد حمل على نفسه؛ لان هذه عادة القوم. ثم يقول ابن الجوزي:

"فأما إن كان البدن مترفًا، قد نشأ على التنعم، فإنا ننهى صاحبه، أن يحمل عليه ما يؤذيه[1]".

وعلى أية حال فإن ابن الجوزي سيكون له بعد موقف من الصوفية، في مسألة الملبس.

---

[1] ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي البغدادي المتوفى ٥٩٧هـ): تلبيس إبليس، ص ١٥١١، وانظر ١٦٣، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، "بدون تاريخ".

لماذا لم يُطْلَق لفظ صوفي على أحد من الصحابة؟

ويذهب ابن الجوزي كذلك، إلى أن النسبة في زمن رسول الله ﷺ، كانت إلى الإيمان والإسلام، فيقال: مسلم ومؤمن، ثم حدث اسم زاهد وعابد.

وبعد هذا نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد، فتخلفوا عن الدنيا، وانقطعوا للعبادة، واتخذوا في ذلك طريقة تفرَّدوا بها، وأخلاقًا تخلقوا بها[1].

وقد تصدَّى الطوسي لبعض الاعتراضات الواردة على الصوفية بسبب هذا الاسم؛ حيث وجد بعض المعترضين يذهب إلى أنه لم يسمع بذكر الصوفية في أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم أجمعين، وأنه لم يسمع بذلك أيضا فيمن كان بعد الصحابة، وما قيل لأحد من صحابة رسول الله ﷺ "صوفي"، اللهم إلا العباد والزهاد والسائحين والفقراء.

---

(1) المصدر نفسه، ص ١٦١

ويرى الطوسي أن الصحبة مع رسول الله ﷺ لها حرمة، فلا يجوز أن يعلق عليه اسم على أنه أشرف من الصحبة، وذلك لشرف رسول الله ﷺ وحرمته:

"ألا ترى أنهم أئمة الزهاد والعباد والمتوكلين والفقراء والراضين والصابرين والمخبتين، وغير ذلك، وما نالوا جميع ما نالوا إلا ببركة الصحبة مع رسول الله ﷺ، فلما نُسِبوا إلى الصحبة التي هي أجل الأحوال، استحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة، التي هي أجل الأحوال[1]".

وما قيل من أن اسم "الصوفي" محدث أحدثه البغداديون، محال؛ فقد عرِفَ هذا الاسم في وجود الحسن البصري رحمه الله تعالى (المتوفى عام ١١٠ هـ)، وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، ورضي عنهم، وروي عنه أنه قال:

"رأيت صوفيا في الطواف، فأعطيته شيئًا، فلم يأخذه، وقال: معي أربعة دوانيق فيكفيني مما معي".

---

(1) الطوسي: اللمع ص ٤٢. وقد قال نفس الفكرة من بعده القشيري في رسالته ص١٢، طبعة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦م، مكتبة محمد علـي صبيح بالقاهرة.

كذلك روي عن سفيان الثوري، رحمه الله تعالى، أنه قال: " لولا أبو هاشم الصوفي، ما عرفت دقيق الرياء[1]".

ونلاحظ هنا أن الطوسي يحاول تبرئة الصوفية من انتحال اسم مبتدع، لم يكن معلوما لدى الصحابة والتابعين من قبل، ومع هذا فإن لفظ "صوفي" لم يظهر في المحيط الإسلامي، إلا في القرن الثاني وما يليه.

***

أهل الصُفة:

وقد ذهب قوم إلى أن الصوفي نسبة إلى الصفة (بضم الصاد، وفتح الفاء المشددة) ومعنى الصفة مؤخرة المسجد، وقد بني لهم مجلس هكذا في مؤخرة مسجد رسول الله ﷺ، وعلى كل حال فإن النسبة إلى الصفة خطأ، وإلا لقيل "صفي".

وروي أن هذا المكان كان يجتمع فيه ما يزيد على ثلاثمائة من المسلمين الصالحين الزاهدين في أيام النبي ﷺ، وأن النبي كان يأتيهم فيقول:

---

(1) المصدر السابق للطوسي ونفس الموضع.

"السلام عليكم يا أهل الصفة، فيقولون: وعليك السلام يا رسول الله. فيقول: كيف أصبحتم؟ فيقولون: بخير يا رسول الله[1]".

وكان هؤلاء لا تُحرك الدنيا لهم قلبا، ولا تؤثر فيهم تجارة ولا أموال؛ فقد صرفوا وجوههم إلى ربهم متعبدين ومهتمين بأمر آخرتهم، وعكفوا على العبادة ورياضة النفس والتجرُّد عن أعراض الدنيا، وهم الذين نزلت فيهم الآية الثامنة والعشرون من سورة الكهف: " **وَاصبِر نَفْسَكَ**.. [2]".

وروي أن أكلهم ونومهم كان في المسجد، وأن نفقتهم كانت من مال المسلمين؛ حيث كان الناس يكرمونهم لتقواهم وصلاحهم، ولم يأخذوا من مال المسلمين إلا القليل، لأن طعامهم يسير:"يأكلون أكل المرضى، وينامون نوم الغرقى[3]".

---

[1] ابن الجوزي: تلبيس إبليس ص ١٦٣

[2] د. أبو الوفا: مدخل ... ص٥٤

[3] جبور عبد النور: التصوُّف عند العرب، ص ٧٥

ولم يكن أهل الصفة مثل فقراء التكايا، بل كانوا أول من يسارع إلى القتال إذا دعا داعيه، فكانوا بمثابة الجيش العامل الواقف على قدم الاستعداد لأي نازلة.

ولما كثر عدد المسلمين، ولم يبق لبقائهم حاجة، أخرجهم عمر رضي الله عنه من المسجد ليكفلوا أرزاقهم بأنفسهم، وكان عمر محقًا في ذلك الاجتهاد؛ حتى لا يعيش المسلم متكلاً في الإنفاق على سواه، ومع هذا فإن موضوع أهل الصفة تعرّض للإنكار الكامل على يد بعض الباحثين مثل الدكتور عبد الرحمن بدوي[1].

---

[1] انظر له: تاريخ التصوُّف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني ص ١٢٧ وما بعدها، ط١ ١٩٧٥ م، وكالة المطبوعات بالكويت.

٢- مفهوم التصوُّف عند المسلمين

تعريف التصوُّف:

أن التصوُّف في حقيقته، لا يعني الحرمان مما أحله الله تعالى، لكنه يركز على عدم الانغماس في المادة، بما يطمس على القلب ويظلم الروح.

فجوهر الدين لا يحل في نفس غرقت في الماديات، سعيا لها وتلذذًا بها، وكذلك لا يحل الإيمان الحقيقي في قلب متعلق بالشهوات نهارا وليلاً، كل ذلك يشير إلى إيثار الدنيا على الآخرة؛ مما يؤدي إلى ذم صاحبه. وهو ما يشير إليه القرآن الكريم في مثل قوله تعالى:

﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدنْيَا إِلا لَهو وَلَعِب وَإِن الدارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَو كَانُوا يَعلَمُونَ ﴾.

(سورة العنكبوت، الآية: ٦٤)

وكذلك في قوله عزَّ من قائل منبها على ضرر إيثار الدنيا على الآخرة:

﴿ فَأما مَن طَغَى. وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدنْيَا. فَإِن الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى. وَأما مَن خَافَ مَقَامَ رَبهِ وَنَهَى النفْسَ عَنِ الْهَوَى. فَإِن الْجَنةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾.

(سورة النازعات، الآيات: ٣٧ إلى ٤١)

ومنذ القرن الثالث الهجري نسمع شكوى من بعض الصالحين؛ لان عصرهم ضاعت فيه آداب الإسلام، كما يقول أبو بكر الواسطي (الذي توفي بعد العشرين والثلاثمائة للهجرة):

"أُبتُلِينا بزمان ليس فيه آداب الإسلام، ولا أخلاق الجاهلية، ولا أحكام ذوي المروءة[1]".

وكما يقول أحد المفكرين موضحا علة البشرية اليوم:

"المادية في هذا العصر، هي علة العلل وعدو الدين الألد، ومنافسه الأكبر، وإن الغرب هو زعيمها الذي تولى كِبرَها، ووكرها الذي تطير منه وتأوي إليه، وفيه تبيض وتفرخ[1]".

---

(1) الهجويري: كشف المحجوب ص ١٩٩ ترجمة عن الفارسية: الدكتورة إسعاد قنديل (نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر – الكتاب التسعون، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م).

وليس معنى الحذر من المادية، أن ينتهج الإنسان منهج الضعف؛ فقد أثبت التاريخ أن المسلمين الذين آثروا الآخرة، استطاعوا بالمثل والأخلاق أن يحكموا العالم، وأن تتهاوى على أيديهم الإمبراطورية الرومانية رغم ثرائها المادي الفاحش.

وقد أكد أحد علماء الأخلاق من المسلمين، على ضرورة ترفع الإنسان عن المادة بحيث لا يقع أسيرا؛ فيهبط إلى مرتبة الحيوانات، وكان الأولى به أن يسمو نحو آفاق الملائكة، فيقول ابن مسكويه:

"من رضي لنفسه بتحصيل اللذات البدنية، وجعلها غايته وأقصى سعادته، فقد رضي بأخس العبودية لأخس الموالي؛ لأنه يصير نفسه الكريمة التي يناسب بها الملائكة عبدا للنفس الدنيئة، التي يناسب بها الخنازير والخنافس

[1] أبو الحسن الندوي: إلى الإسلام من جديد. ص ٩٣، ط٤، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م. المختار الإسلامي بالقاهرة.

والديدان، وخسائس الحيوانات التي تشاركه في هذا الحال[1]".

وكأني بصاحب هذا الحال قد ضرب سدا منيعا بينه وبين مكارم الأخلاق؛ حيث رضي بأخس العبودية لأخس الموالي، وجانبه التوفيق في نشدان السعادة. وهذا هو الذي حاول التصوف الحقيقي أن يتلافاه، ويوجه الإنسان نحو حسن الخلق؛ لأن ذلك هو الطريق الأقوم لنيل السعادة، ومن هنا تواردت تعريفات التصوُّف لدى الصوفية.

فيقول الجنيد عن تعريف التصوُّف:

"أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة"

ومعناه أن يكون الله تعالى، هو مطلوبه ومحبوبه.

ويقول عنه رويم:

"استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده"

---

[1] ابن مسكويه (الشيخ أبو علي أحمد بن محمد، المتوفى ٤٢١ هـ ـ): تهذيب الأخلاق، ص٤٥، ط١٣٧٨هـ - ١٩٥٩ م، مكتبة محمـد علي صبيح بمصر.

وفيه إشارة إلى وجوب الارتباط بمنهج الله عزَّ وجل وشريعته.

ويقول سمنون:

"ألا تملك، ولا يملكك شيء".

ذلك أنهم يعتبرون المالك الحقيقي لكي شيء هو الله تعالى، وفيه إشارة إلى الحذر من عبودية الإنسان للمادة.

ويقول القصاب:

"أخلاق كريمة، ظهرت في زمان كريم، من رجل كريم، مع قوم كرام".

وفيه تأكيد على مكارم الأخلاق وأحاسنها.

ويقول الجريري:

"الدخول في كل خلق سني، والخروج من كل خلق دني[1]".

إذن التصوُّف خلق، ومن زاد على أخيه في الخلق زاد عليه في التصوُّف؛ وبذلك اجتمعت كلمة الذين عرفوا التصوُّف على الربط بينه وبين الأخلاق الكريمة.

---

(1) هذه التعريفات لدي الطوسي في اللمع، ص ٤٥.

لقد مرَ التصوُف بمراحل متنوعة، وتقلبت عليه ظروف مختلفة، وكان لكل ظرف مفاهيمه الخاصة فيما يتعلق بتعريف التصوُف، ومع هذا ظلت هنا رابطة أساسية لمراحله، وهي أنه أخلاقيات مستقاة من نصوص الإسلام ومن روحه:

"التصوُف إذن في أساسه خلق، وهو بهذا الاعتبار روح الإسلام؛ لأن أحكام الإسلام كلها مردودة إلى أساس أخلاقي[1]".

وقد أدرك أعلام التصوُف، سمو الغاية الأخلاقية للدين، فركزوا قصدهم نحوها، واهتموا باقتران المعرفة بمراقبة الله تعالى وخشيته؛ فأنشئوا علما للتصوُف، واعتبر من العلوم الشرعية التي تستمد مقوماتها من الكتاب والسنة. وهذا ما أشار إليه الشعراني قائلاً:

"هو علم انقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة؛ والتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة[1]".

---

[1] د. أبو الوفا التفتازاني: مدخل ... ص ١٢

ويشير هذا النصُّ إلى أمرين هامين:

الأول: أن التصوف الحق لا يبدأ من فراغ، بل لا بد أن يستند إلى علم مكين، وليس هناك أمكن من الكتاب والسنة.

الآخر: أن التصوُّف ثمرة وحلاوة الإيمان، الذي خرج إلى حيز العمل والتطبيق، وهذا هو المنهج المأمون لمن ابتغى رضوان الله عزَّ وجل.

وقد أكد مؤلفو التصوُّف الذين مارسوا التصوُّف علما وعملاً، على أنه إذا واظب المريد على الذكر، وأكثر منه ليلا ونهارا يرق حجابه ضرورة، وإذا رق حجابه رأى الفعل لله تعالى، لا للعبد، ويسمع نداء الحق تعالى من قلبه:

"كل من رق حجابه من المريدين، يشهد أنه لا مدخل له في وجود أفعاله، إلا بقدر التكليف فقط، أدبا مع الشريعة المطهرة، ويرى كشفًا ويقينًا، أنه كالآلة التي يحركها المحرك على الفارغ[2]".

---

(1) الشعراني (توفي ٩٧٣ هـ): الطبقات الكبرى ١: ٤، طبع عام ١٣٤٣ هـ، مصر.

(2) الشعراني: لطائف المنن والأخلاق، ص ٤١ – ٤٣، طبع ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م، عالم الفكر بالقاهرة.

ونجد تحذيرا شديدا لدى الهجويري (المتوفى ٤٩٢هـ) إلى الذين ينكرون التصوُّف، ويرى أنه لا ضير من إنكار الاسم المجرَّد للتصوُّف:

"وإن كانوا ينكرون عين هذه المعاني، يكونوا قد أنكروا كل شريعة النبي ﷺ وخصاله المحمودة[1]"

معنى التفقه في الدين عند الصوفية:

من المسلم به، أن التصوُّف نشأ معبرا عن المثل الديني الأعلى، ومخالفًا لأهل الفرق الأخرى في اتجاهاتهم، وإن لم يجهل علومهم ومناهجهم، لكنه كذلك تعرَّض لعداوتهم واضطهادهم، ومع هذا التزم أصحابه الحبَّ والتسامح؛ لأن الصوفي لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء[2].

والتصوف باعتباره علما دينيا، يختصُّ بجانب الأخلاق والسلوك، وهذا هو روح الإسلام وزبدة العمل به، وإن التمييز بين التصوُّف وبين المعارف الفقهية والكلامية وغيرها، إنما هو تمييز اعتباري، وليس حقيقيا؛ لأن الأصل

---

(1) الهجويري: كشف المحجوب، ص ٢٣٩

(2) ماسينيون ومصطفى عبد الرازق: الإسلام والتصوُّف، ص ٤٨.

في الشريعة أنها واحدة، وإذا كان علم الفقه يستند إلى علم الكلام، فإن علم التصوُّف يستند إليهما معا، فلا يجوز للصوفي الجهل بالأحكام الفقهية والعقدية، كما لا يجوز له أيضا الجهل بالكتاب والسنة.

ومما يجب العلم في هذا المقام، أن التصوُّف والفقه وعلم الكلام لم يحدث بينها انفصال إلا منذ القرن الثالث الهجري؛ تبعا لظهور التخصص العلمي الدقيق، أما قبل ذلك فقد كانت هذه العلوم تمثل معرفة واحدة قوامها الاعتقاد والأخلاق[1]. ولعل استقلال التصوُّف كعلم عن الفقه، كان من أسباب الهجوم المتشدد على التصوُّف لدى بعض أهل السنة، مثل عبد الرحمن بن الجوزي (المتوفى ٥٩٧هـ) كما هو واضح من كتابه "تلبيس إبليس[2]".

وقد اهتمَ الصوفية بإحراز معنى التفقه كما هو وارد في النصوص الشرعية. كما في قوله تعالى:

---

[1] انظر د. أبو الوفا التفتازاني: مدخل إلـى التصـوُّف الإسـلامي. ص١٦

[2] انظر د. عبد الرحمن بدوي: تاريخ التصوُّف الإسـلامي، ص ٧٣ - ٧٤

﴿لِيَتَفَقَهُوا فِي الدين﴾

(سورة التوبة، الآية: ١٢٢)

والدين هنا يشمل جميع الأحكام الظاهرة والباطنة.

وكما ورد في قول النبي ﷺ:

"من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين".

(رواه أحمد والشيخان وغيرهم من حديث معاوية)

وقيل للحسن البصري – رحمه الله تعالى – إن فلانًا فقيه. **فقال الحسن: وهل رأيت فقيها قط؟! إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بأمر دينه[1]".**

ومما تجب معرفته هنا، أن التفقه في الأحوال والمقامات ليس هو بأقل فائدة من التفقه في الأحكام الفقهية، مثل: الطلاق والقصاص والظهار، وغير ذلك.

ذلك أن تلك الأحكام، ربما لا تقع في عمر الإنسان مرة واحدة حتى يحتاج إلى علم أصولها، وعلى فرض وقوع الحادثة فلا ضير هنا من الأخذ بقول الفقهاء؛ فيسقط الفرض

---

[1] الطوسي: اللمع، ص ٣٦

بذلك عن صاحب الحادث. وفي هذا يقول الطوسي، موضحا الفارق بين هذه الأحكام وبين الحال والمقام الصوفيين:

"هذه الأحوال والمقامات والمجاهدات التي يتفقه فيها الصوفية، ويتكلمون في حقائقها، فالمؤمنون مفتقرون إلى ذلك، ومعرفة ذلك واجبة، وليس لذلك وقت مخصوص دون وقت، وذلك مثل الصدق والإخلاص والذكر ومجانبة الغفلة وغير ذلك، ليس لها وقت معلوم[1]".

وعلى هذا، فإن من واجب العبد في كل لحظة وخطرة، أن يعلم ما قصده وإرادته وخاطره، فإن كان حقًا من الحقوق وجب عليه أن يلزمه، وأن كان حظًا من الحظوظ وجب أن يجانبه؛ وهذا كما تشير إليه الآية الكريمة في قول المولى عزَ وجل لنبيه وصفيه ﷺ:

﴿ وَلاَ تُطِع مَن أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمرُهُ فُرُطًا ﴾

(سورة الكهف، الآية: ٢٨)

---

[1] نفس المكان

وعليه فإن من ترك حالاً من هذه الأحوال، يكون تركه لها نابعا من غلبة الغفلة على قلبه.

ومن المقرر لدى الصوفية، أن مستنبطاتهم في معاني هذه العلوم ومعرفة دقائقها وحقائقها، يجب أن تكون أكثر من مستنبطات الفقهاء، في معاني أحكام الظاهر.

وإذا كان من شأن علوم الفقهاء وغيرهم أن تكون محدودة، فإن علم التصوُّف موغل وغير محدود؛ لأنه كما يقول الطوسي:

"إشارات وبوادٍ وخواطر وعطايا وهبات، يغرفها أهلها من بحر العطاء، وسائر العلوم لها حد محدود، وجميع العلوم يؤدي إلى علم التصوف، وعلم التصوف لا يؤدي إلا إلى نوع من علم التصوف، وليس له نهاية؛ لأن المقصود ليس
له غاية. وهو علم الفتوح: يفتح الله تعالى (به) على قلوب أوليائه في فهم كلامه[1]".

---

(1) نفس المصدر، ص ٣٧

وفي القرآن الكريم إشارة إلى ذلك، كما في قول المولى جل شأنه:

﴿ قُل لو كَانَ الْبحرُ مِدَادا لكَلِمَاتِ رَبي لنَفِدَ الْبحرُ قَبلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبي وَلَو جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدا ﴾

(سورة الكهف، الآية: ١٠٩)

وكما في قوله عزَ من قائل:

﴿ لئِن شَكَرتُم لأَزيدَنكُم ﴾

(سورة إبراهيم، الآية: ٧)

والزيادة من الله تعالى لا نهاية لها.

والخلاصة أن الصوفية لا يقرُون لأنفسهم الجهل بالفقه، بل هم فقهاء وزيادة، أي أنهم يتفقهون في أمور الدين الخلقية التي لا يتطرق إليها فقهاء الأحكام الشرعية.

ويشير بعض الصوفية إلى أن رسول الله ﷺ وقد أمر أن يسأل ربه الزيادة من العلم، فما ظننا بغيره. هذا مع أنه ﷺ قد أوتي علم الأولين والآخرين، ويقول الشعراني تعليقًا على ذلك:

"واعتقادنا أنه تعالى أجاب دعاءه، وزاده علما عن علم الأولين والآخرين؛ فعلم أن أحدا لا يصح له مقام النهاية، إلا إذا وصل إلى حالة لا مقام بعدها لأحد، وهذا غير واقع لغيره ﷺ [1]".

وقد غُير هذا التفقه لدى الصوفية منذ القرن العاشر الهجري، تحت ظروف سياسية واقتصادية، ساقت التصوُف نحو التدهوُر، وظهرت الأمية في رجاله، حتى تتلمذ الشعراني مثلاً على سبعين شيخًا لا يعرف أحدهم النحو أو القراءة[2].

استمداد التصوف من الكتاب والسنة:

بالرغم من منهج الصوفية القائم على الود والمحبة والتسامح، فإنه أيضا لا يبيتون على ضيم، خصوصا لو قذفهم إنسان بتهمة الجهل، أو رماهم راءٍ بأن معارفهم

---

(1) الشعراني: لطائف المنن والأخلاق، ص ٤١

(2) أنظر د. توفيق الطويل: التصوف في مصر إبان العصر العثمـاني ص٤٧ – ٤٨، طبع ١٩٤٦م، مكتبة الآداب بالقاهرة.

لا أساس لها في القرآن والسنة. هذا مع ملاحظة أن الإنكار دائما يقع من القاصرين في العلم:

"فالكامل من الفقهاء يسلم للعارفين، والعارفون يسلمون للعلماء [1]".

ولا يستطيع إمام ما في التصوُّف أو غيره، أن يختلف مع الصوفية، في أن الله تعالى، ذكر في القرآن الكريم: الصادقين والصادقات، والقانتين والقانتات، والخاشعين والخاشعات، وكذا المتوكلين والأولياء والأبرار والمقربين، مما نجده مبثوثًا في آيات الكتاب الكريم.

وقد ذكر الله تعالى المشاهدين في قوله:

﴿ أو ألقَى السمعَ وَهُوَ شَهيد ﴾

(سورة ق، الآية: ٣٧)

وشكر سبحانه المطمئنين في قوله:

﴿ ألاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِن القُلُوبُ ﴾

(سورة الرعد، الآية: ٢٨)

---

[1] الشعراني: لطائف المنن والأخلاق، ص ٦٨

وذكر سبحانه وتعالى، تزكية النبي ﷺ لأمته، في قوله عزَّ وجل:

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾

(سورة الجمعة، الآية: ٢)

والتزكية لمحة صوفية، تتم بعلم وعمل ومتابعة، وهي أيضا تحلي بالفضائل، وتخلية عن الرذائل، هذا إلى جانب التأمل في جمال الكون ومحاولة كشف شيء من أسراره.

ومن هنا استنبط مفكر مثل الأستاذ العقاد، ما للتصوُّف من صلة بالدين الإسلامي، حيث يقول:

"... لكن التصوف في الحقيقة غير دخيل في العقيدة الإسلامية[1]".

وبالرغم من أن هذا الكلام لا يصدق إلا على التصوُّف السني، ويخرج منه التصوُّف الفلسفي، فإن المبادئ التي أصاب فيها الصوفية، نجد لها أساسا في القرآن الكريم في

[1] العقاد: الفلسفة القرآنية، ص ١٧٤ ، وانظر ص ١٧٥

مثل الآيات التي أوردناها هنا ويفهم على هذا مثل قول الجنيد:

"طريقتنا هذه مشيدة بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به فيها[1]".

وفي آيات أخرى أيضا نجد أصول التصوُف السني مثبوتة فيها.

كقوله تعالى:

﴿ ليسَ كَمِثْلِهِ شيء وَهُوَ السمِيعُ البَصِيرُ ﴾

(الشورى: ١١).

ففي هذه الآية خلاصة العلم الذي يعلمه دارس الحكمة الإلهية.

وكقوله عزَ من قائل:

﴿ فَفِروا إلى اللهِ إني لَكُم منْهُ نَذِير مبِين ﴾

(الذاريات: ٥٠)

---

(1) الشعراني: لطائف المنن والأخلاق، ص ٤٧

وهنا وجوب اللجوء إلى جانب الله تعالى، وأن الفرار إلى الله هو باب النجاة؛ حتى لا تتكدر الروح.

وقوله تعالى:

﴿ **هُوَ الأولُ وَالآخِرُ وَالظاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُل شَيءٍ عَلِيم**﴾

(سورة الحديد: ٣)

وكذلك قوله سبحانه:

﴿ **لاَ إِلَهَ إِلا هُوَ كُل شَيءٍ هَالِك إِلا وَجهَهُ** ﴾

(سورة القصص:٨٨)

فالمتصوفة يرون أن الله تعالى، أولي أبدي قديم بغير زمان ولا مكان، عليم بالكليات والجزئيات.

وكذلك قوله تعالى:

﴿ **اللهُ نُورُ السمَاوَاتِ وَالأرض** ﴾

(النور: ٣٥)

ولا يرى المتصوفة وجودا حقيقيا إلا وجود الله عز وجل.

ومن القرآن الكريم أيضا يتعلم الصوفي الخلاف بين عالم الظاهر وعالم الباطن؛ لأنه يقرأ مثلاً واضحا لهذا الخلاف، فيما دار بين الخضر وبين موسى عليه السلام من خلاف وحوار:

﴿فَوَجَدَا عَبدا من عِبَادِنَا آتَينَاهُ رَحمَةً من عِنْدِنَا وَعَلمنَاهُ من لدُنا عِلْما* قَالَ لهُ مُوسَى هَلْ أَتبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلمَن مما عُلمتَ رُشْدا﴾ (سورة الكهف، الآيتان٦٥،٦٦)

ثم يقول القرآن الكريم على لسان الخضر:

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَن أَمري ذَلِكَ تَأْويلُ مَا لم تَسطِع عليهِ صَبرا ﴾

(سورة الكهف، الآية ٨٢)

***

وهناك أحاديث نبوية تشير إلى بعض المعاني الروحية، التي التفت إليها الصوفية، مثل قوله ﷺ، فيما رواه أبو هريرة:

"لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون، فإن يك في أمتى أحد فإنه عمر".

(أخرجه البخاري في باب فضائل الصحابة: مناقب عمر بن الخطاب)

وقوله ﷺ:

"رُب أشعث أغبر مدفوع إلى الأبواب لو أقسم على الله لأبرَه".(رواه مسلم)

وقوله ﷺ لوابصة:

"استفتِ قلبك، وإن أفتوك وأفتوك"

(هكذا رواه الإمام أحمد في المسند، ورواه البخاري في تاريخه، والدارمي في سننه، والطبراني، وحسنه النووي في رياض الصالحين بلفظ:"استفت نفسك وإن أفتاك المفتون")

وقوله ﷺ:

"يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفًا بلا حساب. قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون، وعلى ربهم يتوكلون".

(رواه البخاري ومسلم)

ويتضح من هذه الآيات والأحاديث، أن هؤلاء كلهم، في أمة محمد ﷺ. فلو لم يكونوا موجودين في الأمة، واستحال كونهم في كل وقت، لم يذكرهم الله تعالى في كتابه، ولم يصفهم النبي ﷺ.

ومن هنا برَر ابن تيمية المقامات والأحوال، على أساس أنها من أصول الدين، مثل محبة الله ورسوله، والتوكل على

الله تعالى، والشكر له، ويقرر أن "**جميع هذه الأمور فرض كل الأعيان باتفاق أهل الإيمان**[1]".

وأن اسم الإيمان قد شمل جميع المؤمنين، لكن قد أفرد هؤلاء السابقون بأسماء مختصة من ذلك؛ وهذا يدلُّ على تخصيصهم من عام المؤمنين الذين شملهم اسم الإيمان. يقول الطوسي في ذلك:

"وإنما وقع التخصيص للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، ولسائر هؤلاء الذين ذكرتهم، لسر بينهم وبين معبودهم، ولزيادة يقينهم وإيمانهم بما خاطبهم الله تعالى به وندبهم إليه، إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنهم ينفردون عن هؤلاء بتخصيص الوحي والرسالة ودلائل النبوة، فلا يجوز لأحد أن يزاحمهم في ذلك[2]".

والخلاصة هنا، أن الفكر المستقيم لدى الصوفية، لا نعدم له سندا من نصوص الكتاب والسنة وتطبيقات السلف الصالح، رضوان الله عليهم أجمعين، وهذا الفكر إنما يركز

---

(1) ابن تيمية: مختصر الفتاوى المصرية ص١٢٤. وانظـر ص ٥٨٧ القاهرة، ١٩٤٩م.

(2) الطوسي: اللمع، ص٣٥، وأنظر ص٣٤

على الجانب القلبي الذي يغفل عنه الكثيرون، فيتحوَل الدين عندهم إلى شكل ومظهر:

"إن التدين ليس مجرد التمسك بشكليات الدين دون جوهره، أو إدعاء الدين لتحقيق مآرب ذاتية. وإنما التدين هو الفهم الواعي للدين والعمل به، بما يربط حياة المجتمع، فلا ينعزل الدين، ويتقوقع أصحابه بعيدا عن حقائق الحياة[1]".

إثبات التخصيص في علوم الشريعة:

قد شاءت إرادة الخالق عز وجل، أن يجعل الناس متفاوتين، وذوي مراتب وقدرات متنوعة؛ فهناك من وهِبَ حسن الذوق، ومن وهِبَ حسن الفهم، ومن وهِبَ حسن القول، إلى غير ذلك.

ولا يجوز أن يلام من لم يوهب شيئًا من ذلك، فلم يكلف الله تعالى نفسا إلا وسعها، ولو صار كل الناس موهوبين في شيء واحد، حتى ولو كان "الولاية" لما استقام أمر الحياة؛ ولهذا فإننا لم نفهم من تعاليم الإسلام أي جبر على الإنسان

---

[1] د.أبو الوفا: مدخل ... ص٢١

أن يكون وليا حتما، ولكن لا بد من أولياء. وقد وضح الأستاذ العقاد هذه الفكرة خير توضيح حين قال ما نصه:

"لو أصبح كل الناس مصارعين لفسد كل الناس، ولكن لا بد من المصارعة مع هذا، ولا بد من المتفرغين لها إذا أردنا البقاء، ولو أصبح الناس كلهم متصوفين معرضين عن شواغل الدنيا لفسدت الدنيا، وبطل معنى الحياة ومعنى الزهد في الحياة. ولكن لا بد من هذه النزعة في بعض النفوس، وإلا قصرنا عن الشأو الأعلى في مطالب الروح، وفقدنا ثمرة التخصص، أو ثمرة القصد الحيوي، الذي ينظم لنا ثروة الروح وثروة العقول وثروة الأبدان".

ثم يبين أن لهذا أساسا في القرآن الكريم، ومع هذا فإنه أمر مباح وليس فرضا فيقول:

"والقصد الحيوي مكفول بشريعة القرآن في كل مطلب من هذه المطالب الروحية؛ فهي مباحة لمن يطيقها، وهي لا تفرض على جميع المسلمين. ولا بد من هذه الإباحة،

ولا بد من هذا الإعفاء، فإنهما يجريان بالقدر الذي يفيد ويمنع الضرر في كلتا الحالتين[1]".

وعليه فلم يبقَ موضع لإنكار أن يكون في علم الشريعة تخصيص مع أنه لا خلاف بين الأمة الإسلامية، في أن الله تعالى، أمر رسوله ﷺ، بإبلاغ ما أنزل إليه فقال سبحانه:

﴿ يَا أَيهَا الرسُولُ بَلغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيكَ مِن ربكَ ﴾

(المائدة: ٦٧)

وقد ورد في الحديث شيء من خصوصية النبي ﷺ، فيما رواه أبو ذر عن النبي أنه قال:

"لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرا".

(رواه البخاري)

فلو كان الذي علمه النبي ﷺ، مما لا يعلمون من العلوم، التي أمره الله تعالى بإبلاغها لأبلغ، ولو جاز لأصحابه أن يسألوه عن ذلك العلم لسألوه.

ولا خلاف بين أهل العلم،أن في أصحاب رسول الله ﷺ، من كان مخصوصا بنوع من العلم؛ فقد روى مسلم أن "حذيفة"

---

[1] العقاد: الفلسفة القرآنية ص ١٧٩

كان مخصوصا بعلم أسماء المنافقين، كان قد أسرَه إليه رسول الله ﷺ، حتى كان يسأله عمر ؓ فيقول: "هل أنا فيهم؟".

وقد ورد في الحلية عن ابن عباس، أن علي بن أبي طالبؓ قال:

"علمني رسول الله ﷺ، سبعين بابا من العلم، لم يعلم ذلك أحدا غيري[1]".

هذا وإن العلم الثابت بين أصحاب الحديث والفقهاء والصوفية، هو علم الدين أو الشريعة، ووجِدَ لكل منهم دواوين ومصنفات وأقاويل، كما علم لكل منهم أئمة مشهورون، وقد أجمع أهل عصرهم على إمامتهم؛ لزيادة علمهم وفهمهم.

ولو أن صاحب الحديث، أُشْكِلَ عليه شيء من الحديث، أو خفيت عليه علة من علل الأخبار، أو معرفة الرجال، لرجع في ذلك إلى علماء الحديث، لا إلى الفقهاء. ويقاس موقف الفقيه على مثل ذلك.

---

(1) الطوسي: اللمع، ص ٣٨

كذلك فإن من أُشْكِلَ عليه أمر يتعلق بمواجيد القلوب ومواريث الأسرار، وجب عليه الرجوع إلى أهل هذه المعرفة ممن مارسها ونازلها، فإن فعل غير هذا فقد أخطأ، ويقول الطوسي في هذا الموقف:

"وليس لأحد أن يبسط لسانه بالوقيعة في قوم لا يعرف حالهم، ولم يعلم علمهم، ولم يقف على مقاصدهم ومراتبهم؛ فيهلك ويظن أنه من الناصحين[1]".

[1] نفس المصدر، ص ٣٩

٣- أهداف التصوُف

تهذيب النفس:

حينما نتكلم عن تهذيب النفس، من خلال منهج التصوُف، فإنما نقصد التصوُف الإسلامي الأصيل، لا التصوُف الدخيل الذي ذهبت فيه الآراء كل مذهب ما بين تكفير أو تضليل.

وهذا التصوُف الإسلامي الأصيل، إنما هو ثمرة الأخذ بتعاليم الله عزَ وجل، وزبدة الانتفاع بالشريعة الإسلامية كتابا وسنة. وهنا نجد شخصية إسلامية سوية، فقد ثبت أن: "المرء المتدين حقًا لا يعاني مرضا نفسيا قط[1]" كما شهد بذلك "بريل".

ولم يكن التصوُف لدى أنصاره من المسلمين، بمعزل عن الأهداف الأخلاقية، التي يجهد علماء الأخلاق اليوم أنفسهم[2]؛ كي يثبتوا ما أثبته التصوُف الحق من قبل، وهو

---

(1) يوســـف القرضـــاوي: ثقافـــة الداعيـــة، ص ١٢٤ ، ط٢ ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(2) د. زكريا إبراهيم: المشكلة الخُلُقية، من ص ٣٠٣ إلى ٣٠٥، ط٢ ، ١٩٧٥ ، مكتبة مصر بالقاهرة (مشكلات فلسفية – ٦)

أننا موجودات حرَّة عاقلة، تملك باختيارها، الانسياق وراء دوافع الهدم والكراهية، أو التفاني في خدمة أهداف البناء والمودَّة والمحبة. ذلك أن الخير والشر، إنما هما ثمرة الجهد الإرادي، أو الاختيار الخلقي.

وقد ظنَّ المحدثون، بعد أن أحرز العلم تقدُّما، أن المعرفة العلمية يمكن أن تحل محل "المعرفة الخلقية"؛ حلاً لمشكلات السلوك، ولكن التجربة الواقعية أثبتت أن ضحايا "اللا أخلاقية" أكثر بكثير من ضحايا "الجهل"، ويترتب على هذا أن الإنسان هو الذي يصنع العلم، وليس العلم هو الذي يصنع الإنسان.

إن العنصر الأخلاقي لو فُقِدَ من عالم البشرية لكان المنحرفون هم أسعد الخلق، حين أطلقوا لشهواتهم العنان في الأعراض والدماء والأموال. لكن الشقاء والعذاب هو الجزاء الذي ينتظرهم عند الله تعالى[1].

---

[1] محمد متولي الشعراوي (الشيخ): الطريق إلى الله، ص٩، محاضرة ألقاها بقاعـة الاحتفـالات الكبـرى بجامعـة القـاهرة، رجـب ١٣٩٤ هـ - يوليو ١٩٧٤ ، نشر المكتبة السلفية بالقاهرة.

ومن مسلمات التصوُّف أن الفكر الإنساني نفحة من الفكر الإلهي، والفكر الإنساني بناء على هذا قادر أن يحصر نفسه في غرض من الأغراض؛ فيثمر لصاحبه القدرة أو الملكة التي يريدها[1].

ومن هذه الملكات ملكة الحياء من الله تعالى، حيث يسير الصوفي الحق ولسان حاله يقول: " ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله فيه".

وعليه فإن التصوُّف إيجابي وليس سلبيا؛ لأنه ليس هروبا من واقع الحياة، وإنما هو محاولة من صاحبه للتسلح بقيم روحية، تساعده على مواجهة الحياة المادية، بما تحقق له من التوازن النفسي[2]، ومن يفعل غير ذلك فهو يجهل حقيقة التصوُّف، ويكون مصيره الخطأ، وفي ذلك يقول الإمام الغزالي:

---

[1] العقاد (عباس محمود): مطالعات في الكتـب والحيـاة، ص ٣٠٢، ط٣، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م، دار الكتاب العربي – بيروت.

[2] د. أبو الوفا التفتازاني: مدخل إلى التصوُّف الإسـلامي، (ج مـ ن المقدمة)

"على الجملة ينتهي الأمر إلى قرب، يكاد أن يتخيل منه طائفة الحلول، وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول. وكل ذلك خطأ[1]".

كل ذلك خطأ؛ لأن بعض الصوفية حاولوا التصريح بما لا يجوز التصريح به، وألبسوا بعض المعاني ألفاظًا ما كان ينبغي أن يفعل بها ذلك؛ لأنها خطرات نفس.

أن طريق الصوفي هو الذوق لا العقل، أي طريق الوجدان أو القلب، بواسطة أحوال ومقامات يسلكها، محاولاً معرفة الله تعالى معرفة يقينية، والأحوال مواهب، والمقامات مكاسب.

وقد وجِدَ في الإسلام قوم من "النُساك" الذين تفرَّغوا للمطالب الروحية، وذلك مبني على سنة التخصص في كل مطلب من مطالب الحياة الإنسانية، ولا ينبغي أن يفْهم على أنه من قبيل الإلغاء لمطلب من مطالب الحياة الضرورية.

---

(1) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ١٤٥ – ١٤٦، تحقيـق: د. عبـد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، " بدون تاريخ".

ومن المعلوم أن التخصص أمر إيجابي؛ لأنه سبيل إلى التعميم والاستفادة من كل ملكة في العقل والروح والذوق. وعلى سبيل المثال: فليس في تخصص فرد بعلم الطب أو الهندسة تعطيل لغيره من العلوم الشريفة التي تُكمل حلقة المعارف الإنسانية، وكما يقول العقاد:

"ولا يوجب الإسلام التنسك على جميع المسلمين؛ لأن أناسا منهم تخصصوا له وفضلوه على مطالب الجسد الأخرى. ولكنه يجيزه بالقدر الذي بينا، وهو القدر الذي لا غنى عنه في تدبير حياة الإنسان، فالملكات الإنسانية أكثر وأكبر من أن يناله إنسان واحد، ولكنها ينبغي أن تُنَالَ، فكيف يمكن أن تُنَالَ؟ إنها لا تُنَالُ إلا بالتخصص والتوزيع، ولا يتأتى هذا التخصص، أو هذا التوزيع إذا سوينا بينها جميعا في التحصيل، وألزمنا كل أحد أن تكون له أقساط منها جميعا على حد سواء[1]".

---

[1] العقاد: الفلسفة القرآنية، ص ١٧٦

وقد ثبت أن ظاهرة التصوُّف، ظاهرة مشتركة بين أهل المعرفة وأهل الديانات المختلفة، سواء في صورة تصوُّف فلسفي أم ديني.

فقد وجدنا قوما يقوم تصوُّفهم على طلب المعرفة، وهو ما يسمى "بالتصوُّف الفلسفي" الذي عرِفَ في تراث مدارس الفلسفة اليونانية، ولاسيما مدرسة الإسكندرية، كما عرِفَ في أوربا في عصريها الوسيط والحديث، وفي العصر الحاضر وجدنا فلاسفة أوربيين ذوي نزعة روحية صوفية، مثل "برجسون" الفرنسي، و"برادلي" الإنجليزي، وهؤلاء صوفية بمفهوم الغرب، لا بمفهوم العرب، لا بمفهوم الإسلام.

أما التصوُّف الديني فهو ظاهرة مشتركة بين الأديان جميعا؛ لما فيه من أسس تقوم على تصفية النفس وتهذيبها بالعبادة، والانقطاع عن الدنيا، والفناء في الله.

وكان أهل الهند يؤمنون بالنرفانا – أو الخلاص – ويعتبرونها غاية الغايات في الاتصال بالله عزَّ وجل، لكن هذه الأمور وما يشبهها مرفوضة عندنا في الإسلام؛ إذ إن التصوُّف الحق هو ما طابق الكتاب والسنة وسلوك السلف الصالح رضوان الله عليهم.

إن تهذيب النفس في الإسلام، لا يكون إلا بما أمر الله تعالى به وبما نهى عنه، ويكون للمعرفة والعلم الصحيح النافع مكان عظيم مع التهذيب الروحي؛ لأن النفس العاطلة من المعرفة، هي عاطلة من التفقه في الدين حق التفقه. وليس هذا بغريب؛ لأننا نجد أن فيلسوفًا مثل "رسل" في عصرنا هذا، يرى أن العاطفة الصوفية هي الملهم لأعظم معرفة إنسانية، وأن أعظم المفكرين شعروا بالحاجة إلى الجمع والتوفيق بين العلم والتصوُّف؛ كي يبلغوا مرحلة السمو الفكري[1].

وبذلك كانت الشخصية الخلقية، هي من الشواغل الأساسية للتصوُّف، فلم يكتب علم لوجه الله تعالى، ومن أجل الحق على نحو ما كتب الصوفية في الأخلاق وفي أدب النفس، وفي الإلحاح في إحياء العزيمة والقلب، والتنفير من الإثم الظاهر، والإفك الباطن، وغير هذا مما يشهد بان أعلام الصوفية الذين كتبوا في ذلك ونبهوا عليه إنما هم أساتذة العلماء في هذا الميدان، وهم في مكان الصدارة فيه.

---

(1)Russell (B): Mysticism and Logic, Selected Papers The Modern Library, New York, 1957, P. 16.

وبالرغم من أن الصوفية كانوا قوة هائلة في الأخلاق، فقد كانت لهم هفواتهم وزلالتهم، شأن أي إنسان غير معصوم. وهذا ما دفع قوما إلى إنكار كل فضل لهم، كما دعا آخرين إلى القول بعصمتهم من أي زلل؛ وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

ولقد أشار الغزالي إلى أمر يفهم منه وجوب التأني في إصدار أي حكم يتعلق بالتصوُّف، حيث يقول:

"التصوف أمر باطن لا يُطلع عليه، ولا يمكن ضبط الحكم بحقيقته، بل بأمور ظاهرة يُعول عليها أهل العرف في إطلاق اسم الصوفي[1]".

ونحن مع الدكتور زكي مبارك، فيما ذهب إليه، من أن التصوُّف:

"هو الصدق في العواطف الدينية، الصدق الصادق الصدوق، الذي لا يثنيه وعد، ولا يرهبه وعيد[2]".

---

(1) الغزالي: إحياء علوم الدين ، ٢: ١٥٣، المكتبة التجاريـة الكبـرى بالقاهرة، "بدون تاريخ".

(2) د. زكي مبارك: التصوُّف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ١: ٣٣، ط١، ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م ، مطبعة الرسالة بالقاهرة.

لكننا نختلف معه حين يوسع باب الصدق فيدخل منه الفاجر مع الولي، حيث يقول:

"أبو نواس الفاجر الفاسق الزنديق، هو عندنا في بعض أطواره من الصوفية؛ فقد مرت به لحظات كان قلبه فيها أرق من الهواء، وأطهر من الماء[1]".

إن هذا الرأي لا يرضي الله تعالى، ولا يرضي رسوله ﷺ؛ لأن قوام التصوُّف استقامة دائمة، ومواصلة للعبادة، وليس هو جمعا بين الصدق والكذب، والاستقامة والفسق، هذا مع تسليمنا بأن لأبي نواس أشعارا في الندم، هي أقوى وأصدق من كل ما نظم أبو العتاهية في الزهد.

وقد أحسن الدكتور زكي مبارك، حين ركز على أهمية النزعة الروحية في هذا الميدان، ضاربا صفحا عن مظاهر اللباس لدى الصوفية، فإنها ليست فيصلاً في الحكم بوجوده، فهو يقول:

---

[1] المرجع نفسه ، ١: ٣٤

"التصوف ليس وقفًا على أولئك الدراويش، الذين يعيشون عيش التسول، ويتكون شمائل الزهاد، صادقين أو كاذبين".

لكنه يعود بعد هذا، ليذكر أن هذه النزعة الروحية، يستوي في إدراكها الفاجر والعفيف، حيث يقول:

"إنما التصوف نزعة روحية، يحسها الأغنياء، كما يحسها الفقراء، ويدركها الفاجر، كما يدركها العفيف. ولم لفتة من لفتات الصدق تقع من رجل معروف بالطيش، هي أقرب إلى التصوُّف والروحانية، من أعمال كثير من المرائين، الذين يلبسون مسوح الرهبان، ويضمرون غرائز اللئام من السباع والحشرات[1]".

أتفق معه في التصوُّف ليس وقفًا على الدراويش؛ فقد خالطهم المراءون الذين يلبسون مسوح الرهبان، ولعلي أفضل نسبة التصوُّف إلى الصفاء لا إلى الصوف من أجل مثل هذه الأمور.

---

(1) د. زكي مبارك: المرجع السابق، ١: ٢٤

وأختلف مع الدكتور زكي، في أن الفاجر والطائش، يمكن عدَّهما من أرباب القلوب، وإلا لتساوى الصالح والطالح، بمجرد موقف واحد يعود بعده الطالح إلى طيشه وفجوره، والأصل أن يكون الصلاح منهجا دائما للصوفي، وليس وقفة معينة.

وإذا كان حاصل التصوُّف الصحيح هو التهذيب النفسي، فيجب أن يعلَمَ أن الرسوم والأشكال هنا لا قيمة لها بدون رسوم القلب والروح؛ وبذلك نجد الصدق مبثوثًا في كل ميادين الحياة.

إن التصوُّف الإسلامي الصحيح، لا يعرف الانعزال المترفع المحزون، بل إنه يدفع أهله إلى الحب والتضحية من أجل الآخرين؛ ليكونوا نموذجا يحتذى في الحب الإلهي وفي كل ألوان الحياة الروحية والمادية، وكما يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي:

"فالصوفي يخدم نفسه، كما يخدم الآخرين: يكشف عيوب نفسه؛ ليعالجها في نفسه وفي الغير، ويرتفع بمستوى حياة الروحية؛ ليجعل منها نموذجا يحتذيه، ليس فقط أصحابه في الطريقة، بل وسائر الأمة، ويستهلك نفسه في الحب الإلهي؛

ليستطيع الشفاعة للآخرين عند مولى الشفاعة، ويستشهد ابتغاء أن يكون شاهدا على الحق[1]".

ومن ثمار التصوُّف مع هذا كله، التحلي " بالعفاف "، وهو لا معنى له إلا عند توافر القوة والإمكان؛ لأن عفاف العاجز من الرذائل لا من الفضائل، وإن توهم الناس غير ذلك.

ولن يستطيع الصوفي العفاف، ما لم يتحكم في هواه؛ لأن الهوى مصدر كل رذيلة، لقوله تعالى:

﴿أَفَرَأَيتَ مَن اتخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهدِيهِ مِن بَعدِ اللهِ أَفَلاَ تَذَكرُونَ﴾

(سورة الجاثية، الآية: ٢٣)

وقد قال ابن عباس: **"الهوى إله يعبد من دون الله"** ثم تلا الآية السابقة.

وقال الشعبي:

"إنما سُمى الهوى هوى؛ لأنه يهوي بصاحبه"

وقال الشاعر:

---

(1) د. عبد الرحمن بدوي: تاريخ التصوُّف الإسلامي، ص ٢٤

إن الهوان هو الهوى قُلِبَ اسمه

فإذا هَوَيتَ فقد لقيت هوانا

وفي نفس المعنى يشير الماوردي حيث يقول:

"أما الهوى فهو عن الخير صاد، وللعقل مضاد؛ لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها، ويظهر من الأفعال فضائحها، ويجعل ستر المروءة مهتوكًا، ومدخل الشر مسلوكًا[(1)]".

ومن هنا كان الصوفية على حق، حين فقهوا هذه الأمور، التي تقهر كثيرا من الناس، وتحبط ثواب أعمالهم وهم بها قانعون.

ومن ثمار تهذيب النفس، أن يصبح "الحلم" سمة من سماتها؛ لأن الحلم يجمع مكارم الأخلاق.

وقد روى محمد بن حارث الهلالي، أن جبريل عليه السلام نزل على النبي ﷺ، فقال: يا محمد إني أتيتك بمكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعرِض عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾

---

(1) الماوردي (المتوفى ٤٥٠ هـ): أدب الدنيا والدين، ص ١٧ ط٤ . ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦ م، طبع بولاق

(سورة الأعراف، الآية: ١٩٩)

وروى سفيان بن عيينة، أن النبي ﷺ، حين نزلت هذه الآية قال: "يا جبريل ما هذا؟" قال: لا أدري حتى أسأل العالم. ثم عاد جبريل وقال:

"يا محمد،إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك"[1].

ومن هذا المعنى يقول الشاعر:

أحب مكارم الأخلاق جهدي
وأكره أن أعيب وأن أعابا

وأصفح عن سباب الناس حلما
وشر الناس من يهوى السبابا

ومن هاب الرجال تهيبوه
ومن حقر الرجال فلن يعابا[2]

---

[1] المصدر السابق ص ٢٤٩

[2] المصدر السابق للماوردي، ص ٢٥٠

وإذا كان من أسمى غايات التصوُّف، تهذيب النفس وضبط الإرادة، وإلزام المرء بمكارم الأخلاق، فقد انفسح الطريق أمام السالكين نحو ربهم عزَّ وجل، وصار لكل منهم تجربته في هذا المجال، وأشار بعضهم إلى: " أن عدد الطرق إلى الله بعدد الأنفس"؛ تأكيدا منهم على الفروق الفردية بين كل متصوف وآخر[1].

ولا عجب أن بعض المؤلفين في التصوُّف يذكر حكم علم التصوُّف، فيقول:

"علم التصوف فرض عين على كل مكلف".

ويعلل ذلك بأن:

"الغالب أن الإنسان لا ينفك عن دواعي الشر والرياء والحسد، فيجب عليه أن يتعلم ما يتخلص به عن ذلك[2]".

وليس هناك من وسيلة للخلاص من هذه العلل النفسية، إلا الأخذ بتعاليم الإسلام، وإذا كان الإسلام لغة هو مطلق

---

[1] د. أبو الوفا التفتازاني: مدخل إلى التصوُّف الإسلامي، ص٩

[2] المالكي (محمد بن أحمد): الدر الثمين والمورد المعـين، ٢: ١٧٠، طبع ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م، مصطفى البابي الحلبي بمصر.

الطاعة والانقياد، فإنه في الشرع الانقياد التام لتعاليمه مع النطق بالشهادتين:

"الانقياد ببعض الجوارح فقط، ليس إسلاما كاملاً، بل إسلام ناقص أو كفر[1]".

وعدم ترك المنهيات، يجعل الإسلام ناقصا، وعدم النطق بالشهادتين كفر، والعياذ بالله تعالى.

وهناك ما يسمى "الجوارح الكواسب" وهي الأعضاء السبعة التي يكسب بها المرء، الخير والشر، وهي: السمع، والبصر، واللسان، واليدان، والرجلان، والفرج، والبطن، وقد عِني الصوفية بطهارة هذه الجوارح عناية شديدة.

فمن عصى الله تعالى، بأي جارحة من هذه الجوارح، فتح له بابا من أبواب جهنم، ومن إطاعة بواحدة منه غلق عنه بابا منها، فإن تمكن من إطاعة الله تعالى بجميع هذه الجوارح غُلقت عنه أبواب جهنم كلها.

---

(1) المصدر نفسه: ١: ٥٧

فلا بد إذًا من اتباع الشرع قبل التصوُّف؛ لأن النهايات لا تُعلَم إلا بتصحيح البدايات، **وهذه البدايات عشرة أنواع وهي بإيجاز شديد:**

١ - اليقظة:

لقوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ (سبأ: ٤٦)

والقوامة لله تعالى، هي اليقظة من سنة الغفلة، والنهوض عن ورطة الفترة، وهو أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه.

٢- التوبة:

﴿ وَمَن لم يَتُب فَأُولَئِكَ هُمُ الظالِمُونَ ﴾ (الحجرات: ١١)

فأسقط سبحانه اسم الظلم عن التائب.

٣- المحاسبة:

﴿ وَلْتَنْظُر نَفْس ما قَدمَتْ لِغَدٍ ﴾ (الحشر: ١٨)

وإنما يسلك طريق المحاسبة بعد العزيمة على عقد التوبة.

٤- الإنابة:

﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾

(الزمر: ٥٤)

والإنابة هي الرجوع

٥- التفكر:

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(النحل: ٤٤)

والتفكر تصرُّف البصيرة لاستدراك البغية.

٦- التذكر:

﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾

(غافر: ١٣)

والتذكر فوق التفكر؛ فإن التفكر طلب، والتذكر وجود.

٧- الاعتصام:

﴿ وَاعتَصِمُوا بِحَبلِ اللهِ جَمِيعا ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

﴿ وَاعتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَولاكُم ﴾

(الحج: ٧٨)

٨- الفرار:

﴿ فَفِروا إِلى اللهِ ﴾

(الذاريات: ٥٠)

والفرار هو الهرب مما لم يكن إلى ما لم يزل.

٩- الرياضة:

﴿ وَالذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُم وَجِلَةٌ ﴾

(المؤمنون: ٦٠)

والرياضة تمرين النفس على قبول الصدق.

١٠- السماع:

﴿ وَلَو عَلِمَ اللهُ فِيهِم خَيرا لأَسمَعَهُم ﴾

(الأنفال: ٢٣)

ونكتة السماع حقيقة الانتباه[1].

وهكذا يحاول الصوفي تثبيت قدم المريد على الطريق، بعيدا عن التهويل والخيال؛ الذي يفسد العقيدة.

وحينما أراد الاستعمار الفرنسي في الجزائر منذ عام ١٨٣٠م أن ينال من العقيدة الإسلامية، مجد التصوُّف الكَذِب الذي يشيع الخرافات والأباطيل، على نحو ما نراه في مؤلفات "لويس ماسينيون" وكما يقول الدكتور محمود قاسم عن هذا المستشرق إنه:

"خصص حياته للكتابة في الحلاج، فجعله صورة من المسيح في الإسلام، وأعتقد أن ماسينيون ما كان يعني بالحلاج قدر عنايته بتنفيذ مخطط استعماري أُحكِمَ صنعه؛ فقد ملأ كتابه الضخم عن الحلاج بحشد هائل من الخرافات والتُرهات والأباطيل؛ حتى يعمق الهوة بين طائفتين توجدان بالجزائر: طائفة تتمسك بالقديم، فتنساق حسب ظنه إلى اعتقاد أن هذه الخرافات والهذيانات هي صميم الإسلام،

---

[1] الدر الثمين (السابق) ٢: ١٦٨ - ١٦٩

وطائفة مثقفة بالثقافة الحديثة تتجه من جانبها إلى السخرية والزراية بهذا الإسلام الخرافي، بل من الإسلام كله[(1)]".

وكان ابن باديس في الجزائر، يرى أن التصوُّف الخادع، هو من معوقات الإصلاح؛ لأنه نابع عن سوء فهم للدين. وكان يريد أن يستنقذ من الطرق الصوفية بعض العناصر الصالحة؛ حتى لا يدوروا في فلك المستعمر مثل غيرهم. ومع هذا يقول الدكتور قاسم عن هذا الزعيم الروحي:

"لكنا نميل إلى أنه كان متصوفًا سنيا بمعنى الكلمة، ولم تكن شخصيته بحاجة إلى أن تستكمل من طريق هؤلاء[(2)]".

هكذا كان التصوف السني الصحيح، تصوفًا عمليا جعل من صاحبه زعيما روحيا مهذب النفس، يجابه أعداء الله والدين والوطن، فكان رجلاً بحق. أو كما يقول أبو حفص الحداد النيسابوري (المتوفى عام نيف وستين ومائتين):

---

(1) د. محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس، الـزعيم الروحـي لحرب التحرير الجزائرية، ص٧، طبـع ١٩٦٨م، دار المعـارف بمصر.

(2) المصدر نفسه، ص ٤٨ – ٤٩

"التصوف كله آداب: لكل وقت أدب، ولكل مقام أدب، ولكل حال أدب؛ فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب، فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يظن القبول[(1)]".

وقريب من هذا المعنى، ما قاله أبو الحسن النوري:

"ليس التصوف رسوما ولا علوما، ولكنه أخلاق[(2)]".

أي أنه لو كان رسوما لحصل بالمجاهدة، ولو كان علوما لأمكن الوصول إليه بالتعلم، ولكنه أخلاق، فما لم تطلب حكمه من نفسك، وما لم تصحح معاملته مع نفسك، وتنصفه من نفسك لا يحصل.

فالرسوم فعل يكون بالتكلف، وحين يكون ظاهرها على خلاف باطنها تكون فعلاً خاليا من المعنى.

أما الأخلاق فهي فعل محمود بلا تكلف، وظاهره موافق لباطنه، وخالٍ من الدعوى.

وفي نفس المعنى يقول صوفي آخر اسمه "المرتعش":

---

(1) الهجويري: كشف المحجوب، ص ٢٣٧

(2) نفس المكان.

"التصوف حسن الخلق".

وهذا على ثلاث أنواع:

١- أولها مع الحق: بأداء أوامره بلا رياء.

٢- والثاني مع الخلق: بحفظ حرمة الكبار، والشفقة على الصغار، وإنصاف الأقران، والأعراض عن الكل، وعدم طلب الإنصاف من الخلق.

٣- والثالث مع النفس: بعدم متابعة الهوى والشيطان؛ فكل من يقوم نفسه في هذه المعاني الثلاثة، يكون من ذوي الخلق الحسن.

وهذا متفق مع قول عائشة الصديقة – بتشديد الصاد – رضي الله تعالى عنها، حين قيل لها: أخبرينا عن خلق النبي ﷺ، فقالت: اقرأ من القرآن قول الله تعالى:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩)

وبناء على هذا يكمل المرتعش حديثه فيقول:

"هذا مذهب كله جد فلا تخلطوه بشيء من الهزل[1]".

---

(1) نفس المصدر، ص ٢٣٧ – ٢٣٨

أي أن مذهب التصوُّف كله جد، فلا ينبغي أن يخلط بشيء من الهزل أو المتعلق بمعاملات المترسمين، أصحاب التعلق بالرسم والشكل؛ لأنهم لا علاقة لهم بمعرفة كلها ذوق.

وقد جاء أحد تلامذة ابن عربي يوما وقال له: إن الناس ينكرون علومنا، ويطالبوننا بالدليل عليها.

فقال له أستاذه:

"إذا طالبك أحد بالدليل والبرهان على علوم الأسرار الإلهية، فقل له: ما الدليل على حلاوة العسل؟ فلا بد أن يقول لك: هذا علم لا يحصل إلا بالذوق! فقل له: هذا مثل ذلك! [1]".

ويمكن استنباط "خصائص التصوُّف" مما عرضناه عن تهذيب النفس في هذا المجال، وهي تتلخص في خمس نفسية وأخلاقية ومعرفية وقد ذهب الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازاني[2]، إلى أن هذه الخصائص هي أكثر انطباقًا على مختلف أنواع التصوُّف، بما يميزه عن كل الفلسفات في العالم

---

[1] ابن عربي: التدبيرات الإلهية، ص ١١٤ – ١١٥، طبعة نيبرج.

[2] انظر له: مدخل إلى التصوُّف الإسلامي، من ص ٦ إلى ٨

في جميع العصور، ونلخصها فيما يلي، مع ملاحظة أن التصوُّف الإسلامي في كل خصائصه، ينبغي أن يكون متبعا لا مبتدعا، أي مطابقًا للكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة:

١- الترقي الأخلاقي:

لأن كل متصوُّف له قيم أخلاقية يحاول الوصول إليها بواسطة ترقية النفس.

٢- الفناء في الحقيقة:

والفناء هو أن يصل الصوفي من رياضاته إلى حالة معينة لا يشعر فيه بذاته، لكنه يشعر ببقائه مع حقيقة مطلقة، وهنا قد يخطئ الصوفي حين يعبر بالألفاظ اللغوية عن تلك الحالة، فيقول أحدهم بالاتحاد، أو الحلول، أو وحدة الوجود، أو يقول بعضهم بالاثنية أو الكثرة في الوجود، وقد أشار الغزالي إلى أن هذا توُّهم، وأنه كله خطأ.

٣- العرفان أو الذوق المباشر:

وهو معيار دقيق يميز التصوُّف عن غيره من الفلسفات التي تصطنع منهج العقل في إدراك الحقيقة؛ فالصوفي يؤمن بأن وراء إدراكات الحس واستدلالات العقل منهجا آخر

للمعرفة الحقيقية يسميه "كشفًا أو ذوقًا" وهي كشف برهي أو آني سريع الزوال، وهو أشبه شيء بالومضة السريعة المفاجئة.

٤- الطمأنينة أو السعادة:

وهنا يهدف التصوُّف إلى قهر دواعي الشهوات أو ضبطها، وفي ذلك حصول على التوافق النفسي، الذي يجعل صاحبه متحررا من كل مخاوفه، وشاعرا براحة نفسية عميقة أو طمأنينة، تتحقق بها سعادته.

٥- الرمزية في التعبير:

ومعنى الرمزية، أن لعبادات الصوفية عادة معنين:

أحدهما: يستفاد من ظاهر الألفاظ، والآخر يستفاد بالتحليل والتعمق، وهذا المعنى الأخير يكاد يستغلق تماما على من ليس بصوفي، لأن التصوف حالات وجدانية خاصة يصعب التعبير عنها بألفاظ اللغة وليست شيئًا مشتركًا بين الناس جميعا.

وبناء على هذه يصبح الصوفي في حالة يفقد فيها حريته، لا مع الناس أو الكون، ولكن مع الله عزَّ وجل، وتلك محمدة لا مذمة وضحها الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور بقوله:

"لم يُغْفِل متصوفة الإسلام مشكلة حرية الإرادة، ولكنها ليست ذات شأن كبير في نظرهم عالجوها على طريقتهم".

ثم يقول:

"والواقع أن الشخصية الإنسانية كلها في نظر الصوفي ليست إلا مجرد شبح وظل، وجودها فيض، وحياتها عون من الله ومدد، وسعادتها في أن تنمى وتفنى في البارئ جل شأنه. ومن التوسع أن يعزي إليها حرية أو إرادة، فحريتها حرية العبد المخاص المطيع، وإرادتها خاضعة خضوعا تاما للإرادة الإلهية[1]".

الفتوة الصوفية:

إن الفتوَة لدى الصوفية هدف نبيل من أهداف التصوُف، ويستحق أن نفرد له حديثًا خاصا.

---

[1] د. إبراهيم مدكور: في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه ، ٢: ١٤٢، طبعة ١٩٨٣ م ، دار المعارف بمصر.

فهناك نوع من الفتوَة صيِغَ بصبغة صوفية، تلتقي فيه الصبغات الإسلامية الكريمة بتعاليم الصوفية.

كان أول ظهور هذا النظام مع الفتوَة، في دائرة الحسن البصري رحمه الله تعالى، الذي أُطْلِقَ عليه "سيد الفتيان"، وكان من أوائل الذين مهدوا للتصوُف الإسلامي.

لكن هذه الحركة لم تكتمل، إلا حين اشتد عود التصوُف، وكملت تعاليمه، وظهر أعلامه؛ فهنا نرى مزجا عجيبا بين الفتوَة ومبادئ التصوُف.

وأخذ الصوفية من تعاليم الفتوَة الإسلامية[1] أهم ميزاتها وهو "الإيثار" وأضافوا إليها صفات أخرى متصلة بها، مثل كف الأذى، وبذل الندى، وترك الشكوى، وإسقاط الجاه، ومحاربة النفس، والعفو عن زلات الآخرين.

---

[1] فضلنا هنا استعمال كلمة "الفتوَة الإسلامية"؛ لأننا وجدنا الأستاذ عمر الدسوقي يكرر الحديث عن "الفتوة العربية" لدى الصوفية مما يشعر بأنهم استفادوا من أخلاق الجاهلية العربية، وعلى كل حـال فإننـا مدينون بالفضل في هذا الموضوع لأستاذنا رحمه الله تعالى.

يقول أبو بكر الأهوازي موضحا معنى الفتوَة لدى الصوفية:

"إن أصل الفتوة ألا ترى لنفسك فضلاً واحدا".

ويقول القشيري في الفصل الذي عقده عن الفتوَة:

"أصل الفتوة أن يكون العبد أبدا في أمر غيره[1]".

وقال بعضهم في تفسير قوله تعالى:

﴿ قَالُوا سَمِعنَا فَتًى يَذْكُرُهُم يُقَالُ لَهُ إِبرَاهِيمُ ﴾ (الأنبياء: ٦٠)

إن الفتوة هنا هي كسر الصنم الوارد في القصة، وصنم كل إنسان نفسه، فمن خالف هواه، فهو فتى على الحقيقة[2].

ونحن نرفض هنا تأويل الصنم بالنفس، وإلا لتساوى الصوفية بالباطنية، لكننا لا نرفض أن يستفاد من موقف إبراهيم عليه السلام في ضبط النفس وفي مكارم الأخلاق.

وبذلك حاول الصوفية أن يتوسعوا في معنى الفتوَة، وحملوها أكثر مما تحتمل بهذه الصورة.

---

[1] الرسالة القشيرية، ص ١٧٦

[2] نفس المصدر، ص ١٧٧

ومع أن التصوُّف الإسلامي، قد أخذ من الفتوَة الإسلامية أشياء عديدة، من أهمها الشجاعة والكرم ونكران الذات وغيرها، فإنه أيضا كما يرى الأستاذ عمر الدسوقي:

"مسخ الفتوة العربية مسخًا، ولم نعد نرى صفات الفروسية والكفاح والنضال في سبيل الشرف، وإنما نرى زهدا وبعدا عن الدنيا[(1)]".

ونحن نختلف مع هذا الرأي؛ لأن الصوفي الحق الذي يبحث عن مكارم الأخلاق، ويجتهد في دقائق الأمور الظاهرة والخفية لا يمكن أن يهجر مكْرمة كالفروسية والجهاد في سبيل العقيدة والشرف.

وإنما يمكن القول بأن هذا المسخ للفتوَة قد تم فعلاً على يد قوم انحرفوا عن جادة التصوُّف، وجهلوا حقيقة الزهد، ومالوا إلى البطالة والتدني، وهؤلاء يحسب سلوكهم على أنفسهم لا على طائفة السالكين، الذين دققوا في اعتناق الشريعة في كل صغيرة وكبيرة.

---

(1) الفتوَة عند العرب، ص ٢٢١

وقد فهم الأستاذ عمر الدسوقي أن الصوفية يضعفون أجسادهم لتقوية أرواحهم؛ حتى تتصل بالذات العلية، وهذا غير صحيح إلا إذا قلنا إن صيام رمضان لإضعاف الجسد، وإنما الحق أنه لتحقيق الضبط والتوازن بين الجسد والروح، فكذلك التصوُّف الحق، وقد كان أصحابه فرسانًا وأبطالاً مع قوة روحهم.

ويستشهد الأستاذ عمر بالنص المعروف للإمام الغزالي من كتاب المنقذ من الضلال وهو:

"طريقة أول شرائطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله، ومفتاحها استغراق القلب بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله تعالى".

والتأمل في النص لا يوحي بأن الغزالي يهدف أبدا إلى إضعاف الجسد، ولا أنه يشترط ذلك في تطهير القلب، وهذا لا يمنع أن نجد فريقًا من أهل التصوُّف يحاول إضعاف جسده، وهذا وهم كبير، وسوء فهم لتعاليم الإسلام، ولمنهج التصوُّف.

ولعل نظرة الأستاذ عمر أيضا إلى هذا الفريق الخاطئ، هي التي جعلته يعمم الحكم على الصوفية؛ حيث يرى أن

إقبال الفتيان على التصوُّف لا يتفق مع أخلاق الفتوَة، كما عرفها العرب والمسلمون من قبل، فهو يقول:

"لأن الفتى العربي إذا كان ثمة ما يدعو إلى الغضب، يغضب لشرفه، ويغضب لعقيدته، ويغضب إذا أُمتُهنَ أو أُهِينَ، وهو لا يحب الجبن، ولا يعرفه، فكيف يتفق مع التصوف الذي يدعو إلى إزالة القوة الشهوانية والغضبية في الإنسان"[1].

ومن الواضح أن هذا فهم خاص لمعنى التصوُّف، لا يبلغ كنهه، وقد وجدنا في الصوفية نماذج عالية في الجهاد والغيرة على الدين وعلى حرمات الله تعالى.

واستكمالاً لموقف الصوفية من الفتوَة، فإنهم قد استعملوا كلمة فتوَة، وأكثروا منها في أحاديثهم، وأخذوا من تعاليمها بعض الصفات.

فالفتى الصوفي من كانت له "دعوى" يدافع عنها، ويضحي بنفسه في سبيلها، وتختلف هذه الدعوى من شخص لآخر

---

[1] الفتوَة عند العرب، ص ٢٢٢ – ٢٢٣

حسب استقامته على أصول الإسلام، وما نظن المستقيمين إلا أنهم أصحاب دعاوى طيبة كقولهم:

"**الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان**".

"**الفتوة ألا ترى لنفسك فضلاً على غيرك**".

"**الفتوة اتباع السنة**"

"**الفتوة الوفاء والحفاظ**" أي حفظ الحدود وعدم تعديها. وغير ذلك[1].

وما نظن أهل الهوى من الصوفية إلا أنهم أصحاب دعاوى هي كالبلايا والرزايا العظام، وهي على كل حال دعاوى سيئة مهما كانت مبرراتها.

فالحلاج مثلاً كان يقول "**أنا الحق**" فهذه دعواه التي يقول عنها: "**إن رجعت عن دعواي وقولي سقطت من بساط الفتوَة**".

إننا نعتقد أنه سقط من شاهق نتيجة هذه التصريحات المخالفة للعقيدة الصحيحة.

---

[1] الرسالة القشيرية، ص ١٧٧

ومما يدل على أن الحلاج يستحق السقوط إلى الهاوية، أن يتخذ من دعوى إبليس أنه أفضل من آدم في قوله ﴿**أَنَا خَيرٌ مِنْهُ**﴾ (سورة ص ٧٦) ومن دعوى فرعون الألوهية في قوله: ﴿**أَنَا رَبكُمُ الأعلَى**﴾ (النازعات ٢٤) – دليلاً على فتوتهما فيقول على لسان إبليس:"**إن سجدت سقط عني اسم الفتوة**" ويقول على لسان فرعون:"**إن آمنت برسوله، سقطت من منزلة الفتوة**"؛ ولهذا قال الحلاج عن نفسه: "**إن رجعت عن دعواي وقولي سقطت من بساط الفتوَة**"[1].

فهذا انحراف خطير في مفهوم الفتوَة، وخلط كبير بينها وبين الإلحاد، وما كان ينبغي سوقها عند أي باحث مسلم دون أن ينكر على صاحبها؛ حتى لا يتشربها الناس دون وعي.

هذا وقد اعتنق الفتوَة إلى جانب منهج التصوُّف، من أُطْلِقَ عليهم "أهل الملامة" حيث سموا أنفسهم الفتيان؛ لأنهم كانوا يؤثرون إخوانهم على أنفسهم، مع أخذ أنفسهم بالزهد الكامل.

---

[1] الحلاج: الطواسين (طاسين الأزل والالتباس) ص ٩٩ (ضمن أخبار الحلاج لعلي بن أنجب الساعي المتوفى عام ٦٧٤هـ ـ) تصـحيح عبد الحفيظ هاشم. طبع ١٩٧٠م، مكتبة الجندي بالقاهرة.

معنى تلبيس إبليس على بعض الصوفية:

نتعرَض لهذا الموضوع بصورة مجملة، لما له من علاقة بأهداف التصوُف أو ثمراته؛ لأن إبليس اللعين، هو الذي يحاول منع الإنسان من تحقيق أهدافه الصالحة، أو جني ثمار سلوكه الطيب.

وقد ألف الحافظ الإمام جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي البغدادي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ - كتابه "**تلبيس إبليس**"؛ ليكشف للناس بعض الانحرافات في الفكر والسلوك، مما كان مصدره وسوسة الشيطان للناس.

ويرى هذا الإمام، أن أعظم النعم على الإنسان هي "**نعمة العقل**"؛ وبذلك أعلن أن منهجه لا ينفصل عن التفكير العقلي.

فالعقل آلة في "معرفة الإله سبحانه"، كما أنه السبب الذي يتوصلُ به إلى تصديق الرسل؛ فالشرع الإلهي مثل الشمس، والعقل مثل العين، فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس[1].

---

(1) ابن الجوزي: تلبيس إبليس ص ٢ وانظر ما بعدها. نشر دار الكتب العلمية، بيروت "بدون تاريخ".

وقد ظل الوحي الإلهي مصدر تعليم الإنسان، إلى أن تشعبت الأهواء بالناس؛ فشرَّدتهم في بيداء الضلال، حتى عبدوا الأصنام، واختلفوا في العقائد والأفعال اختلافًا خالفوا فيه الرسل والعقول، اتباعا لأهوائهم، فصدَّق عليهم إبليس ظنه، فاتبعوه إلا فريقًا من الذين عضوا بالنواجذ على دينهم.

لقد جاء الأنبياء بالبيان الكافي، وقابلوا الأمراض بالدواء الشافي، وتوافقوا دائما على منهج أصيل لم يختلف.

وهنا أقبل الشيطان يخلط بالبيان شبها، وبالدواء سما، وما زال هذا اللعين يلعب بالعقول، إلى أن فرَّق الجاهلية في مذاهب سخيفة، إلى حد أن بعض البشر قد عبد الأصنام في البيت الحرام:

"فابتعث الله سبحانه وتعالى، محمدا ﷺ، فرفع المقابح، وشرع المصالح؛ فسار أصحابه معه وبعده في ضوء نوره، سالمين من العدو وغروره[1]".

أما الذي حدث بعد ذلك، فيحدثنا عنه ابن الجوزي رحمه الله تعالى فيقول:

---

[1] المصدر نفسه ص ٤

"فلما انسلخ نهار وجودهم، أقبلت أغباش الظلمات، فعادت الأهواء تنشئ بدعا، وتُضيق سبيلاً ما زال متسعا، ففرق الأكثرون دينهم وكانوا شيعا، ونهض إبليس يُلبس ويزخرف ويفرق ويؤلف، وإنما يصحُ له التلصص في ليل الجهل، فلو قد طلع عليه صبح العلم افتضح"[(1)].

وقد رأى ابن الجوزي بناء على هذا، أن يحذر من مكائد الشيطان، وأن يدل على مصائده؛ لأن في تعريف الشر تحذيرا عن الوقوع فيه.

ففي الصحيحين من حديث حذيفة، قال:

"كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركني".

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

"والله ما أظن على ظهر الأرض اليوم أحدا أحب إلى الشيطان هلاكًا مني. فقيل وكيف؟ فقال: والله إنه ليُحدِثُ البدعة في مشرق أو مغرب، فيحملها الرجل إلي، فإذا انتهت إلي قمعتها بالسنة؛ فتُرد عليه كما أخرجها".

---

(1) نفس المكان

وهذا هو الأساس الذي وضع ابن الجوزي مؤلفه عليه، أي:

"محذرا من فتنه، ومخوفًا من محنه، وكاشفًا عن مستوره، وفاضحا له، في خفي غروره، والله المعين بجوده كل صادق في مقصوده"[1].

وكتاب "تلبيس إبليس"، مقسم إلى ثلاثة عشر بابا، ينكشف بمجموعها تلبيس الشيطان وتدليسه، وهي:

الباب الأول: في الأمر بلزوم السنة والجماعة.

الباب الثاني: في ذم البدع والمبتدعين.

الباب الثالث: في التحذير من فتن إبليس ومكائده.

الباب الرابع: في معنى التلبيس والغرور.

الباب الخامس: في ذكر تلبيسه في العقائد والديانات.

الباب السادس: في ذكر تلبيسه على العلماء في فنون العلم.

الباب السابع: في ذكر تلبيسه على الولاة والسلاطين.

الباب الثامن: في ذكر تلبيسه على العباد في فنون العبادات.

---

[1] نفس المكان

الباب التاسع: في ذكر تلبيسه على الزهاد.

الباب العاشر: في ذكر تلبيسه على الصوفية.

الباب الحادي عشر: في ذكر تلبيسه على المتدينين بما يشبه الكرامات.

الباب الثاني عشر: في ذكر تلبيسه على العوام.

الباب الثالث عشر: في ذكر تلبيسه على الكل بتطويل الأمل.

ونلاحظ هنا أنه ركز على نقد الصوفية في الباب العاشر، ومع هذا فإن هناك نقدا يندرج تحت الباب نجده في الأبواب: الثامن، والتاسع، والحادي عشر.

ولم يفت ابن الجوزي أن يذكرنا، بأننا نحن المسلمين أمة واحدة، وأنه لا بد من توحدنا وتجمعنا. وفي ذلك ثواب عظيم، هو دخول الجنة بإذن الله تعالى ورحمته؛ لقول النبي ﷺ، فيما رواه عمر:

"من أحب منكم أن ينال بحبوحة الجنة (أي وسطها) فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد[1]".

---

[1] تلبيس إبليس ص ٦

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وقد نهى النبي ﷺ، عن تفرُّق الأمة الإسلامية، إلى شيع وأحزاب وفرق، حتى لا يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل، من الفرقة على اثنتين وسبعين ملة، ويقول ﷺ:

"وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار، إلا ملة واحدة".

قالوا: من هي يا رسول الله؟

قال:

"ما أنا عليه وأصحابي".

قال الترمذي أيضا: هذا حديث حسن غريب، لا يعرف إلا من هذا الوجه.

وعلى هذا النهج سار السلف الصالح رضوان الله عليه أجمعين. يقول الأوزاعي في هذا:

"اصبر نفسك على السنة، وقِفْ حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكُف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعهم[1]".

---

(1) المصدر نفسه ص ٩

وقال سفيان:

"إذا بلغك عن رجل بالمشرق أنه صاحب سنة، فابعث إليه بالسلام، وإذا بلغك عن آخر بالمغرب أنه صاحب سنة، فابعث إليه بالسلام؛ فقد قل أهل السنة والجماعة[1]".

وإذا كان بعض الصوفية قد ساروا في طريق الشيطان فوقعوا في البدع والمنكرات، فإن الصوفية الأصلاء حافظوا على الشريعة وأقاموا السنة، ودعوا إليها. كما يقول الجنيد:

"الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ، واتبع سنته، ولزم طريقته؛ فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه[2]".

وفي رواية أخرى، يقول الجنيد مؤكدا نفس المعنى:

"الطريق إلى الله عز وجل، مسدود على خلق الله تعالى، إلا على المقتفين آثار رسول الله ﷺ، والتابعين لسنته. كما قال عز وجل:﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الآية".

---

(1) نفس المكان.

(2) نفس المصدر ص ١٠

وعلى الصوفية وغيرهم أن يتنبهوا إلى خطر البدعة فلا يقربوها؛ لما ورد في شأنها من ذم وتحذير، كقوله ﷺ فيما روته عائشة رضي الله عنها:

"من أحدث في أمرنا ما ليس فيه فهو رد"

وفي رواية أخرى:

"من فعل أمرا ليس عليه أمرنا فهو رد"

(أخرجهما الشيخان)

وكذا قوله ﷺ، فيما رواه عمر:

"من رغب عن سنتي فليس مني".

(أخرجه البخاري)

وقد أكد ابن الجوزي على حرمة البدعة، وحدد مفهومها قائلاً:

"البدعة: عبارة عن فعل لم يكن، فأُبتُدِعَ"

وقال أيضا:

"والأغلب في المبتدعات أنها تصادم الشريعة بالمخالفة، وتوجب التعاطي عليها بزيادة أو نقصان"[1].

ونودُ هنا أن نزيد ما قاله "ابن رشد" عن تحديد أحكام الشريعة؛ حيث إنه ينصُ على أن تلك الأحكام التي تُلُقِيت عن النبي ﷺ هي بالجنس ثلاثة: إما لفظ، وإما فعل، وإما إقرار. أما ما سكت عنه الشارع من الأحكام، فقال الجمهور: إن طريق الوقوف عليه القياس، لكن أهل الظاهر ذهبوا إلى أن القياس في الشرع باطل، وما سكت عنه الشارع فلا حكم له[2].

فيجب أن يؤخذ هذا الكلام في الاعتبار عند الحكم على أمر ما بأنه بدعة، فرب قوم قاسوا فحكَمَ عليهم غيرهم بالابتداع.

ونعود إلى ابن الجوزي، فنجده يوجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو "إبليس"؛ لأنه أبان عداوته من

---

(1) نفس المصدر لابن الجوزي ص ١٦

(2) ابن رشد (٥٢٠ – ٥٩٥ هـ): بداية المجتهـد ونهايـة المقتصـد ١: ٢، ط٤، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

زمن آدم عليه السلام، وقد بذل عمره ونفسه، في إفساد بني آدم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وقد أمر الله تعالى بالحذر من إبليس، فقال سبحانه وتعالى:

﴿لاَ تَتبِعُوا خُطُوَاتِ الشيطَان﴾

(النور ٢١)

وقال عزَّ من قائل:

﴿الشيطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحشَاءِ﴾

(البقرة ٢٦٨)

وقال:

﴿وَيُرِيدُ الشيطَانُ أَن يُضِلهُم ضَلالاً بَعِيدا﴾

(النساء ٦٠)

وقال:

﴿إِن الشيطَانَ لِلإِنْسَان عَدُو مبِين﴾

(يوسف ٥)

وقال:

﴿وَلاَ يَغُرنكُم بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ **(فاطر ٥)**

وقد أمرنا الله تعالى بالتعوُّذ من الشيطان الرجيم عند التلاوة، فقال تعالى:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ فَاستَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشيطَانِ الرجِيمِ﴾

وعند توقع السحر:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ إلى آخر السورة

فإذا أُمِرَ المسلمون بالتحرُّز من شره في هذين الأمرين، فكيف في غيرهما.

وبناء على هذا يوضح ابن الجوزي معنى التلبيس فيقول:

"التلبيس إظهار الباطل في صورة الحق".

أما الغرور فهو:

"نوع جهل يوجب اعتقاد الفاسد صحيحا، والرديء جيدا".

وكل هذا ناتج عن وجود شبهة أوجبت ذلك، كما أن إبليس لا يدخِلُ على الناس إلا بقدر ما يمكنه، ويزيد تمكنه منهم أو يقل على مقدار يقظتهم أو غفلتهم.

وقد شبه ابن الجوزي، قلب الإنسان بالحصن الذي عليه سور، وللسور أبواب، وفيه ثغرات أو ثُلَم، وساكنه العقل،

والملائكة تتردد إلى ذلك الحصن وإلى جانبه مكان فيه الهوى، والشياطين تختلف إلى ذلك المكان من غير مانع، وبينها وبين أهل المكان حرب دائرة، والشياطين لا تزال تدور حول الحصن تطلب غفلة الحارس والعبور من بعض الثُلَم، وعلى هذا ينبغي للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذي وكل إليه حفظه، كما ينبغي ألا يفتر عن الحراسة لحظة واحدة؛ لأن العدو لا يعرف الفتور[1].

وقد قال رجل للحسن البصري: أينام إبليس؟ قال: **لو نام لوجدنا راحة!**

وقال الحسن بن صالح في هذا المعنى:

"**إن الشيطان ليفتح للعبد تسعة وتسعين بابا من الخير؛ يريد به بابا من الشر**"[2].

وهكذا وضح ابن الجوزي معنى تلبيس إبليس على الناس، حيث يوقعهم في الشر من حيث قصدوا الخير والصلاح.

---

(1) تلبيس إبليس ص ٣٨

(2) المصدر نفسه ص ٣٩

ودعم كلامه بنصوص متعددة من الكتاب والسنة، وكلام السلف الصالح، بل وكلام الصوفية أنفسهم.

ولا يختلف عاقل منصف مع ابن الجوزي في أن الشيطان للإنسان عدو مبين، وأنه تجب الوقاية منه والتحفظ من وساوسه ما أمكن، والتصوُّف السني الصحيح حقًا لا يختل مع هذا المنهج.

ومن هنا نجد ابن الجوزي ينطلق بهذا الميزان، ناقدا به تصرُّفات ومواقف الصوفية علما وعملاً، وسوف نرى منه نماذج لهذا النقد فيما بعد إن شاء الله تعالى.

٤- سمات التصوُّف

تعريف التصوُّف:

وردت جملة تعريفات للصوفي، هي بمثابة الوصف لأحواله وخصاله، وأكثر هذه التعريفات نطق بها الصوفية أنفسهم؛ مما يدل على أن الناطق بها خبير في هذا التعريف أو ذاك الوصف.

ومن هذه التعريفات ما يربط بين التصوُّف والولاية الكاملة مثل قول الهجويري:

"الصوفي: اسم يطلقونه على كاملي الولاية، ومحققي الأولياء[(1)]".

ويقول أحد مشايخهم عن الصوفي، ومدى فوزه برضوان الله تعالى:

"من صافاه الحب فهو صافٍ، ومن صافاه الحبيب فهو صوفي"[(2)].

[(1)] كشف المحجوب ص ٢٣٠

[(2)] نفس المكان

ويشير الهجويري إلى أن اشتقاق هذا الاسم لا يصحُ على مقتضى اللغة من أي معنى؛ لأن هذا الاسم أعظم من أن يكون له جنس ليشتق منه، وقد جرت العادة أن يشتق الشيء من شيء مجانس له، وأن كل ما هو كائن ضد الصفاء، ولا يشتق الشيء من ضده:

"لأن الصوفي ممنوع عن العبارة والإشارة"[(1)].

وفي هذا لفت نظر للصوفية الذين يصرحون بعبارات موهمة؛ مما جرَ عليهم الاتهام في صحة عقيدتهم.

ومن الجهل أن يطلق إنسان على نفسه أنه "صوفي"، فيكون دليلا على أنه ليس بصوفي حقيقي؛ لأن هذه الصفة سرية بين العبد وربه، فلا تُطْلَقُ إلا على من بلغ الدرجة العليا. ولكن السالك في أي مرحلة يمكن أن يسمي نفسه "متصوفًا"[(2)].

---

(1) نفس المكان

(2) د. عبد الحليم محمود: أبحاث في التصوُف ص ٢٥١ (مع تحقيق المنقذ من الضلال للغزالي) دار الكتب الحديثة بالقاهرة – بدون تاريخ.

وهم يسمون أهل الكمال منهم "**بالصوفي"،** كما أنهم يسمون المتعلقين بهم وبطلابهم "**بالمتصوف**". ذلك أن التصوُّف تفعل وتكلف، والصفاء هو الفرع الأصلي، والفرق بينهما غير خافٍ في اللغة والمعنى:

"فالصفاء ولاية لها آية، والتصوف حكاية للصفاء بلا شكاية".

والصفاء معنى متلألئ، وظاهر التصوُّف حكاية عن ذلك المعنى. وهنا ثلاثة أقسام كما يرى الهجويري:

الصوفي: "هو الفاني عن نفسه، والباقي بالحق؛ فقد تحرر من قبضة الطبائع، واتصل بحقيقة الحقائق".

ومعنى هذا، أن الصوفي الحقيقي، هو من تخلى عن صفاته البشرية، وتجرَّد من علائقة الدنيوية، فلمنا فني عن ذلك، تهيأ له الاتصال بالحقيقة الإلهية، ووجد البقاء بالله تعالى.

المتصوف: "هو من يطلب هذه الدرجة بالمجاهدة، ويقوم نفسه في الطلب على معاملاتهم".

المستصوف: "هو من تشبه بهم من أجل المنال والجاه وحظ الدنيا، وهو غافل عن هذين، وعن كل معنى، إلى حد

أن قيل: المستصوف عند الصوفية كالذباب، وعند غيره كالذئاب"[(1)].

ولعل هذا النوع الثالث، هو الذي يتسع ليشمل أهل الادعاء من الصوفية قديما وحديثًا، وفي كل عصر.

فالصوفي هو صاحب الوصول، والمتصوف هو صاحب الأصول، والمستصوف هو صاحب الفضول؛ ويترتب على ذلك ما يلي:

أن من كان نصيبه الوصل:"**يكون بإدراكه المقصود، وبلوغه المراد، بلا مراد من المراد، وبلا مقصود من المقصود".**

وأن من كان نصيبه الأصل: "**صار على أحوال الطريق متمكنًا، وفي لطائفها ساكنًا ومستحكما".**

أما من كان نصيبه الفضول فقد: "**تخاف عن الكل، وقعد على عتبة الرسم، وحُجِبَ بالرسم عن المعنى، وعجز بالحجاب عن وصل الواصل"[(2)].**

---

(1) نفس المصدر ص ٢٣١

(2) نفس المكان

والجديد هنا هو ما تفرَّد به صاحب كشف المحجوب، من التفريق بين الصوفي والمستصوف؛ مما يشير إلى أن التصوُّف درجات. وهي فروق دقيقة قلما تنبه لها الدارسون. ولعل الصوفية الذين عرفوا الصوفي أو التصوُّف، إنما قصدوا أرقى مستوى لكل منهما، كما يفْهم ذلك من أقوالهم.

قال ذو النون المصري (المتوفى عام ٢٤٥ هـ) عن الصوفي إنه:

"هو الذي لا يتعبه طاب، ولا يزعجه ساب".

وقال أيضا عن الصوفية:

"هم قوم آثروا الله تعالى على كل شيء، فآثرهم الله على كل شيء"[1].

ويقول ذو النون أيضا:

"الصوفي إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق، وإن سكت نطقت منه الجوارح بقطع العلائق"[2].

---

(1) اللمع للطوسي ص ٤٦

(2) كشف المحجوب ص ٢٣٢

أي أن قوله كله يكون على أصل صحيح، وفعله كله يكون تجريدا صرفًا؛ فحين يتكلم يكون قوله كله حقًا، وحين يصمت يكون فعله كله فقرا، أي فقرا إلى الله تعالى؛ ومن هنا يعلَم أن الذين لم ينطقوا بالحق، أو نطقوا بعبارات موهمة، ليسوا بصوفية حقًا؛ لأنهم ألغوا عقولهم. يقول عبد الواحد بن زيد عن إعمال عقولهم:

"القائمون بعقولهم على هومهم، والعاكفون عليها بقلوبهم، المعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم: هم الصوفية"[١].

وفضل آخر صحبة الصوفية؛ لعدم طمعهم كثيرا فيما يطمع فيه غيرهم، فقال:

"أصحب الصوفية، فإن للقبيح عندهم وجوها من المعاذير، وليس للكثير عندهم موقع فيرفعونك به، فتعجب بنفسك [2]".

---

(1) اللمع ص ٤٥

(2) نفس المصدر ص ٤٦

ومعناه أنهم لا يتعجلون ذم الناس، بل يلتمسون المعاذير لمن أساء إليهم.. وهم القوم لا يشقى جليسهم بحال، سواء كان موسرا أم معسرا.

وقال آخر موضحا أن الصوفي يختار معالي الأمور التي ترضي الله عزَ وجل:

"من إذا استقبله حالان أو خلقان حسنان، فيكون مع الأحسن والأعلى"[1].

وبذلك كان حقًا، أن ثمرة التصوُف لها انعكاسها على صاحبها في الأخلاق.

وفسر أبو الحسن القناد معنى الصوفي بالوفاء لله تعالى، فقال إنه:

"مأخوذ من الصفاء، وهو القيام لله عزَ وجل في كل وقت بشرط الوفاء"[2].

---

(1) نفس المكان

(2) نفس المكان

فالصوفي بناء على هذا من أصفى الناس وأوفاهم لله عزَّ وجل، ولا يهمه أن يكون فقيرا مجرَّدا من أسباب الدنيا وعلائقها المادية؛ لأنه غني بمعرفته بالله تعالى.

وكان أهل الشام يسمون الصوفية "الفقراء"؛ لأن الله تعالى سماهم فقراء، فقال:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَموَالِهِم يَبتَغُونَ فَضلاً منَ اللهِ وَرِضوَانًا وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصادِقُونَ﴾

(الحشر – ٨)

وإذا كانت الآية خاصة بفقراء المهاجرين الأولين، فإن فضائلها تشمل من بعدهم كذلك.

وقوله تعالى:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَستَطِيعُونَ ضَربا فِي الأَرضِ يَحسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التعَففِ تَعرِفُهُم بِسِيمَاهُم لاَ يَسأَلُونَ الناسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِن خَيرٍ فَإِن اللهَ بِهِ عَلِيم﴾

(البقرة – ٢٧٣)

وقد أكد الطوسي – صاحب اللمع – على أن الصوفي لا يكون كذلك حقًا بدون مقارنة أحكام الشريعة علما وعملاً فيقول في تعريف الصوفية:

"هم العلماء بالله تعالى، وبأحكام الله، العاملون بما علمهم الله تعالى، المتحققون بما استعملهم الله عز وجل، الواجدون بما تحققوا، الفانون بما وجدوا؛ لأن كل واحد قد فني بما وجد[(1)]".

فلا ينزل الصوفي منازل الحقيقة، ولن يتحقق بالعبودية، إلا إذا صفا من كدر البشرية، وأخذ بشريعة الله تعالى علما وعملاً.

ومن صفات الصوفي أيضا أنه هو:

"الذي لا تقله الأرض، ولا تظله السماء[(2)]".

ومعناه أنه وإن كان على الأرض وتحت السماء، فالله عزَّ وجل هو الذي يقله بالأرض ويظله بالسماء، لا السماء ولا الأرض. وقد روي عن أبي الصديق رضي الله عنه، أنه كان يقول:

---

(1) اللمع، ص ٤٧

(2) نفس المصدر، ص ٤٨

"أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني، إذا قلت في كتاب الله عز وجل برأيي[1]".

ويقول أبو الحسن النوري موضحا سمة خاصة من سمات الصوفي:

"التصوف ترك كل حظ النفس[2]"

وهذا إنما يكون على نوعين: أحدهما رسم، والآخر حقيقة؛ بمعنى أنه إذا كان تاركًا للحظ، فإن تركه الحظ يكون حظًا أيضا، وهذا هو الرسم، أما إذا كان الحظ تاركًا له، فهذا هو "فناء الحظ" وهذا يتعلق بحقيقة المشاهدة؛ إذن فترك الحظ فعل للعبد، وفناء الحظ فعل لله جل جلاله، وفعل العبد رسم ومجاز، وفعل الحق حقيقة؛ وبناء على هذا يقول النوري عن الصوفية:

"هم الذين صفت أرواحهم، فصاروا في الصف الأول بين يدي الحق[3]".

---

(1) نفس المكان

(2) كشف المحجوب، ص ٢٣٢

(3) نفس المكان

ويفْهم من هذا أن الصوفي، هو الذي تحرَرت روحه من كدورة البشرية، وصفت من الآفات النفسية، وخلصت من الهوى، حتى استقر في الصف الأول والدرجة الأعلى مع الحق.

ومن المؤكد أن محافظة فريق من المسلمين هكذا على أصول الإسلام، ودقائق سننه، يسيء إلى أعداء الإسلام، الذين تمنوا بعد وفاة الرسولﷺ، أن يرتد المسلمون، وأن يرجعوا بعده كفارا يضرب بعضهم وجوه بعض، ولكن الله متمُ نوره[1].

وما رأيناه لدى النوري هو نفس ما ذهب إليه الجنيد حين قال:

"التصوُف نعت أقيم العبد فيه. قيل: نعت للعبد؟ أم نعت للحق؟ فقال: نعت الحق حقيقة، ونعت العبد رسم [2]".

---

[1] Dr. lqbal: The Way of The Muslim (Great Britain) , 1979 P. 32

[2] نفس المكان

ومعنى هذا، أن حقيقة التصوف تقتضي فناء صفة العبد، وفناء صفة العبد يكون ببقاء صفة الحق، وهذا نعت للحق، ورسمه يقتضي دوام مجاهدة العبد، والمجاهدة صفة العبد.

والخلاصة كما يفْهم من هذا، أنه لا يصح للعبد أي نعت في حقيقة التوحيد؛ لأن نعوت الخلق غير دائمة لهم، وليس نعت العبد سوى الرسم؛ لأن نعته غير باقٍ، وهو ملك وفعل الحق، فهو في الحقيقة للحق.

وتوضيح ذلك: أن الله تعالى أمر العبد بالصيام مثلاً، وسمي العبد صائما بصيامه، وهذا الصوم يكون للعبد من وجه الرسم، ولله من وجه الحقيقة، كما قال الله تعالي في الحديث القدسي:

"الصوم لي، وأنا أجزي به".

(حديث قدسي رواه الشيخان والترمذي، ومالك (الموطأ) عن أبي هريرة)

ومن هنا ذهب الجنيد مرة ثانية إلى أن:

"الصوفي هو الذي لا يَملِكُ ولا يُملَكُ [1]".

---

[1] المصدر نفسه ص ٢٣٣

وهذا هو الذي يسمونه "عين الفناء"؛ لأن فاني الصفة لا يكون مالكًا ولا مملوكًا، والمراد هنا شدة درجة العبودية لله تعالى.

ولهذا صرَح بعض علماء النفس في الغرب، بأن الفناء تجربة دينية، وأنه الحياة الوحيدة الحقيقية[1].

وعلى هذا يرى الجنيد، أن الصوفي الحق، هو من يتحلى بثماني خصال، هي التي يبني عليها التصوُف وهي:

"السخاء، والرضا، والصبر، والإشارة، والغربة، ولبس الصوف، والسياحة، والفقر".

وهذه الخصال يقتدي فيها بثمانية أنبياء، عليهم الصلاة والسلام:

- في السخاء: بإبراهيم؛ لأنه بلغ به أن ضحى بولده.
- في الرضاء: بإسماعيل؛ لأنه رضي بأمر الله، فقال بترك روحه العزيزة.
- في الصبر: بأيوب؛ لأنه صبر في بلائه بالدود.

---

(1) James W: Varieties of Religious experience, London 1902, P. 384

- في الإشارة: بزكريا؛ لأن الله تعالى قال:

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيا﴾

(مريم – ٣)

- **في الغربة:** بيحيى؛ لأنه كان غريبا في وطنه، وغريبا عن أهله بين أهله.

- **في السياحة:** بعيسى؛ لأنه كان في سياحته من التجرُّد بحيث لم يملك إلا وعاء ومشطًا، وحين رأى شخصا يشرب بحفنتيه ألقى الوعاء، وعندما رآه يخال شعره بأصابعه رمى المشط.

- **في لبس الصوف:** بموسى؛ لأن ملابسه كلها كانت صوفًا.

- **في الفقر:** بمحمد ﷺ؛ لأن الله عزَّ وجل بعث إليه بمفاتيح كنوز الأرض، وقال له ما معناه: لا تُشق على نفسك، وهيئ لنفسك من هذه الكنوز متاعا

وأسبابا، فقال: لا أريد، يا إلهي: أشبعني يوما وأجعني يومين[1].

وهذا معنى ما رويَ عن النبي ﷺ أنه قال:

"عُرِضَ علي الدنيا فأبيتها"

(رواه أحمد والطبراني عن أبي بويهية)

وقوله أيضا:

"خُيرت بين أن أكون نبيا ملكًا، أو أكون نبيا عبدا فأشار إليَ جبريل عليه السلام أن تواضع؛ فقلت: بل أكون نبيا عبدا: أشبع يوما، وأجوع يوما".

(رواه الطبراني عن ابن عباس، وابن حبان عن أبي هريرة)

وهذه أصول طيبة من المعاملة، التفت إليها الصوفية كثيرا.

الصفات التي تفرد بها الصوفي من جملة العلماء:

---

[1] كشف المحجوب ٢٣٥

قد اتفقت طبقات، مع الفقهاء وأصحاب الحديث، في معتقداتهم، وقبلوا علومهم، دون أن يخالفوهم في معانيهم ورسومهم؛ وذلك بشرط أن يكون الأمر مجانبا للبدع واتباع الهوى، ومنوطًا بالأسوة والاقتداء.

وإذا لم يبلغ الصوفي مرتبة الفقهاء وأصحاب الحديث في الدراية والفهم، ولم يحط علما بما أحاطوا به، فقد وجب عليه أن يرجع إليهم في الوقت الذي يشْكَلُ عليه حكم شرعي، أو حد من حدود الدين.

فإذا اتفقوا كان بها، وإلا فإن الصوفية يستحبون هنا الأخذ بالأحسن والأولى والأتم؛ احتياطًا للدين، وتعظيما لما أمر الله به عباده، واجتنابا لما نهاهم الله عنه.

فليس من مذهب الصوفي الحق، النزول على الرخص، وطلب التأويلات، والميل إلى الترفه وركوب الشبهات؛ لأن ذلك تهاون بالدين، وتخلف عن الاحتياط [1].

هذا فيما يتعلق بالعلوم الظاهرة، المبذولة المتداولة بين طبقات الفقهاء وأصحاب الحديث، أما بعد ذلك فإن الصوفي

---

[1] اللمع ص ٢٨

يحاول الارتقاء إلى درجات عالية، ويتعلق بأحوال شريفة ومنازل رفيعة من أنواع العبادات وحقائق الطاعات والأخلاق الجميلة.

فبعد أن يؤدي الصوفي الفرائض، ويجتنب المحارم، يحاول ترك ما لا يعنيه، وقطع كل علاقة تحول بينه وبين مطلوبة ومقصوده؛ إذ ليس له مطلوب ولا مقصود غير الله تبارك وتعالى؛ ويترتب على ذلك أن يكون للصوفي آداب وأحوال شتى من أهمها ما يلي:

القناعة أي:

"بقليل الدنيا عن كثيرها، والاكتفاء بالقوت الذي لا بد منه، والاختصار على ما لا بد منه من مُهند الدنيا: من الملبوسات والمفروش والمأكول وغير ذلك، واختيار الفقر على الغنى اختيارا، ومعانقة القِلة، ومجانبة الكثرة، وإيثار الجوع على الشبع، والقليل على الكثير [(1)]".

ومن هذه الآداب: التواضع ومعناه:

[(1)] المصدر نفسه ص ٢٩

"ترك العلو والترفع، وبذل الجاه، والشفقة على الخلق، والتواضع للصغير والكبير، والإيثار في وقت الحاجة إليه، وألا يبالي من أكل الدنيا [1]".

ومن تلك الآداب أيضا:

"حسن الظن بالله، والإخلاص في المسابقة إلى الطاعات، والمسارعة إلى جميع الخيرات، والتوجه إلى الله تعالى، والانقطاع إليه، والعكوف على بلائه، والرضا عن قضائه، والصبر على دوام المجاهدة، ومخالفة الهوى، ومجانبة حظوظ النفس، والمخالفة لها؛ إذ وصفها الله تعالى بأنها أمارة بالسوء، والنظر إليها بأنها أعدى عدوك التي بين جنبيك، كما رُويَ عن رسول الله [2]".

ومن الآداب والشمائل التي يتفرَّد بها الصوفي كذلك طهارة القلب، وهي كما شرحها الطوسي أيضا:

"مراعاة الأسرار، ومراقبة الملك الجار، ومداومة المحافظة على القلوب بنفي الخواطر المذمومة، ومساكن

---

[1] نفس المكان

[2] نفس المكان

الأفكار الشاغلة التي لا يعلمها غير الله عز وجل حتى يعبدوا الله تعالى بقلوب حاضرة، وهموم جامعة، ونيات صادقة، وقصود خالصة؛ لأن الله عز وجل لا يقبل من عباده من أعمالهم إلا ما كان لوجهه خالصا. قال الله عز وجل:

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [1]

(سورة الزمر – ٣)

ومن الآداب أيضا:

"الاعتراض لسلوك سبل أوليائه، والنزول في منازل أصفيائه، ومباشرة حقيقة الحقائق، ببذل الروح وتلف النفس، واختيار الموت على الحياة، وإيثار الذل على العز، واستحباب الشدة على الرخاء؛ طمعا في الوصول إلى المراد، وألا يريد إلا ما يريد [2]".

لقد حرصنا على نقل نماذج من كلام الصوفية أنفسهم؛ حتى يكون الدليل من كلامهم، ونلاحظ أن هذا الآداب طيبة ومقبولة في عمومها.

---

[1] اللمع ص ٣٠

[2] نفس المكان

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن الصوفية، يرون لهم تخصيصا من طبقات أهل العلم، أي شيئًا تفرَدوا به، وذلك باستعمال آيات متلوة من كتاب الله تعالى، وأخبار مروية عن رسول الله ﷺ، مع التأكد من عدم النسخ، أو رفع الحكم بخبر أو أثر.

وهم يرون كذلك، أن من أعظم النعم التي أُخْتُصوا بها، "دوام المراقبة" وهي التحقق بمقام "الإحسان".

كما أنهم يتفرَدون بمعرفة دقائق الحرص والأمل، ومعرفة النفس وأماراتها وخواطرها، ودقائق الرياء والشهوة الخفية، وكيفية الخلاص من ذلك.

أضف إلى هذا معرفتهم كيفية الإنابة إلى الله عزَ وجل، وصدق الالتجاء، ودوام الافتقار والتسليم والتفويض، وكذلك التبري من الحول والقوة.

كذلك فإن للصوفية مستنبطات في علوم مشْكِلَة على فهوم الفقهاء والعلماء، وذلك في لطائف مودعة في إشارات لهم تخفى في العبارة من دقتها ولطافتها، وذلك في معنى جنايا السر، ومقامات الإخلاص، وحقائق العبودية وترك الاعتراض، وما إلى ذلك. وكما يقول الطوسي:

"فالصوفية مخصوصون من أولى العلم القائمين بالقسط، بحل هذه العقد، والوقوف على المُشْكِل من ذلك، والممارسة لها بالمنازلة والمباشرة، والهجوم عليه ببذل المُهَج، حتى يخبروا عن طعمها ودوامها ونقصانها وزيادتها، ويطالبوا من يدَعى حالاً منها بدلائلها، ويتكلموا في صحيحها وسقيمها، وهذا أكثر من أن يتهيأ لأحد أن يذكر قليله؛ إذ لا سبيل إلى كثيره [(1)]".

ويذهب الطوسي، إلى أن جميع ذلك موجود علمه في كتاب الله عزَّ وجل، وكذلك في أخبار الرسولﷺ، وأنه مفهوم عند أهله، ولا ينكره العلماء الراسخون، فليس بغريب ما ذهب إليه باحث غير مسلم، حيث يرى أن مبادئ الإسلام فيها ميزة إقناع عقل المسلم؛ ومن ثم فإنها تؤدي دورها العظيم في تثبيت عقيدته[(2)].

والذين أنكروا هذا على التصوُّف إنما هم جماعة من المترسمين بعلم الظاهر؛ لأنهم أصحاب معرفة محدودة

---

(1) اللمع ص ٣٢

(2) Richard Bell b The Origin of islam in ts christiian Environment London 1968, p. 207

بالنسبة للكتاب والسنة أي أنهم لا يعرفون منهما إلا الأحكام الظاهرة، وما يصل للاحتجاج على المخالفين، وكثير من الناس يميلون إلى هذا؛ لأنه يوصل إلى الدنيا بما فيها من جاه ورئاسة.

أما القِلة فإنهم هم الذين يشتغلون بذلك؛ لأن هذا علم الخصوص، أي أنه:

"ممزوج بالمرارة والغُصص، وسماعه يُضعِفُ الركبتين، ويُحزِنُ القلب، ويُدمِعُ العين، ويُصَغرُ العظيم، ويُعَظمُ الصغير، فكيف استعماله ومباشرته، وذوقه ومنازلته، وليس للنفس في منازلته حظ؛ لأنه منوط بأمانة النفوس، وفقد الحسوس، ومجانبة المراد".

وقد ترتب على ذلك نتيجة تخصُ العلماء، وهي:

"من أجل ذلك ترك العلماء هذا العلم، واشتغلوا باستعمال علم يخف عليهم المؤن، ويحثهم على التوسع والترخص والتأويلات، وقد يكون أقرب حظوظ البشرية، وأخف تحملاً

على النفوس التي جُبِلَت على متابعة الحظوظ، والمنافرة عن الحقوق"[1].

هذه أهم الصفات التي تفرّد بها أهل الطريق، السالكون إلى ربهم عزّ وجل. ولو أردنا إيجاز ما تقدّم من هذه الصفات ما وجدنا خيرا من كلام الطوسي الذي يمتدح فيه أهل الحق من الصوفية، والذي يقول فيه:

"هذه العصابة، أعني الصوفية، هم أمناء الله جل وعز، في أرضه، وخزنة أسراره وعلمه، وصفوته من خلقه؛ فهم عباده المخلصون، وأولياؤه المتقون، وأحباؤه الصادقون الصالحون. منهم الأخيار والسابقون، والأبرار والمقربون، والبدلاء والصديقون، هم الذين أحيا الله بمعرفته قلوبهم، وزين بخدمته جوارحهم، وألهج بذكره ألسنتهم، وطهر بمراقبته أسرارهم، سبق لهم منه الحسنى بحسن الرعاية ودوام العناية؛ فتوجهم بتاج الولاية، وألبسهم حلل الهداية، وأقبل بقلوبهم عليه تعطفًا، وجمعهم بين يديه تلطفًا؛ فاستغنوا به عما سواه، وآثروه على ما دونه، وانقطعوا

---

[1] اللمع ص ٣٣

إليه، وتوكلوا عليه، وعكفوا ببابه، ورضوا بقضائه، وصبروا على بلائه، وفارقوا فيه الأوطان، وهجروا له الإخوان، وتركوا من أجله الأنساب، وقطعوا فيه العلائق، وهربوا من الخلائق، مستأنسين به، مستوحشين مما سواه:

﴿ ذَلِكَ فَضلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضل الْعَظِيمِ ﴾ (سورة الجمعة – ٤) "[1]

وهكذا ندرك أن السالكين إلى الله تعالى بحق، قد أدركوا حقيقة الإيمان، الذي يقتضي المتابعة والتسليم، أما المخالفة فلا تكون إلا من ضعيف الإيمان؛ ولهذا تواصوا بما يلي:

"احذر أن يراك الله حيث نهاك، وتباعد عن المعاصي؛ فإنها بريد الكفر"[2].

---

(1) اللمع ص ١٨

(2) السبكي (محمود محمد خطاب المتوفى عام ١٣٥٢ هـ): إتحاف الكائنات ص ٢٤٥، وانظر ص ٢٤٦ . ط٢ ، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م القاهرة.

ولذا عاهد الصحابة رسول الله ﷺ، على ترك المعاصي؛ فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عبادة بن الصامت ؓ أن النبي ﷺ قال:

"بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، وإن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله عز وجل فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه. فبايعناه على ذلك".

٥- أسباب نشأة التصوُّف

أولاً: الاقتداء بالرسولﷺ:

حرص المسلمون بعد عهد النبي ﷺ، على الاقتداء به. لاسيما بعد أن وجدوا مدنية جديدة فتحت عن البلاد المفتوحة ولم يقبل المحافظون على الدين وأخلاقه أن يسايروا أي عادات لا صلة بينها وبين الإسلام.

ولهذا جعلوا مثلهم الأعلى في تتبع خطى الرسول ﷺ، في كل شيء: في أخلاقه وصفاته وأعماله ولا شك أن خلقه كان القرآن في اتباع سنة السلف الصالح من التابعين وتابعيهم.

وهنا نبعت نزعة روحية بعد عصر النبي ﷺ وعصر الصحابة، يمثلها الحسن البصري رحمه الله تعالى[1]، ثم خرجت إلى العالم في شخصيات أهل التصوُّف.

---

[1] انظر هذه النقطة بشيء من التوضيح، د. محمد الجليند: من قضايا التصوُّف في ضوء الكتاب والسنة ص ٢٢ ، طبع ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م مطبعة التقدم بالقاهرة.

وقد عكف الصوفية على سيرة الرسول ﷺ وسيرة السلف الصالح، يحيون ما غاب، ويعيدون درسها، ويدرسون دقائقها وجزئياتها. دون أن يدعوا شاردة أو واردة منها، إلا وقد أظهروها واقتدوا بها.

وقد درس الصوفية علاقة النبي ﷺ، بالناس عامة وبأزواجه وأهله خاصة[1]. إن كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، لهو مثال، على معرفة المسلمين بدقائق السيرة المطهرة، هذا وإن الصوفية الحق يعيشون طبقًا لما جاء به محمد ﷺ[2].

ثانيا: رد الفعل ضد المجون:

عندما وجِدَ فريق ماجن يعمد إلى الشراب واللهو، كان المؤمنون الصادقون يعمدون إلى صلة الرسول ﷺ وأصحابه، فيبعثونها في الناس ولاسيما أيام العصر العباسي الذي برزت فيه ظاهرة الترف.

---

(1) انظر كتابي : الأخلاق في الإسلام، ط٢، نشر مكتبة دار العلوم

(2) Dr. Muhammad iqbal: The Way of The Moslim (Printed in Great Britain By Martin's of Berwick) 1979 , P. 49

وكانت العاطفة الدينية تزداد في بعض النفوس، كلما ازداد عبث الماجنين والمتحللين، وقد حدث أن بعض الماجنين ختموا حياتهم في كثير من الأحيان بالرجوع إلى تعاليم الإسلام، حتى كان الساقي يعدو خطيبا، والفاسق واعظًا، والغنى ذاكرا لنعم خالقه جل وعزَ.

ثالثًا: العلوم والفرق:

حدثت في الإسلام علوم وفرق بعد عهد النبي ﷺ، وعصر الصحابة، كان معظمها متفقًا في الأصول، مع الاختلاف في الفروع.

وذلك مثل الخوارج والشيعة والمرجئة والمعتزلة وأهل السنة والجماعة، وقد انتشرت هذه الفرق وما تفرَع عنها من فروع في أماكن كثيرة.

وفي ذلك الوقت ذاعت العلوم الفلسفية في كل مكان، وأكب الناس على المسائل العقلية، آملين بواسطتها أن يحلوا ألغاز الكون وأسراره.

وقد تخوَف المتمسكون بالدين، من هذه الظاهرة؛ حرصا على سلامة الدين، لاسيما أنهم رأوا أهل السنة خاضوا مع

الخائضين في هذه الأبحاث العقلية، كي يثبتوا قضايا الدين بالعقل والمنطق، بعيدا عن العاطفة الدينية.

وهنا نبع أهل التصوُّف، الذين ألفوا اتجاها مستقلاً يراعي هذه العاطفة، بعيدا عن العلوم الدخيلة والتأويلات الهدَامة.

ومع أن الصوفية أنفسهم كوَنوا فرقة واحدة، فإنهم كذلك كانوا جماعات متباينة مختلفة الأهواء، كما نلحظه في الطرق الصوفية اليوم.

فبعض هذه الفرق الصوفية كان مؤمنًا أشد الإيمان، وبعضها وقع في الزندقة والرياء والمداهنة، كما اتخذ بعضها التصوُّف وسيلة إلى التشيع، ومن الشيعة فريق يئس من الوصول إلى الهدف؛ فآثر الزهد والتصوف، ومنهم من استخدم الكيد سلاحا، فثابر على أهدافه وأنشأ الجمعيات السرية العديدة، التي ترمي إلى أهداف باطنية هدَامة.

وقد أثرت الشيعة في نشأة في التصوُّف؛ فقد آمن بعض الصوفية بالقطب الذي يعرف سر الأسرار، مثلما آمن الإسماعيلية – وهم فرع من الشيعة – بأن الإمام له صفات الإله، وأن هذا الإمام حل في كل شيء في العالم مادة

وروحا[1]. وهو مرفوض حسب تعاليم الإسلام، التي تنهى عن الغلو بكل ألوانه في المبادئ والأشخاص.

رابعا: الرهبانية المسيحية:

من المعلوم أن المسيحية تقدَمت الإسلام بعدة قرون، وقام أهل المسيحية في سوريا بالجدل اللاهوتي والحوار الفلسفي، وذلك بين أصحاب الطبيعة الواحدة وأصحاب الطبيعتين[2]. وانقسم المسيحيون إلى فرق، مثلما انقسم المسلمون فيما بعد، ودخل المسيحية مزيج من مذاهب اليونانيين والإسكندريين الذين مالوا إلى الجدل أكثر من العمل.

---

(1) Ivanow : On The Recognition of the imam. India , 1947 p. 24

وقارن عارف تامر: القرامطة، ص ١٩٠ – ١٩١ ، دار مكتبة الحياة – بيروت – "بدون تاريخ" (حيث يشير إلى أن الإمام هو المعلم، وهو مصدر الحقيقة)

(2) جبور عبد النور: التصوُّف عند العرب، من ص ٣٢ إلى ص٣٤ وقارن العقاد: الفلسفة القرآنية ص ١٧٣ – ١٧٤

وقد تحوَل كثير من رجال الدين الورعين، الذين يدركون أن أمثال هذه المحاورات، لا تروي غليلاً، ولا تنبت يقينًا، تحوَلوا إلى حياة الزهد والتقشف.

ومن هنا قامت "الأديان" في القرن الخامس المسيحي في مصر، ومنها انتشرت تلك النزعة الرهبانية انتشارا كبيرا في الأقطار العربية مثل: سوريا والعراق وحدود فارس.

ويروَى أن "يوحنا الأفامي" في القرن السادس الميلادي، ثَقِفَ العلوم، ووقف على أمور الدين، وأخذ السيرة الرهبانية في أحد الأديار العديدة التي قامت قرب نهر العاصي، فعاش ورعا متقشفًا وألف ثلاثة كتب في التدبير الروحي وأميال النفس والكمال..

وفي فارس وجِدت أديار كثيرة وشهيرة، مثل دير "ماروتا"، فكان ينزله المسافرون، ويقصده المرضى للتداوي، ويعيش فيه الرهبان متزهدين قانعين بالقليل.

وكان بالقرب من هذا الدين "دير مار صموئيل" وفيه أربعون راهبا، و "دير نارداس" وفيه سبعون راهبا.

ولم ينقطع هؤلاء الرهبان عن العالم تمام الانقطاع؛ فقد كانوا يساهمون في إنشاء المدارس، وإذاعة العلوم بين الناس،

ولم يمنعهم كل هذا من حياة الزهد والتقشف، فكانوا يصومون، ويقسمون يومهم أربعة أقسام يختمون كل قسم منها بالصلاة، وينهضون عند منتصف الليل وعند الفجر للصلاة.

كل ذلك في إيمان صادق بالله تعالى، حيث يضرعون إليه سبحانه وعيونهم مغرورقة بالدموع، وكانت الأخشاب التي يصلون عليها محفورة؛ لكثرة سجودهم وتضرعهم.

ومنهم من يضيق به الدير؛ فيغادره إلى الصحراء تائها، لا يحمل شيئًا من متاع الدنيا، يقتات من الأعشاب التي يصادفها في طريقه، أو ينتظر مرور غريب يشفق عليه، ويتوكل على الله في جميع أموره، لكن مفهوم التوكل في الإسلام يعني الأخذ بالأسباب وعماره الحياة، وليس بهذه الصورة التي لا تعني سوى الهروب من تحمل المسئولية.

هذا ونود أن ننبه إلى أنه إذا كان هذا حال الرهبان، فليس ضروريا أن يكون متصوفة الإسلام قد اقتدوا بهم، اللهم إلا فيما تشابهت فيه تعاليم الديانتين، وهما من عند الله عزَّ وجل.

ولما جاء الإسلام كانت الأديار قائمة، والرهبان يضرعون إلى ربهم، ويبيعون دنياهم بآخرتهم.

ومع هذا فنحن نرفض القول، بأن الرهبانية المسيحية كانت من عوامل نشأة كل ألوان التصوُّف لدى المسلمين، والذين قالوا بذلك كان لهم موقف مسبق من التصوُّف[1]، وسوف نرى من خلال الدراسة أن كل ما ظنه الناس خارجا أو زائدا على تعاليم الإسلام لدى بعض الصوفية، إنما هو موجود بالفعل في الإسلام، وأن كان الناس يجهلونه، مثل صلاة الليل، ومحاربة الأدواء النفسية الدقيقة.

ومع هذا فإذا وجِدَ تشابه ما في موقف معين بين الرهبانية والتصوُّف الإسلامي، فلا بأس من التقاء طرفين على فضيلة ما، ويكون هذا أدل دليل على صدقها، وذلك مثل كثرة التضرُّع إلى الله تعالى والبكاء من خشيته، وعدم الانغماس في المادة بما يفقد الإنسان آدميته ويشوه روحه، ويجعله يسعى إلى الكسب الحلال والحرام معا على حد سواء.

---

[1] د. أبو الوفا التفتازاني: مدخل إلى التصوُّف الإسلامي (ج) من المقدمة.

وإذا فرضنا أن وجد بعض المتصوفة، يفعلون ما يفعله الرهبان، ويقتدون بهم أكثر مما يقتدون بالكتاب والسنة، فهم أقرب إلى الرهبانية لا إلى الإسلام، الذي رفض الرهبانية بالمعنى الحرفي لها؛ كي يربط بين المسلم وبين عمارة الحياة.

فليس في الإسلام ما يدَّعى بعضهم أنه منسوب إلى المسيح عليه السلام:

"دع مال لقيصر لقيصر، ومال لله لله". ولكن فيه الطاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ في التشريع، كقوله ﷺ:

"من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني".

(رواه مسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الإمام)

كذلك فإن الإسلام يسمح بالتصوُّف في حدود تعاليم الإسلام نفسه، أي التصوُّف المقيد بالكتاب والسنة علما وعملاً، والذي لا يدعو إلى هجر الدنيا، والقعود عن السعي والجهاد؛ وبذلك يكون التصوُّف الإسلامي قرين الحضارة

والرقي النفسي، ولا يمت بصلة ما إلى ما ادعى له اسم التصوُّف في المسيحية "ميستيسيزم" أي الحبُ[1].

أما التصوُّف عند غير المسلمين، فإنه لا مستند له من أي دين سماوي، ومن هنا ضل أصحابه ضلالاً بعيدا، حين فهموه على أنه انقطاع عن الدنيا وعما أحله الله تعالى فيها من الطيبات؛ فآثروا حياة التسول والتشرذم والتخبط في ضلال وحدة الوجود والفناء التام والضياع؛ ومن هنا حق لبعض الباحثين، حين نظر إلى أهل هذا اللون من التصوُّف، أن يقرر أن التصوُّف إنما هو قرين التخلف الحضاري[2].

---

(1) د. عبد الحليم محمود: أبحاث في التصوُّف ص ٢٥٦ (مع المنقذ من الضلال).

(2) Heiler, F: Prayer, History and Psychology, London, 1958 P. 137

٦- الطرق الصوفية

ظهور الطرق الصوفية:

كان الصوفية يعيشون أول الأمر أفرادا، لا تجمع بينهم وحدة المذهب، ولا تربط بينهم رابطة المبدأ[1].

وكان الصوفي على انفراد، ينصرف إلى نوع خاص من الحياة، ويؤلف لنفسه نظاما ما يتبعه ويسير عليه من طعام وشراب وصلاة وسهر وصيام وزهد.

فالتصوُّف في عهده الزهدي، لم يتحوَّل بعد إلى نظام، أو إلى مذهب منظم. حتى جمعت بين الصوفية جامعة العاطفة والغاية؛ فتألفوا ونظموا حياتهم تنظيما دقيقًا، له قوانينه ومناهجه.

ولم تظهر الجماعات الصوفية، إلا في القرن الثالث الهجري، وذلك بعد أن ذاع أمرهم وكثر طالبوها، وانتشروا

---

[1] جبور عبد النور: التصوُّف عند العرب ص ٧٣ - ٧٤

في البلاد الإسلامية، وقد كان القرن السابع الهجري يمثل أوج ازدهار الطرق الصوفية[1].

وظهرت أول جماعة منظمة تُسمى "الجماعة البصرية" ثم "الجماعة الكوفية"، وكلتاهما نشأت على حدود فارس، واتفقتا في الغايات، واختلفتا في الجزئيات مثل: الذكر والسماع والشطح.

وقد مهدت هاتان المدرستان، الطريق لرسوخ أقدام الشيوخ في المدن التابعة للدولة الإسلامية؛ فإذا في كل مدينة زعيم كبير، تروى عنه الكرامات والأحاديث اللادنية، ويصرف هو وقته في التعبد والتزهد وتدريب المريدين.

وقد ساعد تنقل الصوفية بين مختلف البلاد، وكذا رحيل المريدين إليهم، على إيجاد رابطة قوية بين مختلف الطرق الصوفية، ولاسيما في إحداث لغة خاصة بهم، يتفاهمون بواسطتها، ويعبرون بها عن أحوالهم النفسية وأهدافهم الروحية.

---

(1) د. عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر، نشأتها ونظمها ص٢٥٩، طبع ١٩٧٨ م، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة.

ومن المعلوم أن الإمام الغزالي، يرى أن طريق الصوفية لا يخرج عن تقديم المجاهدة، ومحو الصفات الذميمة، وقطع العلائق كلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، كما يتضح من كتابه "المنقذ من الضلال"، ومن كتابه "إحياء علوم الدين".

ويرى كذلك أنه مهما حصل من ذلك، فإن الله هو المتولي لقلب العبد، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم، ويتبع هذا علاقة المريد بالشيخ، والعزلة بالخلوة، وكذا الجوع والسهر والصمت والذكر وغير ذلك.

وكان لتصوُّر الغزالي للطريق على هذا النحو، أثر كبير فيمن جاء بعده، من شيوخ الطريق الذين أعجبوا به وبربطه التصوُّف بعقيدة أهل السنة، ودخل التصوُّف السني في ذلك الوقت مرحلة عملية استمرت حتى العصر الحاضر، وكان الطريق الصوفي يفهم عند المتقدمين على أنه:"**الطريقة عند أهل الحقيقة عبارة عن مراسم الله تعالى وأحكامه التكليفية التي لا رخصة فيها، وهي المختصة بالسالكين إلى الله تعالى، مع قطع المنازل والترقي في المقامات**"[1].

---

[1] العطاس (عبد الله بن علوي): ظهور الحقائق في بيان اللطائف ص١٧، مطبعة بكراز حسني عام ١٣١٢هـ.

وإذن فقد استحال التصوُّف إلى فلسفة حياة بالنسبة لقطاع كبير من المجتمع الإسلامي، له نظم وقواعد ورسوم خاصة، بعد أن كان حظ أفراد يظهرون بين الحين والآخر هنا أو هناك، دون ربط، وأصبحت كلمة "طريقة" عند الصوفية المتأخرين تُطْلَقُ على:

"مجموعة أفراد من الصوفية ينتسبون إلى شيخ معين، ويخضعون لنظام دقيق في السلوك الروحي، ويحيون حياة جماعية في الزوايا والربط والخانقاوات، أو يجتمعون اجتماعات دورية في مناسبات معينة، ويعقدون مجالس العلم والذكر بانتظام"[1].

إن الغاية القصوى التي يسعى إليها أصحاب الطرق الصوفية هي الغاية الخلقية، من إنكار الذات، والصدق في القول والعمل، والصبر، والخشوع، ومحبة الغير، والتوكل، وغيرها من الفضائل التي دعا إليها الإسلام.

---

(1) د. أبو الوفا التفتازاني: مدخل إلى التصوُّف الإسلامي، ص ٢٣٥ - ٢٣٦

ومن أسماء الطرق نعرض ما يلي على سبيل التمثيل فقط:

الطريقة القادرية: نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى ببغداد عام ٥٦١هـ.

الطريقة الرفاعية: للشيخ أحمد الرفاعي، المتوفى بالبطائح عام ٥٧٨هـ.

الطريقة الشاذلية: للشيخ أبي الحسن الشاذلي، الذي استوطن الإسكندرية عام ٦٤٢هـ تقريبا، قادما من تونس.

الطريقة الأحمدية: للشيخ أحمد البدوي، الذي جاء من المغرب إلى مصر، وأقام بمدينة طنطا، وتوفي عام ٦٧٥ هـ.

الطريقة البرهامية: للشيخ إبراهيم الدسوقي القرشي، المتوفى عام ٦٧٦هـ، وهو مصري الأصل والمولد ودِفِنَ بدسوق.

ومع أن الفوارق التي تميز كل طريقة عن الأخرى غير واضحة المعالم، فإنهم يرون أن الطرق كلها واحدة، وأن أعظم الفوارق بينها قائم في أشخاص شيوخها.

كما يرى بعضهم أن الفرق في "الخلوة": فالخلوتية يؤثرون العزلة عن الناس، بينما الشاذلية يتصلون بالناس للنصح والإرشاد.

ومما يحمد للطرق الصوفية، ما قامت به من دور عظيم في نشر الإسلام[1]، في جهات مختلفة وبقاع نائية؛ لأنهم يعطون ولا يطالبون، ويقرضون ولا يأملون في شيء.

وكان للصوفية في الهند، فضل المصالحة بين الطوائف المتنازعة، كما كان لهم فضل نشر الإسلام في الهند أيضا، دون حرب، على يد الطريقة النقشبندية.

كذلك بفضل الصوفية، انتشر الإسلام في أفريقية السوداء جنوبي الصحراء: السنغال، ومالي، والنيجر، وغينيا، وغانا ونيجيريا، وتشاد، وقد قامت بذلك الطريقة التيجانية، وطريقة الشاذلية[2]؛ وذلك بفضل الزوايا والرباطات التي أقاموها في تلك البقاع.

---

[1] د. عبد الرحمن بدوي: تاريخ التصوُّف الإسلامي، ص٢٥ – ٢٦

[2] د. أبو الوفا التفتازاني: مدخل إلى التصوُّف الإسلامي ص٢٤٦.

والذي ساعد الصوفية على هذا الفضل العظيم، هو اختلاطهم بالطبقات الشعبية في هذه البلاد، وعيشهم بين العامة والفقراء فأبدوا لهذه الأمم نماذج حية تتصف بالتقوى والصلاح، إلى جانب ما يقومون به من خدمات اجتماعية، وألوان من البر والإحسان والمواساة والإخاء.

ومما يؤخذ على الطرق الصوفية – ولاسيما في مصر – أن فيهم من يدَّعون أنهم ينحدرون من العشرة المبشرين بالجنة، ولم يكن هناك داعٍ لهذا الإثبات؛ لأن كل امرئ بما كسب رهين.

وهناك أيضا في مصر، من يدَّعون الانتساب إلى الخلفاء الأول، كما أن في مصر أيضا من يدَّعون أنهم من سلالة أبي بكر الصديق ﷺ، ولهم نفوذ على سائر الطرق.

وإن أغلب الطرق في مصر منسوبة إلى أربعة من كبار الأولياء وهم: عبد القادر الجيلاني، وأحمد الرفاعي، وأحمد البدوي، وإبراهيم الدسوقي، وقد تعددت فروعها حتى بلغت الأحمدية مثلاً ستة عشر فرعا، والشاذلية أربعة عشر فرعا، ومن المعلوم أن كثرة انقسام المذاهب إلى فرق أمر خطير وليس في صالح المذهب.

وقد ادّعى بعض الصوفية، أن هؤلاء الأربعة، اقتسموا الأرض فيما بينهم، وتدخل الله تعالى، وملائكته، والرسول ﷺ، والأولياء، للفصل بينهم، ثم عاد الأقطاب أخوة متحابين[1]؛ وهذا شيء منكر في الدين، ولا يستطيع إنسان أن يقيم عليه دلالة ما، سوى القول بأنه يدخل في باب الذوق والمشاهدة، وهو أمر لا يمكن ضبط الحكم به.

وللأستاذ الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني، نفسه، نقد على الطرق الصوفية المتأخرة، مع ملاحظة أنه الآن (في ربيع الأول ١٤٠٧ هـ) وقت كتابة هذه السطور، ما زال شيخ مشايخ الطرق الصوفية في مصر. فهو يقول ما نصه:

"لكن الطرق الصوفية في القرون المتأخرة، خصوصا منذ عصر العثمانيين، تدهورت عن ذي قبل؛ وذلك لأسباب حضارية، ولم تصدر عن صوفية هذه الفترة مصنفات مبتكرة، وإنما صدرت عنهم في الجملة شروح وتلخيصات لكتب المتقدمين من الصوفية. وانصرف أتباع هذه الطرق

---

(1) د. توفيق الطويل: التصوُّف في مصر إبان العصر العثماني ص ٧٢ - ٧٤

شيئًا فشيئًا، إلى الشكليات والرسوم، وابتعدوا عن العناية بجوهر التصوُّف ذاته، وسيطرت على جماهير المنتسبين إلى تلك الطرق، الأوهام والمبالغة في التحدُث بمناقب الأولياء وكراماتهم التي لم يكن يأبه لها المحققون من أوائل شيوخ التصوُّف، ولم يكونوا يعتبرونها دالة على كمال العلم والعمل؛ ومن هنا استهدفت الطرق لنقد شديد في العصور الحديث، من المصلح الديني محمد بن عبد الوهاب وأتباعه"[1].

ويفهم من هذا الكلام أن نقد الأستاذ الدكتور أبو الوفا، يتركز في ثلاث قضايا، هي مما يؤخذ على الطرق الصوفية اليوم وهي:

أولاً: ليس لأصحاب الطرق الصوفية مصنفات مبتكرة في علم التصوُّف، وإنما الموجود منه شروح وتلخيص على كتب الأئمة السالفين.

---

[1] د. أبو الوفا: مدخل إلى التصوُّف الإسلامي ص ٢٤٦

ثانيا: انصراف أهل الطرق إلى الشكليات والرسوم، والابتعاد عن جوهر التصوُّف الحقيقي ذاته؛ وفي ذلك بعد عن جوهر الدين أيضا.

ثالثًا: مبالغة أهل الطرق في التحدُّث عن كرامات ومناقب شيوخهم، بما يغطي على أصول التصوُّف، ويصرف الناس عن مزاياه وذلك واضح في الخزعبلات التي تزخر بها كتب الطبقات والمناقب[1].

وعلى الصوفية أن يعوا جيدا هذا النقد، وأن يعودوا بالتصوُّف إلى سابق عهده، إن أرادوا له الاستمرار.

وللمجلس الصوفي في مصر لائحة اسمها "لائحة الإجراءات الداخلية" وهي تشير إلى أن الطريقة التي لا تلتزم بما جاء في اللائحة يتم فصلها والقضاء عليها. ففي المادة الرابعة من الباب الثاني ص ١٢ ما نصه:

"يبعد عن الطريق الصوفية، كل من اتصف بأعمال مناقضة للأعمال والآداب الشرعية، كضرب الجسم بالسلاح

---

(1) انظر هنا: د. عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر ص ٢٦٠ - ٢٦١

وأكل الحشرات والهوام ودوس الأنام بالأنعام ونحوها، والذكر بهيئة الرقص والتخبط وعدم استكمال الحروف فيه، وإنشاد الأغاني المخلة بالآداب عليه، وإقامة الزار في الأضرحة"[(1)].

ومن الطبيعي أن هذه المادة قد كُتِبت بناء على وقائع قد حدثت يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولاً: ضـرب الجسم بالسلاح.

ثانيا: أكل الحشرات والهوام.

ثالثًا: دوس الناس بالأنعام.

رابعا: الذكر بهيئة الرقص، والتخبط، وعدم استكمال الحروف فيه.

خامسا: إنشاد الأغاني المخلة بالآداب على الذكر.

سادسا: إقامة الزار في الأضرحة وغيرها.

---

(1) د. توفيق الطويل: التصوُّف في مصر ص ٨٨

ولعل الهجوم الذي واجهه التصوُّف، كان منظورا فيه إلى تلك الفئة من الجهلة والمتكسبين، الذي أتوا بأعمال لا يرضى عنها الله تعالى[1].

ونلاحظ أن اللائحة نفسها قد وصفت هذه الأمور بأنها مناقضة للأعمال والآداب الشرعية، كما نلاحظ أن المجلس الصوفي حريص كل الحرص على النقد الذاتي وإصلاح نفوس وسلوك أتباعه من أهل الطرق، وهو ما يحمد له.

ويترتب على المادة التي ذكرناها من اللائحة، أن فيها ما يسلب الخلوتية والدمرداشية والشناوية وغيرهم مميزا خاصا بهم في طريقة الذكر، وهو الرقص.

كما أن فيها ما يسلب الرفاعية أهم خصائصها: من طعن النفس بالمدى أثناء الغيبوبة، وأكل الزجاج، والقبض على الحديد المحمي، وازدراء الأفاعي، وهو ما زال موجودا بالرغم من تحذير اللائحة الصوفية. نسأل الله تعالى الهداية لنا ولهم ولجميع المسلمين!

---

[1] د. عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر. ص ٩

ولعل هذه الظواهر المتخلفة لدى بعض الطرق الصوفية، أدت إلى تعميم الحكم على الجميع، فقد قام باحث مثل "لين" Lane يتهم العرب – ويقصد بهم المسلمين – بأنهم قوم شديدو الإيمان بالخرافات؛ لأنهم – ولاسيما المصريون – يؤمنون بقداسة الأولياء رغم ما كانوا عليه من خبل أو دجل أو جنون[1].

إن تعميم الحكم بهذه الصورة خطأ منهجي؛ لأنه يسوي بين الصالح والطالح، والمسألة لا تعدو أن تكون جهلاً من فريق معين، جهل الدين وجهل التصوُّف معا، ولا بديل لهذا الجهل سوى الخرافات والأوهام.

وعلى الذين انحرفوا من أهل الطريق، أن يتذكروا أن حسن الرفقة والأخوة تزيل الوحشة وتحث على السير للحاق بالصالحين، كما قال تعالى:

﴿**وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾

(سورة النساء – ٦٩)

وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت:

---

[1] د. توفيق الطويل: التصوُّف في مصر ص ١٥٠

"اللهم اهدني فيمن هديت"

وليتذكروا قول بعض السلف:

"عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين"[1].

الشيخ والمريد:

يشير علماء الأخلاق، إلى أن للمخالطة أثرا بينًا في تكوين أخلاق الإنسان، وفيما يصدر عنه من أفعال الخير والشر، وكذلك فيما يناله من سعادة وشقاء في الحياة؛ ونظرا لأن الإنسان موسوم بسمات من يخالطه، ومنسوب إليه فعله. فقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

"ما من شيء أدل على شيء، ولا الدخان على النار، من الصاحب على الصاحب"[2].

---

(1) ابن قيم الجوزية (٦٩١ – ٧٥١هـ): مدارج السالكين ١: ٢٢ تحقيق / محمد حامد الفقي، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م، مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة.

(2) محمد أحمد المولى: الخلق الكامل. ص٩٩، ط١، ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م، مطبعة حجازي بالقاهرة.

ومن الملاحظ أن التصوُّف الذي يبدو في أصله ظاهرة نفسية فردية، قد تحوَّل إلى ظاهرة اجتماعية. فلم يعد الصوفي كما كان من قبل، يعتكف في عزلة عن الناس، تستغرقه رياضاته ومجاهداته، وتستوعبه مشاهداته ومكاشفاته، بل لقد تحوَّل هذا الصوفي إلى إنسان شديد الحرص على الاجتماع بمريديه وأتباعه، والاتصال بسائر الناس، دون نظر إلى غني أو فقير، وحاكم ومحكوم، فالمهم هو التفاعل مع البيئة التي يعيش فيها[1].

وإن الشيخ للمريد، هو كالأستاذ المعلم للطالب، فلا يستطيع المريد في رأي الصوفية، أن يسلك هذا الطريق دون موجه ومرشد؛ لأن طريق التصوُّف طريق صعب متشعب المسالك، كثير المنحنيات، يتربص بالسالك فيه أعداء أشداء منهم: الشيطان، والنفس، والهوى.

وبناء على هذا، فإن الشيخ هو الذي يحدد لمريده طريق الوصول إلى الله، ويساعده على السير، فيترقى في المقامات على يديه. وفي هذا يقول القشيري:

---

(1) د. توفيق الطويل: التصوُّف في مصر ص ٣٨

"من لم يكن له أستاذ لا يفلح أبدا. هذا أبو يزيد يقول: من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان، وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول: الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس، فإنها تورق لكن لا تثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفسا فنفسا فهو عابد هواه لا يجد نفاذًا"[1].

ولا بد أن يكون الشيخ نفسه قد أخذ حظه من كل علم شرعي، وأن يكون متورعا عن المحارم، وأن يكون زاهدا بحق، وأن يفرغ من مداواة نفسه، قبل مداواة غيره، وأن يكون ذا ذوق صحيح وبصيرة نافذة. يقول الإمام أبو عبد الله بن عباد:

"ولا بد للمريد في هذا الطريق من صحبة شيخ محقق مرشد، قد فرغ من تأديب نفسه، وتخلص من هواه، فيسلم نفسه إليه، وليلازم طاعته والانقياد إليه في كل ما يشير به عليه، من غير ارتياب ولا تردد. فقد قالوا: من لم يكن له شيخ، فإن الشيطان شيخه"[2].

---

[1] الرسالة القشيرية ص ٣١٥

[2] المالكي: الدر الثمين ٢: ١٧٠

ويتحدث أبو علي الثقفي عن آداب الأستاذ والتلميذ في هذا المقام، فيقول كذلك:

"لو أن رجلاً جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة، من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح، ومن لم يأخذ آدابه من آمر له وناه، يريه عيوب أعماله ورعونات نفسه، لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات"[(1)]

وقد أشار السهروردي إلى أن رتبة الشيخ من أعلى المراتب في المحيط الصوفي، ويعلل ذلك قائلاً:

"لأن الشيخ يحبب الله إلى عباده حقيقة، ويحبب عباد الله إلى الله، ورتبة المشيخة من أعلى الرتب في طريق الصوفية، ونيابة النبوة في الدعاء إلى الله"[(2)]**.**

وإذا كان المريد بحاجة ماسة إلى شيخ، فإن الشيخ أيضا لا يكون أستاذًا بحق دون أن يكون له مريدون ورواد.

---

(1) نفس المكان.

(2) السهروردي (شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد) عوارف المعارف ص٧٣. (ملحق إحياء علوم الدين للغزالي) المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة "بدون تاريخ".

فالمريد يسلك الطريق الذي يسير فيه شيخه، حسبما يرسم الشيخ المنهج، ولا بد للمريد أن يبدأ بالتوبة، وأن يأخذ العهد من الشيخ بطاعة الله ورسوله، وأن يتلقى من شيخه كيفية الذكر؛ والخلاصة أن يكون مطيعا طاعة تامة، دون محو لشخصيته كما قد يتوهم في هذا المقام.

ومن آداب المريد ألا يكتم أي سر عن شيخه، مهما كتمه عن الناس جميعا:

"ولو كتم نفسا من أنفاسه عن شيخه فقد خانه في حق صحبته، ولو وقع له مخالفة فيما أشار عليه شيخه، فيجب أن يقر بذلك بين يديه في الوقت، ثم يستسلم لما يحكم به عليه شيخه عقوبة له: إما بسفر يكلفه، أو أمر ما يره، ولا يصح للشيوخ التجاوز عن زلات المريدين؛ لأن ذلك تضييع لحقوق الله تعالى" [1].

فإذا سمع المريد نصائح شيخه، وأثمرت التربية، فقد حقق هدفًا غاليا في التربية الروحية، ويخبرنا الشعراني عن علامة

---

[1] الرسالة القشيرية . ص ٣١٦

ذلك، بأن المريد يصبح محبا للخير بالنسبة لجميع الناس إلا نفسه، فيقول:

"من علامة انتفاع المريد بشيخه، أن يصير يعتقد في الناس كلهم الخير، إلا نفسه، فلا يكاد يرى في أحد نقصا، وإذا سمع أحدا ينقصه لم يتغير منه شعرة، بل يرى ذلك المنقص له صادقًا فيما قال"[1].

ونجد نفس الفكرة في نصح يهديه الإمام الغزالي لكل إنسان مسلم فيقول:

"كل من رأى نفسه خيرا من أحد من خلق الله تعالى فهو متكبر، بل ينبغي لك أن تعلم أن الخير من هو عند الله في دار الآخرة، وذلك غيب موقوف على الخاتمة. فاعتقادك في نفسك أنك خير من غيرك جهل محض، بل ينبغي ألا تنظر إلى ألد إلا وترى أنه خير منك".

وقد نبه القشيري إلى أنه لا يجوز للمريد، أن يعتقد العصمة في شيخه، فقال:

---

[1] الشعراني (عبد الوهاب بن أحمد): لطائف المنن والأخلاق ص ٧ ، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م عالم الفكر بالقاهرة.

"ولا ينبغي للمريد أن يعتقد في المشايخ العصمة، بل الواجب أن يذرهم وأحوالهم، فيحسن بهم الظن [1]".

ولا يقبل الشيوخ من المريدين، إلا من كان متصفًا بإرادة حديدية، لا تؤثر فيها مطاعم العالم ومشاربه وملذاته؛ ولهذا قد يبدأ الشيخ فيثبط همة الطالب، ويصف له ما سوف يلاقيه في حياته الجديدة من الألم والشقاء والحرمان، وما سوف يحرم منه من ملذات وترف.

ومن الشيوخ من هو رفيق، فيشجع المريد، ويلبسه خرقة التصوُّف، وينصحه ويسيره في زهده وتعبده، ويرسم له خطة السير إلى الحق، ويقوم أمامه بالفروض الدينية، كما يعلمه كيفية القيام.

وهنا يعمد المريد، إلى أنواع العبادة والتقشف، يحاول بها أن ينهك جسمه ويطهر روجه.

وربما ابتعد المريد عن الزواج في تلك المرحلة؛ لأن ذلك يمنعه من السلوك، ويدفعه إلى الأنس بزوجة عوضا عن الأنس بالله تعالى، وقد قال أبو سلمان الداراني:" من تزوج

---

(1) الرسالة القشيرية ص ٣١٩ – ٣٢٠

فقد ركن إلى الدنيا". ولكن لا مانع من الزواج بعد؛ لأنه سنة النبي ﷺ، وهم حريصون على الأخذ بها. وإن كان بعضهم واصل الموقف العدائي للمرأة[1].

وقد يعمد المريد إلى الجوع يحارب به الشهوة، ويطرد وساوس الشيطان؛ لأن الشبع نهر في النفس ترده الشياطين، والجوع نهر في الروح ترده الملائكة، وكما يقول السهروردي نقلاً عن يحيى ابن معاذ:

"ينهزم الشيطان من جائع نائم، فكيف إذا كان قائما، ويعانق الشيطان شبعان قائما، فكيف إذا كان نائما"[2].

ولا يجوز للمريد أن يترك شيخه، قبل أن يبدي الشيخ رأيه في استقلاله عنه أو عدم استقلاله، وإلا صار كالطفل الذي يفْطَم قبل الأوان.

---

[1] انظر هنا: د. محمد كمال جعفر: التصوُّف طريقًا وتجربة ومذهبا. ص ١١٠ – ١٩٧٠ م، دار الكتب الجامعية بالإسكندرية.

[2] عوارف المعارف ص ١٦٩

صحبة الأحداث:

إن موضوع صحبة الأحداث أو المردان، من الموضوعات الخطيرة في ميدان التصوُّف، والتي أسيء فهمهما كثيرا، واستغلت أسوأ استغلال ضد التصوُّف كله، وضد الصوفية الأصلاء الذين راقبوا الله تعالى في كل نفس من أنفاسهم.

والذين استغلوا هذا الموقف، إنما هم أساسا ممن يرمي التصوُّف كله بحجر واحد، أو من الذين طبعوا بطابع العجلة والتسرع والقفز إلى التعميم، دون التمييز، بين فريق من الصوفية استحوذ عليهم الشيطان، وبين فريق حاربوا الشيطان بكل قوة؛ وذلك عين الظلم في إصدار الأحكام.

لكن القلة دائما تسيء إلى الكثرة، والطالح يشوه الصالح المخالط له، وكان على الصوفية أن يأخذوا بشدة على يد المنحرفين منهم، والذين أثاروا عليهم الغبار من كل الجهات. وصدق الله تعالى.

﴿وَاتقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَن الذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُم خَاصةً وَاعلَمُوا أَن اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال - ٢٥)

وللهجويري كلام في هذه المناسبة، ينبغي أن يعيه الذين يسيئون إلى أهل الحق؛ لأن هذا الكلام أغلى من الذهب، فهو يحث على الفرار من المقلدين أو مترسمي التصوُّف فيقول:

"ذلك أن العوام، لما نظروا إلى أهل هذا الزمان، ورأوا مترسمي الصوفية، وشاهدوا رقصهم وغناءهم، وذهابهم إلى أبواب السلاطين، واختصامهم من أجل اللقمة والخرقة، أساءوا الاعتقاد في الجميع، وقالوا: إن أصل الطريق هو هذا، وقد سار المتقدمون أيضا على هذا، ولم يعلموا أنه زمان الفترة وعهد البلاء، وحين يحمل الحرص السلطان على الجور، والطمع العالم على الفسق، والرياء الزاهد على النفاق، فإنه لا محالة أيضا من أن يحمل الهوى الصوفي على الرقص والغناء"[1].

وهذا يؤكد ما قلناه من أن هناك فريقًا يسيء إلى أهل الحق من الصوفية، ويظلمونهم بانتسابهم إليهم، ثم يقول الهجويري قولاً أغلى من السابق، وهو يصلح أن يكون قاعدة

---

(1) كشف المحجوب. ص ٢٣٨

عامة، يجب أن يعيها الصوفية والمتصوفة والدارسون، وهي:

"اعلم أن أهل الطرق يفسدون، ولكن أصول الطرق لا تفسد"[(1)].

وقد جمع ابن الجوزي أخبارا عن بعض الصوفية في هذه المسألة، وهي كما قلنا تخصُ بعض الصوفية لا كلهم، أو تخصُ المدعين لا لأصلاء، ولا داعي لاتهام ابن الجوزي بالتحامل؛ لأننا سنعرف بعد أن القشيري – وهو صوفي- قد كتب في نفس الموضوع.

وإن فريقًا من الصوفية، قد سدُوا على أنفسهم باب النظر إلى النساء الأجنبيات؛ لبعدهم عن مصاحبتهن، وامتناعهم عن مخالطتهن واشتغلوا بالتعبد عن الزواج.

واتفقت صحة الأحداث لهم، على وجه الإرادة وقصد الزهادة، فأمالهم إبليس إليهم، والمتصوفة – كما يذكر ابن الجوزي – في صحبة الأحداث على سبعة أقسام[(2)]:

---

(1) نفس المكان.

(2) ابن الجوزي: تلبيس إبليس ٢٦٤ وما بعدها.

١- **أخبث القوم:** وهم ناس تشبهوا بالصوفية، ويقولون بالحلول، وذلك أن جماعة من الحلولية زعموا أن الحق تعالى اصطفى أجساما، حل فيها بمعاني الربوبية، ومنهم من قال إنه حل في المستحسنات، كما أن منهم من يدعى رؤية الله تعالى في الدنيا، مع إجازتهم أن يكون في صفة الآدمي، ولم يأبوا كونه حالاً في الصورة الحسنة. تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا!

٢- قوم يتشبهون بالصوفية في ملبسهم، ويقصدون الفسق.

٣- قوم يستبيحون النظر إلى المستحسن، وقد صنف أبو عبد الرحمن السلمي كتابا سماه "سنن الصوفية" وقال في آخره: باب جوامع رخصهم، فذكر فيه الرقص والغناء والنظر إلى الوجه الحسن، كما ذكر فيه ما روي عن النبي ﷺ، أنه قال: "اطلبوا الخير عند حسان الوجوه" وقوله: " ثلاثة تجلو البصر: النظر إلى الخضرة، والنظر إلى الماء، والنظر إلى الوجه الحسن".

ويذكر ابن الجوزي، أن هذين الحديثين لا أصل لهما عن رسول الله ﷺ؛ فهما إذن من الموضوعات[1].

ويذهب الفقهاء إلى أن من ثارت شهوته عند النظر إلى الأمرد، حرم عليه، أن ينظر إليه، وهذا حكم يجب على الناس أن يعوه جيدا.

قال سعيد بن المسيب:

"إذا رأيتم الرجل يلح النظر إلى غلام أمرد فاتهموه"[2].

٤- قوم يقولون: نحن لا ننظر نظر شهوة، وإنما ننظر نظر اعتبار، فلا يضرنا النظر.

وهذا محال منهم؛ لأنهم ظنوا أن المعصية هي الفاحشة فقط، دون أن يعلموا أن نفس النظر بغير شهوة يحرم، وما داموا يكررون النظر فلا بد من وقوعهم في النظر بشهوة.

وحكِي أن الشيخ أبو علي خوده، كان يحب الغلمان، ويعبث بهم بحضرة آبائهم بالغًا ما بلغت مكانتهم[1].

---

[1] المصدر نفسه، ص ٢٦٥

[2] نفس المكان.

وحكى صبي أمرد قال: قال لي فلان الصوفي وهو يحبني: يا بني، لله فيك إقبال والتفات، حيث جعل حاجتي إليك.

وحكى أبو الحسين بن يوسف، أنه كُتِبَ إليه في رقعة: "إنك تحب غلامك التركي"، فقرأ الرقعة، ثم استدعى الغلام، فصعد إليه النظر، فقبله بين عينيه، وقال: هذا جواب الرقعة.

ويعلق ابن الجوزي على هذه الواقعة بقوله:

"إنى لا أعجب من هذا الرجل وإلقائه جلباب الحياء عن وجهه وإنما أعجب من البهائم الحاضرين، كيف سكتوا عن الإنكار عليه. ولكن الشريعة بردت في قلوب كثير من الناس"[(2)].

لقد عدلت هذه الطائفة عما أمرهم الله به من الاعتبار إلى ما نهاهم عنه؛ حيث يزعمون أن النظر إلى الأمرد يزيد الإيمان بالنظر والاعتبار والاستدلال بالصنعة على الصانع، وهذه هي النهاية في متابعة الهوى ومخادعة العقل ومخالفة

---

(1) د. توفيق الطويل: التصوُّف في مصر. ص ١١٢

(2) تلبيس إبليس. ص ٢٦٨

العلم، وكان الواجب اتباع إرشاد القرآن الكريم في مثل قوله الله تعالى:

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾

(الذاريات – ٢١)

﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيفَ خُلِقَتْ﴾

(الغاشية – ١٧)

﴿أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السمَاوَاتِ وَالأَرضِ﴾

(الأعراف – ١٨٥)

وإنما تنظر هذه الطائفة إلى الأمر هكذا، بعد تناول الألوان الطيبة، والمآكل الشهية.. فإذا شبعوا طالبتهم نفوسهم بما يتبعها من السماع والرقص والاستمتاع بالنظر إلى وجوه المرد، ولو أنهم تقللوا من الطعام، لم يحنوا إلى سماع أو نظر، وليس بصحيح ما يدعيه بعضهم من أنه لا يخاف من رؤية الصور المستحسنة؛ فإن الشريعة قد جاءت عامة الخطاب، لا تميز الأشخاص، وآيات القرآن تنكر مثل هذه الدعاوى في مثل:

﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ﴾ **(النور – ٣٠)**

وفي قوله (السابق): "أفلا ينظرون إلى الإبل ..."

فلم يحل النظر إلا على صور لا ميل للنفس إليها، ولا حظ فيها، بل هي عبرة لا يمازجها شهوة، ولا تعتريها لذة. ويقول ابن الجوزي في هذا المقام:

"أما صور الشهوات، فإنها تعبر عن العبرة بالشهوة، وكل صورة ليست بعبرة لا ينبغي أن ينظر إليها؛ لأنها قد تكون سببا للفتنة، ولذلك ما بعث الله تعالى امرأة بالرسالة، ولا جعلها قاضيا ولا إماما ولا مؤذنًا؛ كل ذلك لأنها محل فتنة وشهوة"[1].

٥- قوم صحبوا المردان، ومنعوا أنفسهم من الفواحش، يعتقدون أن ذلك مجاهدة، وما يعلمون أن نفس صحبتهم والنظر إليهم بشهوة، إنما هو معصية. ويقول ابن الجوزي موضحا جهل هذا الفريق بآداب الشريعة:

---

(1) تلبيس إبليس ص ٢٦٨

"هؤلاء قوم رآهم إبليس لا ينجذبون معه إلى الفواحش، فحسن لهم بداياتها؛ فتعجلوا لذة النظر والصحبة والمحادثة، وعزموا على مقاومة النفس في صدها عن الفاحشة، فإن صدقوا، وتم لهم ذلك، فقد اشتغل القلب الذي ينبغي أن يكون شغله بالله تعالى لا بغيره، وصرف الزمان الذي ينبغي أن يخلو فيه القلب بما ينتفع به في الآخرة، بمجاهدة الطبع في كفه عن الفاحشة، وهذا كله جهل وخروج عن آداب الشرع، فإن الله عز وجل أمر بغض البصر؛ لأنه طريق إلى القلب، ليسلم القلب لله تعالى"[1].

وفي هذا الفريق الخامس، من قويت مجاهدته مدة، ثم ضعفت، فدعته نفسه إلى الفاحشة، فامتنع حينئذ من صحبة المرد، وقد صحب أحدهم غلاما وضيئًا مدة ثم هجره، ولما سئِلَ عن السبب قال:

"رأيت قلبي يدعوني إلى أمر، إذا خلوت به وقرب مني، ولو أتيته سقطت من عين الله عزَّ وجل، فهجرته لذلك؛ تنزيها لله تعالى ولنفسي من مصارع الفتن"[2].

---

[1] المصدر نفسه ص ٢٧٠

[2] نفس المكان.

ومنهم من تاب وأطال البكاء من إطلاق نظره، وقد سمِعَ "خير النساج" يقول:

"كنت مع أمية بن الصامت الصوفي، إذ نظر إلى غلام فقرأ. ﴿**وَهُوَ مَعَكُم أَينَ مَا كُنْتُم وَاللهُ بِمَا تَعمَلُونَ بَصِير**﴾ **(الحديد – ٤)**

ثم قال: وأين الفرار من سجن الله وقد حصنه بملائكة غلاظ شداد، تبارك الله فما أعظم ما امتحنني به من نظري إلى هذا الغلام، ما شبهت نظري إليه إلا بنار وقعت على قصب في يوم ريح، فما أبقت ولا تركت، ثم قال: أستغفر الله من بلاء جنته عيناي على قلبي، ولقد خفت ألا أنجو من معرته ولا أتخلص من إثمه، ولو وافيت القيامة بعمل سبعين صديقًا، ثم بكى حتى كاد يقضي نحبه، فسمعته يقول في بكائه: يا طرف لأشغلنك بالبكاء عن النظر إلى البلاء"[1].

إن كل هذا اللوم والبكاء، صادر عن نفس غير سوية قطعا. ولو كان هذا المستصوف عارفًا بربه، ما جاذبته هكذا إلى حسناء، فما بالنا بغلام!

---

[1] نفس المصدر ص ٢٧١

إن المسألة هنا تعني مرضا خبيثًا في النفس، ناتج عن البطالة والخلوة الكاذبة؛ فكان ما كان من افتراس الهواجس له، وقد ثبت أن اضطراب الغريزة الجنسية أساس لعدد هائل من الأمراض الفكرية والعصبية والخلقية[1]،وإذا كان القرآن قد وصِم بهذا كل من يتطلع إلى امرأة أجنبية ليست بزوجة له في قوله تعالى:

﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾

(الأحزاب – ٣٢)

فما بالنا بمن تتطلع نفسه إلى عمل قوم لوط، الذي يستوجب اللعن والقتل!

بل لقد وصل الأمر ببعض هؤلاء أن تلاعب به المرض من شدة المحبة؛ فقد كان عبد الله بن موسى من رؤساء الصوفية ووجوههم، فنظر إلى غلام حسن في بعض الأسواق، فبِلي به، وكان يذهب عقله عليه صبابة وحبا،

---

(1) محمد الغزالي (الشيخ) : عقيدة المسلم، ص١٨٣، وما بعدها ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م، دار الكتب الإسلامية بالقاهرة.

وكان يقف كل يوم في طريقه، حتى يراه إذا أقبل وإذا انصرف، فطال به البلا، وأقعده عن الحركة الضنا، وكان لا يقدر أن يمشي خطوة، وقال عن حاله هذه:

"أمور امتحنني الله بها، فلم أصبر على البلاء فيها، ولم يكن لي بها طاقة، وربَّ ذنب يستصغره الإنسان، وهو عند الله أعظم من كبير، وحقيق بمن تعرَّض للنظر الحرام أن تطول به الأسقام"[1]. ثم بكى.

إن هذا داء عضال خبيث، مصدره الوساوس والخبال الذي أحاط بهذا الصنف، وإن الصوفي حقًا ليستحي أن يقول هذا عن زوجة حسناء هي حلال له.

ومن هؤلاء من همت نفسه إلى الفاحشة؛ فقتل نفسه، فقد كان في بلاد فارس صوفي كبير،فابتلي بحدث، فلم يملك نفسه أن دعته إلى فاحشة. فراقب الله عزَّ وجل، ثم ندم على هذه الهمة، وكان منزله على مكان عالٍ، ووراء منزله بحر من الماء، فلما أخذته الندامة صعد السطح ورمى نفسه إلى الماء، وتلا قوله تعالى:

---

[1] تلبيس إبليس ص ٢٧١

﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ٤٥)

فغرق في البحر؛ فكان مثل من استجار من الرمضاء بالنار.

ويعلق ابن الجوزي على هذا الحادث، مبينًا مدى سيطرة إبليس على الرجل، وشدة جهله بفقه الآية الكريمة، فيقول:

"انظر إلى إبليس، كيف درج هذا المسكين من رؤية هذا الأمرد، وإلى إدمان النظر إليه، إلى أن مكن المحبة من قلبه، إلى أن حرضه على الفاحشة، فلما رأى استعصامه حسن له بالجهل قتل نفسه فقتل نفسه، ولعله هم بالفاحشة ولم يعزم، والهمة معفو عنها، لقوله ﷺ:"عفي لأمتي عما حدثت به نفوسها"، ثم إنه ندم على همهته، والندم توبة، فأراه إبليس أن من تمام الندم قتل نفسه، كما يفعل بنو إسرائيل، فأولئك أُمِرُوا بذلك بقوله تعالى:

﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ٥٤)

ونحن نهينا عنه بقوله تعالى:

﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (النساء: ٢٩)

فقد أتى بكبيرة عظيمة [1]".

---

(1) المصدر نفسه ص ٢٧٢

ثم يسوق ابن الجوزي حديث الصحيحين عن النبي ﷺ: "من تردى من جبل فقتل نفسه، فهو يتردى في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا".

ومن هؤلاء من فُرِقَ بينه وبين حبيبه – الغلام – فقتل نفسه! فقد كان أحد الصوفية في رباط ببغداد، ومعه صبي في البيت الذي هو فيه، فشنعوا عليه، وفرَّقوا بينهما، فدخل الصوفي إلى الصبي ومعه سكين فقتله وجلس عنده يبكي، وأقرَّ بأنه قتله، وجلس الصوفي يبكي ويقول لوالد الغلام: بالله عليك إلا ما أقدتني به، فعفا عنه والد الصبي، فقام الصوفي إلى قبر الصبي، فجعل يبكى عليه ثم لم يزل يحج عن الصبي ويهدي له الثواب[1]!.

فأي عاقل يصدق أن هذا عارف بالله عزَّ وجل! إن مثل هذا لصيق بالصوفية الحق، ووجد ملاذًا بينهم لما يعرفه عنهم أنهم قوم مسالمون، وأنهم لا يعبئون بالمظاهر.

ومن هؤلاء من قارب الفتنة ووقع فيها، ولم تنفعه دعوى الصبر والمجاهدة. فعن إدريس بن إدريس قال:

---

(1) نفس المكان.

حضرت بمصر قوما من الصوفية، ولهم غلام أمرد يغنيهم، فغلب على رجل منهم أمره، فلم يدر ما يصنع، فقال: يا هذا قل لا إله إلا الله، فقال الغلام: لا إله إلا الله. فقال: أقبلُ – بالتشديد – الفم الذي قال: لا إله إلا الله[1].

فأي احترام للتوحيد من هذا الجاهل الشهواني، الذي يستحق أشد العقاب والعذاب!

٦- القسم السادس: قوم لم يقصدوا صحبة المردان، إنما يتوب الصبي، ويتزهد، ويصحبهم على طريق الإرادة.

وهنا يلبس عليهم إبليس، ويقول: لا تمنعوه من الخير، ثم يتكرر نظرهم إليه، لا عن قصد؛ فيثير في القلب الفتنة، إلى أن ينال الشيطان منهم قدر ما يمكنه.

وربما وثقوا بدينهم، واغتروا بأنفسهم، فاستفزَّهم الشيطان، فرماهم إلى أقصى المعاصي[2].

---

[1] تلبيس إبليس ص ٢٧٣

[2] نفس المكان.

٧- القسم السابع: من هؤلاء المنحرفين الذين ساهموا في تشويه وجه التصوف: قوم علموا أن صحبة المردان والنظر إليهم لا يجوز، غير أنهم لم يصبروا عن ذلك. يقول يوسف بن الحسين:

"كل ما رأيتموني أفعله فافعلوه، إلا صحبة الأحداث، فإنها أفتن الفتن.. ولقد عاهدت ربي أكثر من مرة، ألا أصحب حدثًا، ففسخها عليّ: حسن الخدود، وقوام القدود، وغنج العيون، وما سألني الله معهم عن معصية"!

عمن يتكلم هذا اللوطي المخبول! عن ذكر أم عن أنثى! عن حلال أم عن حرام! وحق لابن الجوزي أن يشنع بمثله قائلاً:

"هذا الرجل، قد فضح نفسه في شيء ستره الله عليه، وأخبر أنه كلما رأى فتنة نقض التوبة، فأين عزائم التصوف في حمل النفس على المشاق، ثم ظن بجهله أن المعصية هي الفاحشة فقط، ولو كان له علم لعلم أن صحبتهم والنظر إليهم معصية؛ فانظر إلى الجهل كيف يصنع بأربابه[1]!"

---

[1] نفس المكان

والقاعدة هنا أن كل من فاته العلم الصحيح تخبط، فإن حصل له، وفاته العمل به، كان أشد تخبيطًا.

ومن استعمل أدب الشرع في قوله عزَّ وجل:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾

(النور: ٣٠)

سلم في البداية بما صعب أمره في النهاية، وقد ورد الشرع بالنهي عن مجالسه المردان، وأوصي العلماء بذلك.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: **"نهى رسول الله ﷺ، أن يُحد الرجل النظر إلى الغلام الأمرد [(1)]"**.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: ما أتى على عالم من سبع ضارٍ، أخوف عليه من غلام أمرد.

وكان السلف يبالغون في الإعراض عن المرد، وقد أجلس النبي ﷺ، الشاب الحسن الوجه وراء ظهره، وكان ضمن وفد عبد القيس.

وكان سفيان لا يدع أمرد يجالسه، وكان يقول: " مع الجارية شيطان، ومع الغلام شيطانان".

[(1)] تلبيس إبليس ص ٢٧٤

وبذلك كانت صحبة الأحداث أقوى حبائل إبليس التي يصيد بها الصوفية، فقد رأى أبو سعيد الخرَّاز في المنام "إبليس" فقال له إبليس: أنتم طرحتم عن نفوسكم ما أخادع به الناس، وهي الدنيا ثم التفت إليه وقال: غير أن فيكم لطيفة. قال له: وما هي؟ قال: صحبة الأحداث!

ومما يحكى عن عقوبة النظر بشهوة إلى المردان ما يلي:

أنكر أبو عبد الله البلخي، وقوف أبي عبد الله بن الجلاء يتأمل غلاما نصرانيا، ويقول: أما ترى هذه الصورة، كيف تعذب بالنار! فقال له البلخي: لتجدن غبها ولو بعد حين. قال: فوجدت غبها بعد أربعين سنة، أُنْسِيتُ القرآن[1].

وربما أُتهم ابن الجوزي فيما ساق من روايات كثيرة، بأنه متحامل على الصوفية، لكننا وجدنا نفسي منهج الإنكار لدى صوفي غير متهم عند الصوفية أنفسهم، وهو الإمام القشيري المتوفى عام ٤٦٥هـ.

ونرى هذا الإمام يعقد في رسالته القشيرية فصلاً في "باب الوصية للمريد" وهذا الفصل يدور حول الحديث عن صحبة

---

[1] نفس المصدر ص ٢٧٧

الأحداث، ويفْهم من هذا، أن مثل هذه الأمور كان يقع في عهده، وأنه كان يشغل أهل الطريق، حرصا منهم على سلامة هذا الطريق من الآفات، فهو يقول:

"ومن أصعب الآفات في هذه الطريقة، صحبة الأحداث، ومن ابتلاه الله تعالى بشيء من ذلك، فبإجماع الشيوخ: ذلك عبد أهانه الله عز وجل، وخذله، بل عن نفسه شغله، ولو بألف كرامة أهله [1]".

إن علة هذا لدى القشيري، أنه قد شغل القلب بمخلوق، وهوَن من شأن ذلك الأمر للقلب، حتى صدق عليه قوله تعالى:

﴿وَتَحسَبُونَهُ هَينًا وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيم﴾

(النور: ١٥)

ويقول الواسطي في هذا الشأن:

"إذا أراد الله هوان عبد، ألقاه إلى هؤلاء الأنتان والجيف[2]".

---

(1) الرسالة القشيرية ص ٣٢٠

(2) نفس المكان

وقال أحد الصوفية، وهو فتح الموصلي:

"صحبت ثلاثين شيخًا، كانوا يُعدون من الأبدال كلهم، أوصوني عند فراقي أياهم، وقالوا: اتق معاشرة الأحداث ومخالطتهم [1]".

ويوصي القشيري نفسه كل مريد بالبعد عن الأحداث، فيقول:

"فليحذر المريد من مجالسة الأحداث ومخالطتهم؛ فإن اليسير منه فتح باب الخذلان، وبدء حال الهجران [2]".

كما يوصيه أيضا، بأنه إذا لم يكن له شيخ يدله على حال يتخلص به من ذلك، كان له أن يسافر أو يتحوَل عن ذلك الموضع؛ ليشوش على نفسه تلك الحالة[3].

ألا فليعلم جهال الصوفية حقيقة التصوُّف!

ونحن نذكر هؤلاء المنحرفين في كل زمان ومكان، من الصوفية، أن يثوبوا إلى رشدهم، وأن يتذكروا ما نصَّ عليه

---

[1] نفس المكان عند القشيري.

[2] نفس المكان

[3] نفس المصدر ص ٣٢١ – ٣٢٢

الصوفية الحق من "منزلة الهمة"، وهي المنزلة التي تجعل علاقة العبد بربه صادقة، وقد عبر عنها ابن القيم بقوله:

"المراد أن همة العبد إذا تعلقت بالحق تعالى، طلبا صادقًا محضا، فتلك هي الهمة العالية، التي لا يتمالك صاحبها، أي لا يقدر على المهلة، ولا يتمالك صبره، لغلبة سلطانه عليه، وشدة إلزامها إياه بطلب المقصود، ولا يلتفت عنها إلى ما سوى أحكامها"[1].

إن الهوى هو الذي يسري بهذا الصنف من الناس، في فنون، ويخرجه من العقل إلى الجنون، وربما وقع الهوى العلم، فيخرج بأهله إلى ضد ما يأمر به العلم، وقد يقع الزهد فيحوله إلى رياء، وكما يقول ابن الجوزي:

"قل لي بالله عليك، أين لذة آدم التي قضاها من همة يوسف التي ما أمضاها! من كان يكون يوسف لو نال تلك اللذة! فلما تركها وصبر عنها بمجاهدة ساعة، صار من

---

(1) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين ٣: ٣ - ٤ تحقيق/ محمد حامد الفقي ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م، مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة.

عرفت[1]**".**

ولا نودُ من جانبنا أن ندين التصوُف كله بما فعله هذا الفريق من الناس؛ لأنهم لم يعرفوا حقيقة كيف يزكون أو يطهرون أنفسهم، فإن النفوس الجديرة بسلوك هذا الطريق من الندرة بمكان، أو كما يقول الدكتور عبد الحليم محمود عن حقيقة التصوُف:

"إنه نظام الصفوة المختارة، إنه نظام هؤلاء الذين وهبهم الله حسا مرهفًا، وذكاء حادا، وفطرة روحانية، وصفاء يكاد يقرب من صفاء الملائكة، وطبيعة تكاد تكون مخلوقة من النور[2]**".**

بدع الموالد:

عرَف العلماء البدعة بأنها:

---

[1] ابن الجوزي: ذمُ الهوى ص١٥، وانظر ص١٦ تحقيق/ مصطفى عبد الواحد، مراجعة / محمد الغزالي. ط١، ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م، دار الكتب الحديثة بالقاهرة.

[2] د. عبد الحليم محمود: أبحاث في التصوُف ص ٣٧٧ (مع المنقذ من الضلال للغزالي).

"طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها، ما يقصد بالطريقة الشرعية، أو يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله [1]**".**

ومعنى الاختراع هنا، الإتيان بجديد، ليس للناس به عهد وهذا إنما يتم على المبتدعين، الذين يخترعون أعمالاً أو أقوالاً ويزوقونها للناس حتى يحسبوها دينًا، وهي لم تنزل من عند الله تعالى.

ومما يلفت النظر، أن المخْتَرِع في الدين يحاول سبك خديعته بما يخيل للرائين أن باطله حق؛ ومن هنا فإنه حريص على مضاهاة الشريعة في المظهر، وإن خالفها في الجوهر.

ولا شك أن موالد الأولياء بدعة في الدين، فهم ليسوا بأولى من النبي ﷺ، لكن مكمن الداء هنا هو شدَّة الحرص على تملق الدهماء، في الوقت الذي يجب فيه ردُّهم عن ضلالتهم.

---

[1] محمد الغزالي (الشيخ): ليس من الإسلام ص ٨٣ وانظر بعدها، ط٥، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م، دار الكتب الإسلامية بالقاهرة.

إنه لا يجوز الاحتفال بمولد النبي ﷺ نفسه بالصورة التي نراها في عصرنا هذا؛ لأنه من البدع المستحدثة في الدين، ونلاحظ أن الطرق الصوفية هي التي تقوم بهذا في أغلب الأحوال.

إن مثل هذا الاحتفال لم يفعله النبي ﷺ، ولا الصحابة، ولا التابعون لهم بإحسان، وهم أعلم الناس بالسنة، وأكمل حبا لرسول الله ﷺ [1].

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قول النبي ﷺ:

"من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو ردٌّ".

أي مردود لا يقبله الله عزَّ وجل، وفيه تحذير شديد من البدعة.

وورد أيضا في السنن عن عرباض بن سارية، قول النبيﷺ:

---

[1] عبد العزيز بن باز (الشيخ) التحذير من البدع. من ص ٣ – ٦، طبع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، نشر دار الاعتصام بالقاهرة ١٩٧٧ م (رقم ٥ من السلسلة)

"عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة".

وهذه الاحتفالات تشير إلى أن الله تعالى لم يكمل الدين، مع أن الدين قد كمل بحمد الله تعالى.

ومما اختلف المحدثون في الموالد، ما بين مجيز ومنكر، فإن القاعدة هي ردُّ الأمر المختلف فيه إلى الله ورسوله:

﴿فَإِن تَنَازَعتُم فِي شَيءٍ فَرُدوهُ إِلى اللهِ وَالرسُول﴾

(النساء: ٥٩)

وكذلك قوله تعالى:

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُم فِيهِ مِن شَيءٍ فَحُكْمُهُ إِلى اللهِ﴾

(الشورى: ١٠)

ولا ينبغي للمسلم أن يغتر بكثرة المحتفلين بمولده ﷺ، في سائر الأقطار الإسلامية، فإن الحق لا يعرَفُ بكثرة الفاعلين، وإنما يعرَفُ بالأدلة الشرعية، لقوله تعالى:

﴿وَإِن تُطِع أَكْثَرَ مَن فِي الأَرضِ يُضِلوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾

(الأنعام: ١١٦)

وبالإضافة إلى عدم شرعية الموالد كلها، فإن فيها منكرات مثل: اختلاط الرجال بالنساء، واستعمال المعازف، والغناء وشرب المحرمات، والغلو في رسول الله ﷺ، هذا مع تخلف كثير ممن يحضر هذه المناسبات عن صلاة الجماعة، وبلغ الجهل ببعضهم أنه يعتقد أن رسول الله ﷺ، يحضر هذه الاحتفالات.

وقُلْ مثل هذا الحكم في الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج، مع التسليم بأن الإسراء والمعراج آية عظيمة من آيات الله الدالة على صدق رسول الله ﷺ، وعلى عظم منزلته عند الله عزَ وجل، وهي أيضا من الدلائل على قدرة الله الباهرة، وعلى علوه سبحانه على جميع خلقه.

تلك الليلة لم يرد تعيينها في الأحاديث الصحيحة، وكل ما ورد في تعيينها غير ثابت عن النبي ﷺ، وحتى لو ثبت تعيينه لا يجوز الاحتفال بها،؛ لأن الاحتفال بها لم يرد في الشرع.

على أنه لو كان الاحتفال بها من الدين الإسلامي، لم يغفله

النبي ﷺ، ولم يكتمه[1]؛ فما يفعله الناس اليوم لم يأذن به الله، لقوله تعالى:

﴿أم لَهُم شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِنَ الدين مَا لم يَأْذَن بِهِ اللهُ﴾ (الشورى: ٢١)

ومن البدع أيضا: الاحتفال بليلة النصف من شعبان؛ لأنه عمل ليس عليه أمر الله ولا أمر رسوله ﷺ؛ فيكون مردودا.

ومن البدع أيضا تخصيص يومها بالصيام، مع عدم وجود دليل يجوز الاعتماد عليه، وورد في فضلها أحاديث ضعيفة لا يجوز الاعتماد عليها.

وكذلك ما ورد في فضل الصلاة فيها، كله موضوع؛ فالذي عليه الجمهور إذن أن الاحتفال بها بدعة.

وهنا قاعدة يجب على المسلم مراعاتها، وهي أن الأحاديث الضعيفة إنما يعملُ بها في العبادات التي قد ثبت أصلها بأدلة صحيحة، أما الاحتفال بليلة النصف من شعبان، فليس له أصل صحيح حتى يستأنس له بالأحاديث الضعيفة.

---

[1] المصدر السابق لابن باز ص ٧ – ٩

وربما يتوهم هنا خروجنا عن الموضوع الأصلى، وهو حكم الاحتفال بموالد المشايخ، لكننا نود أن نقول إن هذا الاحتفال بالمشايخ لن يكون أغلى من الاحتفال بمولد النبي ﷺ، ولا الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج، ولا بليلة النصف من شعبان، وإذا ثبت خروج هذه الاحتفالات عن الشرع؛ فمن باب أولى يثبت خروج موالد المشايخ عنه.

فلا بد هنا من الصراحة، ولا بد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي جعله الله تعالى علامة فارقة بين الإيمان والنفاق.

لقوله تعالى:

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم من بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُم نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُم إِن الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

(التوبة – ٦٧)

وقد جرت عادة بعض المسلمين، إذا مات فيهم من يحسبونه صالحا، أن يتخذوا على قبره ضريحا، وأن يبنوا فوق الضريح قبة مشرفة، وأن يجعلوا منه مزارا، وأن

يحتفلوا بمولده مرة أو مرتين كل عام. يقول الشيخ محمد الغزالي:

"هذا العمل مزيج من بدعة ومعصية، ولا ريب أنه مخالفة كبيرة لتعاليم الإسلام [1]".

وقد تعددت موالد الصالحين في مصر، بطول البلاد وعرضها، وصارت أسواقًا مألوفة ومواسم معروفة، وكان أول من أحدثها بالقاهرة، الخلفاء الفاطميون ومعظمهم من الباطنية، بالقرن الرابع الهجري، وأبطلها الأفضل بن أمير الجيوش، ثم أعيدت في خلافة الحاكم بأمر الله عام ٥٢٤هـ، وصارت كلمة مولد رمزا على الفوضى والمساخر.

"والتقرب إلى الله بإقامة هذه الموالد، عبادة لا أصل لها بل إن من العصيان لله **ورسوله، اتخاذ مقابر الصالحين محورا لهذه الحشود، ومثابة لهذه الاحتفالات، حتى ولو كانت مبنية على القربات المحضة [2]".**

---

(1) ليس من الإسلام. ص٢٣٩

(2) نفس المرجع ص ٢٤٠

وإن الباطنية الذين أحدثوا بدعة "المشاهد" وضعوا في ذلك أحاديث تؤيد مذهبهم الباطل؛ لأنهم أساسا يقدسون أئمتهم، ويعجبون بقبورهم؛ وفي ذلك فتنة للعالم الإسلامي، ومعارضة مكشوفة لتعاليم الشريعة الإسلامية:

"أما ما يفعله أكثر الناس عند قبر النبي ﷺ، من دعائه والتضرع إليه وسؤاله بأنواع السؤال. وكذلك ما يفعله عباد القبور من دعاء الأموات والاستغاثة بهم في الشدائد والمُلمات والاستجداء بهم في تفريج الكربات وإغاثة اللهفات – كل ذلك من أعظم المحدثات وأكبر المنكرات؛ لأنه من الدعاء الذي هو مخ العبادة، التي هي حق الله تعالى"[1].

ومن المعلوم أن الطواف بأضرحة الموتى بدعة حقيقية؛ لأنه مضاهاة للطواف بالكعبة، ولا مانع في الإسلام من زيارة قبور الموتى، لكن بشرط التمسك بالسنة، وذلك بعدم تقديسها وشد الرحال إليها والطواف بها.

---

(1) ابن عتيق (سعد بن محمد بن عتيق المتوفى عام ١٣٤٩هـ): مجموعة الرسائل ص ١٨ طبع عام ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، دار الاعتصام بالقاهرة.

ولا يختلف عاقلان في أن الموالد صارت بدعة سيئة؛ لأنها من أخصب البيئات للمناكر البارزة والخفية، ومع هذا فإننا نجد بعض الباحثين يفلسف هذه المفاسد على أنها دلالة حياة. يقول الدكتور زكي مبارك:

"وقد اتفق الناس، على أن الموالد يكثر فيها الرجس والدنس والفنون، وهذا يؤيد ما نقول به: فالمفاتن والفواحش لا تنهض إلا حيث تنهض الحياة، والهدى لا يعلن عن الحياة كما يعلن الضلال [1]".

سبحان الله! أي حياة هذه التي لا قوام لها إلا بالمفاتن والفواحش والضلال، إن مثل هذا الكلام حين يصدر من العلماء يكون أشد شناعة من أفعال الجهال في الموالد، وفي كليهما فتنة وفاحشة وضلال.

إن هذه الموالد لو خلت من الفواحش، لوجب تعطيلها كذلك؛ لما فيها من تدين فاسد. فهناك حلقات الذكر التي لا تعدو الهوس، وهناك قرآن يتلى، وما ينتفع به تالٍ ولا سامع. أو كما يقول الشيخ محمد الغزالي عن الموالد:

---

[1] د. زكي مبارك: التصوُّف الإسلامي في الأدب والأخلاق ١: ٣٨٩

"في ساحتها الواسعة ينتشر الرقعاء دون خجل، ويختلط النساء بالرجال في المأكل والمنام، وكثيرا ما تقع جرائم الزنا واللواط، ويدخن الحشيش، وتُسمَعُ الأغاني والموسيقى الخليعة، وتختفي روح الجد وتقدير الأمور، لتدخل مكانها قلة الاكتراث، وقبول الدنايا كما تختفي النظافة من المساجد، وتضطرب الأوقات والجماعات [1]".

فهل يجدي نصح لدى هؤلاء! إن المسألة تحتاج إلى إلغاء هذه الموالد؛ لأن إثمها أكبر من نفعها، إن كان فيه منافع، لقد صارت هذه الساحة مصدر وباء استشرى لدى المسلمين، حتى صار سرطانه مجنونًا؛ وكل هذا من تلبيس الشيطان على المسلمين، فهو عدوهم اللعين.

ونحن نقدم لهؤلاء نصيحة إمام صوفي من أئمتهم العظام، حيث يقدم علاجا عن عظم ذنبه فيقول ابن القيم:

"الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها، والجهل بقدر من عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها، ففرحة بها غطى عليه ذلك كله، وفرحه بها أشد ضررا عليه

---

[1] ليس من الإسلام ص ٢٤١

من مواقعتها".

ثم ينبه على موقف المؤمن الحق فيقول:

"والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدا، ولا يكمل بها فرحه، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط قلبه، ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به".

ثم ينبه إلى وجوب يقظة القلب فيقول:

"ومتى خلي قلبه من هذا الحزن، واشتدت غبطته وسروره، فليتهم إيمانه، وليبكِ على موت قلبه، فإنه لو كان حيا لأحزنه ارتكابه للذنب، وغاظه وصعب عليه، ولا يحس القلب بذلك، فحيث لم يحس به، فما لجرح بميت إيلام".

ثم يقول عن أهمية هذه الفكرة:

"وهذه نكتة في الذنب، قل من يهتدي إليهـا، أو ينتبـه لها [(1)]".

وقد أشار الدكتور عبد الحليم محمود، إلى أن مولد الرسول ﷺ يجوز الاحتفال به، بشرط استعراض سنته،

[(1)] مدارج السالكين ١: ١٨٠ – ١٨١

والتذكير بدعوته، والاسترشاد بهديه، وأن يكون بالإكثار من العبادة والذكر والصدقة في سبيل الله تعالى.

ونقول: فهل يفعل معظم المسلمين هذه الآداب، أم أنهم ينشغلون بالطعام والحلوى والمجاملة الكاذبة؛ ولهذا يقول الدكتور عبد الحليم:

"ومما ينافي الاحتفال بهذه الذكرى: اختلاط النساء بالرجال، وانتشار المفاسد والموبقات، والإقبال على المحرمات، وما إلى ذلك [(1)]".

ثم يتحدَث عن الموالد بصفة عامة وإن كان لا يحرمها، فيقول:

"أما ما يحدث في الموالد اليوم من لهو صرف عن طاعة الله وطاعة رسوله ومقارفة للمعاصي، إلا قليلاً من المحافظين على حرمات دينهم، فلم يكن له وجود فيما مضى".

ثم يتحدث عن شيء من العلاج فيقول:

[(1)] فتاوى الإمام عبد الحليم محمود ٢٧٣ ط٢ ، ١٩٨٥ – دار المعارف بمصر

"والموالد بحاجة إلى رعاية وتقويم وفرض عقوبات على كل مستهتر بدينه، لا يرعى لله ولا لرسوله حرمة"[1].

وهكذا لم يختلف الدكتور عبد الحليم محمود في القول بمفاسد الموالد، مع القائلين بحرمتها ومنعها.

ويحسن هنا أن نورد فتوى الشيخ محمود شلتوت عن الموالد، الشيخ شلتوت لا يخرج عن مضمون القائلين بإبطالها وتحريمها؛ لما فيها من مفاسد، وسوف نرى ما في هذه الفتوى من صراحة وجرأة في سبيل الحق.

فهو يبدأ بالتعريف بالموالد، فيقول:

"الموالد: هي هذه الحفلات الصاخبة، أو المجتمعات السوقية العامة، التي ابتدعها المسلمون في عهودهم المتأخرة، باسم تكريم الأولياء، وإعلاء قدرهم ومكانتهم، عن طريق تقديم النذور والقرابين وذبح الذبائح، وإقامة حفلات الذكر، وعن طريق الخطب والقصص والمناقب والأناشيد، التي تصور حياة الولي، وتصف تنقله في معارج الولاية، وما

---

[1] نفس المرجع ١: ٢٧٤

يتحدث به الناس عنه، ويضاف إليه من كشف وخوارق وكرامات.

تقام تلك الحفلات لأولياء المدن، ولكثير من أولياء القرى، وقد تقام حفلة الميلاد في السنة الواحدة للولي الواحد مرتين فأكثر.

ولهذه الموالد على العموم عشاق يضعونها في مصاف الشئون الدينية، التي يتقربون بها إلى الله عن طريق الولي، فيحفظون تواريخها، ويهيئون طوال العام لها، حتى إذا ما حل وقتها تراهم يحزمون أمتعتهم، ويرحلون بقضهم وقضيضهم، برجالهم ونسائهم، بشيوخهم وشبانهم، ويلقون بأحمالهم – كما يقولون – على شيال الحمول صاحب المولد، تاركين بيوتهم ومصالحهم في قراهم ومزارعهم مدة تتراوح بين أسبوع وأسبوعين"[1].

ثم يقول عن المشايخ أصحاب الموالد إن منهم:

"من يعظم عند الناس جاهه، ويمتد في نظرهم سلطانه، ويتسع صدره لكل لون من ألوان الحياة، ولكل رغبة من

---

(1) فتاوى محمود شلتوت ص ١٩٣

رغبات الطوائف، حتى لقد نرى حفلات المقامرين والمقامرات، بجانب حفلات المدمنين والمدمنات، وبجانبها حفلات الذاكرين والذاكرات، والخليعين والخليعات، والراقصين والراقصات، ويجوس خلال الجميع المتسولون والمتسولات، والنشالون والنشالات وكل ذلك يصنع في الموالد وعليه تقام، وإليها يهرع الناس باسم الولاية وتكريم المشايخ"[1].

ثم يذكر ألوانًا أخرى من مفاسد هذه الساحات فيقول:

"إن بعض ما نراه ويراه كل الناس، من ألوان الفسوق وأنواع المخازي، وصور التهتك، والإسراف في المال يحتم على رجال الشئون الاجتماعية، وقادة الإصلاح الخلقي والديني، المبادرة بالعمل على إنهائها ووضع حد لمخازيها، وتطهير البلاد من وصمتها. ولقد صارت بحق – لسكوت العلماء عنها، ومشاركة رجال الحكم فيها – مباءة عامة تنتهك فيها الحرمات، وتراق في جوانبها دماء الأعراض، وتمسخ فيها وجوه العبادة، وتستباح البدع المنكرات، ولا يقف

---

[1] نفس المرجع ص ١٩٤

فيها أرباب الدعارة عند مظهر أو مظهرين من مظاهر الدعارة العامة، وإنما يبتكرون ويبتدعون ما شاء لهم الهوى من صور الدعارة المقوضة للخلق والفضيلة".

ثم يبدى حسرة شديدة، فيقول:

"ومن أشد ما يؤلم، أن نرى كثيرا من تلك المناظر الداعرة تطوق في المدن معاهد العلم والدين ومساجد العبادة والتقوى، على مسمع ومرأى من رجال الحكم ورجال الدين أرباب الدعوة والإرشاد"[1].

ويتحدث بعد هذا عن وضع الشموع والقناديل، على مقامات الأولياء، وما في ذلك من خروج على الشرع، فيقول:

"ينبغي أن يعرَفَ أولاً: أن الدين لا يعرف شيئًا يقال له: مقامات الأولياء، سوى ما يكون للمؤمنين المتقين عند ربهم من درجات، وإنما يعرف كما يعرف الناس، أن لهم قبورا، وأن قبورهم كقبور سائر موتى المسلمين، يحرم تشييدها وزخرفتها وإقامة المقاصير عليها وتحرم الصلاة فيها وإليها،

---

[1] المرجع نفسه ص ١٩٤ – ١٩٥

والطواف بها، ومناجاة من فيها، والتمسح بجدرانها، وتقبيلها والتعلق بها، ويحرم وضع أستار وعمائم عليها، وإيقاد شموع أو ثريات حولها".

ثم يقول عن حكم ذلك الذي يتهافت الناس عليه ويتسابقون إليه- على أنه قربة لله أو تكريم للولي – يقول إنه:

"خروج عن حدود الدين، وارتكاب لما حرمه الله ورسوله في العقيدة والعمل، وإضاعة الأموال في غير فائدة، وسبيل للتغرير بأرباب العقول الضعيفة، واحتيال على سلب الأموال بالباطل".

ويختم فتواه بهذه الصيحة:

"فمتى يتنبه المسلمون ويتقربون إلى الله، بما يرضاه الله، وتقرب به إليه أولياؤه الذين آمنوا وكانوا يتقون!"[1] .

ومن الحق والإنصاف، بعد ما ذكرناه من إجماع الآراء على أن الموالد مفسدة، مهما قيل من أن فيها مصالح – من الحق أن نشير هنا إلى أن مشيخة عموم الطرق الصوفية نفسها في مصر الآن، تعترف بأن موالد الأولياء بؤرة

---

[1] المرجع السابق ص ١٩٥

الانحراف والرذائل؛ ومن ثم فإنها قد أبلغت الجهات الحكومية، بضرورة حماية المجتمع من ذلك. فقد جاء عن هذه المشيخة ما نصه:

"تنقية التصوُّف من العادات والتقاليد الدخيلة: رأت المشيخة العامة، أن الجمود العلمي والفكري، الذي ساد العهود الماضية، قد أدخل على التصوُّف واحتفالاته ومواكبه، تقاليد وعادات وطقوسا، لا تتفق مع جلاله وكماله ورسالته.

فاتصلت بالجهات الحكومية المختصة، طالبة منها أن تمنع بسلطانها هذه العادات الدخيلة، والتقاليد الغريبة، والطقوس المدسوسة، من طبول وزمور وأزياء، ومن ملاهٍ وألعاب في ساحات موالد الأولياء.

واستجابت الحكومة مشكورة، وأصدرت وزارة الداخلية أوامرها إلى المحافظات والمديريات والأقسام، بالضرب بشدة على أيدي المفسدين والعابثين من الجهلاء والأدعياء.

ومن ثَمّ تطهرت الموالد من هذه المظاهر الزائفة، وعمرت ساحاتها بذكر الله ودعوة الإيمان"[1].

وربما حدث هذا عقب تنبيه المشيخة على الحكومة، لكن الواقع يشهد بأن الأمور عادت كما هي؛ مما يدل على أن الإصلاح لا يمكن أن يتم وسط هذه الجموع الحاشدة الساهرة تحت جنح الظلام، إلا بإلغاء هذه الموالد فعلاً بصورتها الراهنة.

ونرجو من مشيخة الطرق الصوفية، أن تعلم أن التصوُّف السني حق، لا يزعزعه إلغاء هذه الموالد، بل على العكس من ذلك، أن هذا الإلغاء سيعين على تنقية التصوُّف مما علق به علما وعملاً وسلوكًا.

---

(1) مشيخة عموم الطرق الصوفية: التصوُّف الإسلامي، رسالته ومبادئه، ماضيه وحاضره. ص ٦٠، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م ، مطابع دار الكتاب العربي بالقاهرة.

٧- المعرفة

الكشف الصوفي:

إن كل سالك لطريق التصوُّف، إنما سلك لهدف أو غاية، هي التقرُّب من الله عزَّ وجل، وقد يكتفي بعضهم بالمشاهدة، وقد يغالي البعض الآخر، فيدَّعى ما لا يجوز من الاتحاد بالذات العلية، لكن الجميع ينشدون الوصول إلى السعادة أو مشاهدة الله تعالى بقلوبهم.

وإذا كان الصوفية يرون السعادة في القرب من ربهم عزَّ وجل، فإن الفلاسفة من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا، يرون أنها في طلب العلم؛ لكي ترقى بها النفس.

والصوفية يرون أن الروح هي قبس من نور الله، وأن ذلك القبس الإلهي، حِبِسَ ضمن جدران أربعة، هي جدران العناصر، فمن الواجب إذن أن نضعف أمر هذا السجن، ونقلل من ضرورياته؛ ليقوى فينا الجانب الروحي، كذلك نظر بعضهم إلى النفس على أنها من الأمور التي يجب إخمادها من أجل تقوية الروح؛ كي تحصل على المعرفة الحقة، وهم في هذا يختلفون عن بعض فلاسفة اليونان مثل

"بروتاجوراس" الذي لا يعترف بأي شيء يصدر من غير الحواس، فهو لم يرَ إلا الحس وسيلة للمعرفة؛ لأن الإنسان بحواسه هو معيار معرفة الوجود[1].

فإذا ما انصرف المتصوُّف إلى إضعاف جسمه بالقضاء على نزعاته، فهو يخمد النفس، ويضعف أمرها، ويساعد في ذلك على تقوية الروح التي تحاول الاتصال بخالقها.

وإذا كان الفيلسوف الإشراقي، يعمد إلى درس ما أُثِرَ عن السابقين من علوم ومعارف، استعدادا لاستقبال العقل الفعال، فإن المتصوف يعمد إلى حياة الزهد والتقشف والتعبد، يجتاز المقامات والأحوال ليصل إلى خالقه.

ومن غير المرغوب فيه هنا، أن يسلك الصوفي طريقًا لا يعتمد على شيء من المبادئ العقلية والعلمية؛ إذ إنه من واجب الإنسان أن يطلب العلوم المنتشرة، ثم يأمل في وصول العلم الخارجي، هذا وربما ساعدته العلوم على بلوغ غايته في أقصر وقت وأقل مجاهدة[2].

---

(1) Yolton (J. W.): Metaphysical Analysis, George Allen and Unwin L T D , 1968 P. 84

(2) جبور عبد النور: التصوُّف عند العرب، من ص ٩٤ إلى ٩٨

وكان علماء التصوُّف، حريصين كل الحرص، على التفرقة بين العلم وبين المعرفة الصوفية الناتجة عن الكشف أو الذوق؛ ولهذا كانوا مسرورين بأنهم أخذوا علمهم عن الحي الذي لا يموت، بينما غيرهم من علماء الظاهر أو الرسوم، أخذوا علمهم ميتًا عن ميت[1].

وأول من تكلم في المعرفة الصوفية"معروف الكرخي" المتوفى عام ٢٠٠ هـ. وهو من أوائل الصوفية، والذي عرّف التصوُّف بقوله:

"**التصوف الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق** [2]" ومعناه: أن التصوُّف هو علم الحقائق الذوقية، التي تتكشف للصوفي، في مقابل الرسوم الشرعية. وهو أيضا زهد فيما يملكه الآخرون؛ وبذلك يكون التصوُّف عند الكرخي زهدا ومعرفة.

وفي قول الله تعالى:

﴿**وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَق قَدرِهِ**﴾

---

(1) Nicholson: The idea of Personality in Sufism Cambridge , 1923 , P. 9.

(2) الرسالة القشيرية ص ٢١٨ ط ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م ، صبيح

(الزمر: ٦٧)

يرى بعض المفسرين أن معناه: وما عرفوا الله حق معرفته[1]. وذهب القشيري نفسه، إلى أن المعرفة هي العلم، فكل علم معرفة، وكل معرفة علم، وكل عالم بالله تعالى عارف، وكل عارف عالم، وهذا على لسان العلماء.

أما عند الصوفية فالمعرفة: "صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته، ثم صدق الله تعالى في معاملاته، ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته، ثم طال بالباب وقوفه، ودام بالقلب اعتكافه، فحظي الله تعالى بجميل إقباله، وصدق الله تعالى في جميع أحواله، وانقطع عنه هواجس نفسه، ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره".

ثم يتحدث القشيري عن ثمرة ذلك فيقول:

"فإذا صار من الخلق أجنبيا، ومن آفات نفسه بريا، ومن المساكنات والملاحظات نقيا، ودام في السر مع الله تعالى مناجاته، وحق في كل لحظة إليه رجوعه، وصار محدثًا من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره فيما يجريه من تصاريف

---

(1) نفس المصدر ص ٢٤١

أقداره؛ يسمى عند ذلك عارفًا، وتسمى حالته معرفة. وفي الجملة: فبمقدار أجنبيته عن نفسه، تحصل معرفته بربه عزَّ وجل[1]".

وقد تكلم الصوفية في المعرفة، فكل نطق بما وقع له، وأشار إلى ما وجده في ذمته. ومن ذلك قول الدقاق:

"من أمارات المعرفة بالله حصول الهيبة من الله تعالى، فمن ازدادت معرفته، ازدادت هيبته[2]".

كذلك كان يرى أن المعرفة توجب السكينة في القلب، كما أن العلم يوجب السكون، فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته.

ويرى الشبلي أنه ليس لعارف علاقة، وأن المعرفة أولها الله تعالى، وآخرها ما لا نهاية له[3].

والمعرفة توجب غيبة العبد عن نفسه، لاستيلاء ذكر الحق سبحان عليه، فلا يشهد غير الله عزَّ وجل، ولا يرجع إلى

---

(1) القشيرية ص ٢٤١ - ٢٤٢

(2) نفس المصدر ص ٢٤٢

(3) نفس المكان.

غيره، وكما أن العاقل يرجع إلى قلبه وتفكره وتذكره فيما يسنح له من أمر، أو يستقبله من حال، فالعارف رجوعه إلى ربه، فإذا لم يكن مشتغلاً إلا بربه عزَ وجل، لم يكن راجعا إلى قلبه.

وسئِلَ أبو يزيد البسطامي عن المعرفة[1]، فقال:

قال الله تعالى:

﴿إِن الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزةَ أَهْلِهَا أَذِلةً﴾

(سورة النمل: ٣٤)

وهو يقصد بالقرية هنا قلبه، أي أن قلبه لم يدخل فيه سوى معرفة الله عزَ وجل؛ لأنه كان يرى أن العارف محيت رسومه وفنيت هويته بهوية غيره، وهو الله تعالى.

ويرى القشيري أن الأقوال التي قيلت هنا في المعرفة، هي أقوال الذين بعد مرماهم في المعرفة، أما من نزلوا عن هذا الحد، فقد تكلموا في المعرفة وأكثروا.

---

[1] القشيرية ص ٢٤٢

كقول أحمد بن عاصم الأنطاكي: "**من كان بالله أعرف كان له أخوف**" وقال غيره: "**من عرف** الله **تعالى تبرَم بالبكاء، وضاقت عليه الدنيا بسعتها**".

وقيل أيضا: "**من عرف** الله **تعالى، صفا له العيش، وطابت له الحياة، وهابه كل شيء، وذهب عنه خوف المخلوقين، وأنس** بالله **تعالى**".

وقيل: "**المعرفة توجب الحياء والتعظيم، كما أن التوحيد يوجب الرضا والتسليم**".

وقال سهل بن عبد الله: "**المعرفة غايتها شيئان: الدهش والحيرة**[1]".

وسِئلَ أبو يزيد: بماذا وجدت هذه المعرفة؟ فقال: "**ببطن جائع وبدن عار**".

وسِئلَ أبو يعقوب السنوسي: هل يتأسف العارف على شيء غير الله عزَ وجل؟ فقال: وهل يرى غيره فيتأسف عليه؟! وسِئلَ: فبأي عين ينظر إلى الأشياء؟ قال: بعين الفناء والزوال.

(1) انظر هذه النصوص بالرسالة القشيرية، ص ٢٤٣

وقال الجنيد: لا يكون العارف عارفًا حتى يكون كالأرض يطؤه البرُ والفاجر، كالسحاب يظل كل شيء، وكالمطر يسقي ما يحب وما لا يحب.

وقال يوسف بن علي: "لا يكون العارف عارفًا حقًا، حتى لو أُعطِي مثل ملك سليمان عليه السلام، لم يشغله عن الله عزَ وجل طرفه عين".

وقيل لذى النون المصري: بم عرفت ربك؟ قال: **"عرفت ربي بربي، ولولا ربي لما عرفت ربي".**

وقيل: العالم يقْتَدى به، والعارف يهتَدَى به[1].

ومن الملاحظ أن الصوفية هنا يسعون من وراء المعرفة الصوفية إلى إثبات الوحدة المطلقة في هذا العالم، حيث

---

(1) انظر هذه الأقوال بالرسالة القشيرية، ص ٢٤٤، وهناك أقوال أخرى عن المعرفة، ص ٢٤٥، ٢٤٦، وانظر أيضا د. أبو الوفا التفتازاني: مدخل إلى التصوُف الإسلامي، ص١٠٠ - ١٠٢

تتلاشى الكثرة وتئول إلى العدم، ولا يبقى الوجود الحقيقي إلا لله عزَّ وجل[1].

وأشار أستاذنا الدكتور محمد كمال جعفر، إلى أن المعرفة الصوفية تتصل بالتجربة، أكثر من اتصالها بالفكر والنظر والتأمل، وأن لهذه المعرفة صفتين:

الصفة الأولى أنها:

"مباشرة وليست عن طريق وسائط عادية من وسائل التعليم المعروفة".

ثم يجيب عن شبهة تتعلق هنا بهذه المعرفة، وهي أنها لا تخضع لأي قانون علمي معروف، وأنه لا مجال إذن لضبطها أو تقويمها – يجيب بأن كونها مباشرة لا يقْصد به سوى أن الصوفي لم يتلقَها عن النقل والسماع، أو التعلم النظري؛ فهو هنا قد وجد، لا قد علم.

أما الصفة الثانية لهذه المعرفة فهي أنها:

---

(1) د. محمد السيد الجليند: من قضايا التصوُّف في الكتـاب والسنة ص ١٤٦.

"متجددة؛ ومن ثَم فهي متغيرة، مما يدل على أن هذه المعرفة تعكس وجهة نظر الصوفي، أكثر مما تصوُر الحقيقة في كمالها وتمامها"[1].

ولعل الصوفية هنا ينظرون إلى أن الإنسان حين يترقى روحيا، قد ينال علما مثل علم الملائكة الذي لا مجال فيه للكسب[2]:

﴿سُبحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلمتَنَا﴾

(البقرة: ٣٢)

وكان للإمام الغزالي في أول تصوُفه موقف جدير بالتسجيل هنا، فهو حين تشكك في العلوم النظرية، حاول لذلك الشك علاجا فلم يستطع:

---

[1] د. محمد كمال جعفر: التصوُف طريقًا وتجربةً ومذهبا.ص ٢٠٠

[2] الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): مقال في الإنسـان – دراسـة قرآنيـة. ص ٤١، طبـع ١٣٨٩هـ ـ - ١٩٦٩ م، دار المعارف بمصر

"إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل، ولم يكن نصب الدليل إلا من تركيب العلوم الأولية، فإذا لم تكن مسلمة، لم يمكن تركيب الدليل".

وقد اشتد أمرُ هذا المشكل عليه، ما يقرب من شهرين، رأى أنه فيهما على السفسطة بحكم الحال، لا بحكم المقال.

لكن الله تعالى، شفاه من هذا الداء، وعادت نفسه إلى الصحة والاعتدال، وصارت الضروريات العقلية عنده مقبولة وموثوقًا بها على أمر ويقين. ثم يقول:

"ولم يكن ذلك بنظم دليل، وترتيب كلام. بل بنور قذفه الله تعالى، في الصدر، وذلك النور هو مفتاح أغلب المعارف. فمن ظنَ أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة[1]".

أما مستند الغزالي في هذا الكشف أو هذه المعرفة الصوفية، فهو: أنه لما سئِلَ رسول الله ﷺ عن (الشرح) ومعناه في قوله تعالى:

﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهدِيَهُ يَشْرَح صَدرَهُ لِلإسلاَمِ﴾

---

(1) المنقذ من الضلال ص ٩٣ تحقيق/ د. عبد الحليم محمود.

(الأنعام: ١٢٥).

قال: **هو نور، يقذفه الله تعالى، في القلب".**

فقيل: وما علامته؟

قال: **"التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود[1]".**

وهذا دليل على أن التصوُّف لا يكون إلا في النفس، وفي النفس عوالم كثيرة بعضها أشد من البعض عمقًا وخطرا[2]. ومن هنا فإن التصوُّف يشكل أصولاً قوية لتأسيس علم النفس الإسلامي، ومن المقرر اليوم أن العلوم النفسية والاجتماعية، لم تستطع أن تعطي تفسيرا مقنعا لظاهرة التصوُّف؛ نظرا لتركيز هذه العلوم على المظاهر المادية وما تدل عليه من مؤشرات روحية[3].

والمراد بالنفس عند الصوفية:

---

(1) نفس المكان.

(2) د. زكي مبارك: التصوُّف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ١: ٣٣

(3) Underhill: Mysticism, London, 1949, P. 44

"ما كان معلولاً من أوصاف العبد، مذموما من أخلاقه وأفعاله، سواء كان ذلك كسبيا أو خلقيا، فهو شديد اللائمة لها[1]**".**

وقد أجمع الصوفية سابقهم ولاحقهم، ومحققهم ومبطلهم على أمر واحد يتعلق بهذه النفس وهو:

"أن النفس حجاب بين العبد وبين الله، وأنه لا يصل إلى الله حتى يقطع هذا الحجاب. كما قال أبو يزيد: رأيت رب العزة في المنام، فقلت يارب، كيف الطريق إليك؟ فقال: خل نفسك وتعالى[2]**".**

وسئِلَ الخرَّاز عن مصدر المعرفة، فقال: المعرفة تأتي من وجهين: من عين الجود، وبذل المجهود. أي أن بعضها هبة من الله تعالى، وبعضها اكتساب.

وذهب أحمد بن عطاء الله، إلى أن المعرفة معرفتان: **معرفة الحق**، وهي معرفة وحدانية الله تعالى، على ما أبرز للخلق من الأسامي والصفات، **ومعرفة الحقيقة**، وهي

---

(1) ابن القيم: مدارج السالكين ٢: ٦

(2) نفس المصدر ٢: ٧

لا سبيل إليها؛ لامتناع الصمدية وتحقيق الربوبية، لقوله عزَّ وجل:

﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْما﴾

(سورة طه: ١١٠)

ومعنى لا سبيل إليها: يعني إلى المعرفة على الحقيقة؛ لأن الله تعالى أبرز لخلقه من أسمائه وصفات ما علم أنهم يطيقونه، لان حقيقة معرفته لا يطيقها الخلق، ولا ذرة منها؛ لأن الكون بما فيه يتلاشى، عند ذرة من أول بادٍ يبدو من بوادي سطوات عظمته؛ ولذا قيل:

"ما عرفه غيره، ولا أحبه سواه، لأن الصمدية مانعة عن الإحاطة والإدراك[(1)]".

لقوله تعالى:

﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ من عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ﴾

(البقرة: ٢٥٥)

وقد حكي في هذا المعنى قول أبي بكر الصديق ﵁:

---

(1) الطوس: اللمع ص ٥٦

"سبحان من لم يجعل للخلق طريقًا إلى معرفته، إلا بالعجز عن معرفته[1]".

وسئِلَ الشبلي: متى يكون العارف بمشهد من الحق؟ فقال: إذا بدا الشاهد، وفني الشواهد، وذهب الحواس، واضمحل الإحساس.

وقال أيضا: بدؤه معرفته، وانتهاؤه توحيده.

وقال كذلك: من علامة المعرفة، أن يرى نفسه في قبضة العزة، ويجري عليه تصاريف القدرة، ومن علامة المعرفة، المحبة؛ لأن من عرفه أحبه[2].

وهذه النصوص والشواهد، تؤكد أن هذا النوع من المعرفة إنما هو موهبة من الله تعالى؛ نتيجة التزهد والتعبد وتصفية النفس، وأنه أيضا لا يدرك إلا بالذوق أو الوجدان.

ولا يصل إلى هذا العرفان من الصوفية إلا من بلغ درجة عالية في سلم الطريق؛ وهنا يمكنه الحصول على معرفة

---

(1) نفس المصدر ص ٥٧

(2) نفس المكان

مباشرة بغير وسائط من مقدمات أو قضايا أو براهين، وهذا هو الكشف الصوفي[1].

ويرى بعض الصوفية، أن المعرفة الصحيحة لها طريقان:

الأول: طريق البرهان بالنظر والاستدلال، والظفر بالمعرفة من هذا الطريق وحده، إما متعذر مطلقًا، أو في أكثر الأمور.

والآخر: طريق العيان الحاصل لذوي الكشف بتصفية الباطن والالتجاء إلى الحق، وهذا هو الطريق المتعين للمعرفة؛ لما فيه من التوجه إلى الحق بالافتقار التام، وتفريغ القلب بالكلية من سائر التعلقات الكونية، ومن هنا وجب على من سلك هذا الطريق أن يتبع من سبقه من الكُمل سالكي الطريق. وفي هذا يقول القونوي:

"فمن خاض لُجة الوصول، وفاز بنيل البغية والمأمول، كالرسل صلوات الله عليهم، الذين جعلهم الحق تعالى تراجمة أمره وإرادته ومظاهر علمه وعنايته، وما كملت وراثته منه علما وحالاً ومقاما، عساه سبحانه يجود بنود

---

[1] د. بدوي: تاريخ التصوُّف الإسلامي. من ص ١٤ إلى ٢١

كاشف يظهر الأشياء كما هي، كما فعل ذلك بهم وبتباعهم من أهل عنايته، والهادين المهتدين من بريته[1]".

وأشار ابن القيم إلى أن أعلى أنواع السماح لأرباب الرياضات، أن يخاطبه الملك خطابا جزئيا، وأن هذا يقع لغير الأنبياء، فقد كانت الملائكة تخاطب عمران بن حصين بالسلام، فلما اكتوى (أي استعمل الكي بالنار) تركت خطابه، فلما ترك الكي عاد إليه الخطاب الملكي[2].

والمعرفة بهذه الصورة الصوفية، على العكس تماما من المعرفة عند أرسطو؛ لأن المعرفة عنده أصبحت مجالاً هدفه الكشف عما هو كامن في الطبيعة بواسطة الحواس[3].

وإن كثيرا من أصحاب الخيالات والجهالات يقولون: "حدَثني قلبي عن ربي". فصحيح أن قلبه حدثه، ولكن عن

---

(1) القونوي (أبو المعالي صدر الدين): إعجـاز البيـان فـي تأويـل أم القرآن. ص ١٢٢ وانظر قبلها ١٢١، دراسة وتحقيق/عبد القادر أحمد عطا، ١١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م، دار الكتب الحديثة بالقاهرة.

(2) مدارج السالكين ١: ٤٥

(3) Carnford (F. M.): Before After Socrates Cambridge, 197 , P. 89

شيطانه؛ لأنه في هذه الحالة يسند الحديث إلى من لم يعلم أنه حدّثه به، وذلك كذب.

ولم يفعل هذا عمر بن الخطاب، مع أنه من المحدثين. وقال هو في الكلالة: "أقول فيها برأيي "فإن يكن صوابا فمن الله، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان" هذا مع أن الاتحادي والحلولي والإباحي الشطاح، مجاهر بالقحة والفرية؛ حيث يقول: حدثني قلبي عن ربي[1].

وهناك شبهة وقع فيها بعض الصوفية أيضا، وهي كالسم الناقع، حيث إنها تخرج صاحبها من المعرفة والدين، كإخراج الشعرة من العجين.

وتوضيح هذا: أن أحكام العلم تتعلق بالعلم وتدعو إليه، كما أن أحكام الحال تتعلق بالكشف الصوفي، فإذا ورد على صاحب الحال أمور ليست في إمكان العلم، فأقام عليها ميزان العلم ومعياره، تعارض عنده العلم والحال، فلا يجد مفرا من أن يحكم بالإبطال على واحد منهما، وفي هذا يقول ابن القيم:

---

[1] المصدر نفسه ١: ٤٠.

"فمن حصلت له أحوال الكشف، ثم جنح إلى أحكام العلم، فقد رجع القهقري، وتأخر في سيره إلى وراء[1]".

ومع وجوب الحذر من الشبهة السابقة وأمثالها، فإنه مما يجب أن يعلم هنا، أن هناك مرتبة حقيقية تسمى "مرتبة الإفهام" وقد استنبطها الصوفية من قوله تعالى:

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيمَانَ إِذْ يَحكُمَان فِي الْحَرثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَومِ وَكُنا لِحُكْمِهِم شَاهِدِينَ، فَفَهمنَاهَا سُلَيمَانَ وَكُلاًّ آتَينَا حُكْما وَعِلْما﴾

(سورة الأنبياء: ٧٨ – ٧٩)

فذكر الله سبحانه وتعالى، هذين النبيين الكريمين، وأثنى عليهما بالعلم والحكم، وخصَّ سليمان بالفهم في هذه الواقعة المعينة.

وقال علي بن أبي طالبﷺ وقد سئِلَ: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال:

"لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه، وما في هذه الصحيفة" وكان فيها العقل،

---

[1] المصدر نفسه ٢: ١٠٠

وهو الديات، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر[1]".

وفي كتاب عمر بن الخطاب﵁، لأبي موسى الأشعري﵁: **"والفهم الفهم فيما أدلي إليك".**

فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه الله في قلبه يعرف به، ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه؛ فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه، وفهم أصل معناه. يقول ابن القيم رحمه الله تعالى:

"فالفهم عن الله ورسوله: عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوتت مراتب العلماء، حتى عُدَّ ألف بواحد[2]".

ثم يشير إلى فهم ابن عباس ﴿**إِذَا جَاءَ نَصرُ اللهِ وَالْفَتْحُ**﴾ وما خُصَّ به ابن عباس من فهمه منها: أنها نعي الله سبحانه نبيه إلى نفسه، وإعلامه بحضور أجله وموافقة عمر له على ذلك، وخفائه عن غيرهما من الصحابة، مع أن ابن عباس حينذاك كان أحدثهم سنًا.

---

[1] المصدر السابق "مدراج" ١: ٤١

[2] نفس المكان.

إن هذا نابع من الفهم الخاص، الذي ربما دق حتى وصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع النص إلى غيره وأما في حق صاحب الفهم، فلا يحتاج مع النصوص إلى سواها.

***

ويرى ابن عربي في المعرفة، أن العلم بالله تعالى ليس له حدود يتوقف عندها، بل يمكن الاستزادة منه دائما فهو يقول:

"العلم بالله، ما له غاية في العارف يقف عندها، بل هو العارف في كل زمان يطلب الزيادة من العلم به ﴿ **رب زدني علما** ﴾ – سورة طه: ١١٤ – فالأمر لا يتناهى من الطرفين[1]".

غير أن ابن عربي يعود ليبالغ في الحديث عن قلب العارف، بما يعتَرَض به عليه؛ فهو يقول في الفص الإسحاقي:

---

[1] ابن عربي: فصوص الحكم. ص ١٢١، تعليق ودراسة وتحقيق: د أبو العلا عفيفي ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ هـ ـ، دار إحيـاء الكتـب العربي عيسى البابي الحلبي بالقاهرة.

"يقول أبو يزيد في هذا المقام: لو أن العرش وما حواه مائة ألف ألف مرة، في زوايا قلب العارف، ما أحس بها".

ثم يذكر ابن عربي، أن هذا وسع أبي يزيد في عالم الأجسام، أما عند ابن عربي نفسه، فإن الكون وما وراء الكون، يمكن أن يتعلمه قلب العارف بسهولة، فيقول ابن عربي:

"بل أقول: لو أن ما لا يتناهى وجوده، يقدر انتهاء وجوده مع العين الموجدة له، في زاوية من زوايا قلب العارف، ما أحس بذلك في علمه، فإنه قد ثبت أن القلب وسع الحق، ومع ذلك ما اتصف بالري، فلو امتلأ ارتوى[1]".

وهذه مبالغة قد تكون مقبولة لدى ابن عربي، ومن هم على منهاجه. لكن الغلو يضر بالمسلمين، ويصرفهم غالبا عن التكليف، وقد وردت "صفات العارف[2]" لدي بعض الصوفية، لكن بصورة معتدلة، نختار أمثلة منها كما يلي:

---

(1) نفس المصدر ٨٨

(2) الطوسي: اللمع من ص ٥٧ إلى ٦٣

قال يحيي بن معاذ:

"الدنيا عروس، ومن يطلبها ماشطتها، والزاهد فيها: يُسخم وجهها، وينتف شعرها ويخرق ثوبها، والعارف بالله مشتغل بسيده لا يتلفت إليها".

وقال ذو النون المصري:

"علامة العارف ثلاث: لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يعتقد باطنًا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم، ولا يحمله كثرة نعم الله تعالى عليه وكرامته على هتك أستار محارم الله تعالى".

وقال بعض الصوفية:

"ليس بعارف من وصف المعرفة عند أبناء الآخرة، فكيف عند أبناء الدنيا؟".

أما الطوسي نفسه الذي أورد هذه الأقوال، فيذكر من صفات العارف:

"أن يكون وقت العبد وقتًا واحدا بلا تغيير، ويكون العبد في جميع أحواله بالله ولله، مأخوذًا عما سوى الله، فعند ذلك

يكون هذا حاله"[1].

ويرى أن الفرق بين المؤمن وبين العارف ما يلي:

١- أن المؤمن ينظر بنور الله، والعارف ينظر بالله عزَّ وجل.

٢- للمؤمن قلب، وليس للعارف قلب.

٣- قلب المؤمن يطمئن بالذكر، ولا يطمئن العارف بسواه.

***

أن العارفين بالله تعالى، يندرجون في سلك الغرباء، الذين امتدحهم النبي ﷺ، بقوله:

"بدأ الإسلام غريبا، وسيعود كما بدأ غريبا فطوبى للغرباء".

(رواه مسلم وأحمد وابن ماجه)

والمراد هنا الغربة الباطنة، غربة الهمة، وهي غربة العارفين بين الخلق كلهم، وهؤلاء الغرباء هم المذكورون في قوله تعالى:

---

[1] اللمع، ص ٦٢، وانظر ص ٦٣

﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾

(سورة هود: ١١٦)

يقول أحمد بن عاصم الأنطاكي (وقد عاش في أوائل القرن الثالث الهجري) في هذه المسألة:

"إني أدركت من الأزمنة زمانًا، عاد فيه الإسلام غريبا كما بدأ، وعاد وصف الحق فيه غريبا كما بدأ، أن ترغب فيه إلى عالم وجدته مفتونًا بحب الدنيا، يحب التعظيم والرئاسة، وأن ترغب فيه إلى عابد وجدته جاهلاً في عبادته مخدوعا صريعا غدره إبليس، قد صعد به إلى أعلى درجة عبادة، وهو جاهل بأدناها، فكيف بأعلاها؟ وسائر ذلك من الرعاع، همج عوج، وذئاب مختلسة، وسباع ضاربة، وثعالب ضوار! "[1].

---

[1] ابن رجب الحنبلي (٧٣٦ – ٧٩٥ هـ): كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة، ص ٢٣، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، نشر المكتبة القيمة بحدائق القبة بالقاهرة.

سبحان الله! لقد كنا نظن ذلك حادثًا في القرن الخامس عشر الهجري لكن تبين أنه منذ القرن الثالث!

موقف الصوفية من العلم:

إن موقف الإسلام من العلم واضح كل الوضوح؛ إذ هو يشجع على العلم النافع للدنيا والآخرة. وقال الله تعالى:

﴿يَرفَعِ اللهُ الذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَالذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾

(المجادلة - ١١)

فوعد عز وجل المؤمنين أن يرفعهم،ثم خصَ العلماء منهم بفضل الدرجات. وفي قوله تعالى:

﴿إنمَا يَخْشَى اللهَ مِن عِبَادِهِ﴾

(فاطر – ٢٨)

أعلم سبحانه أنه إنما يخشاه العلماء به.

وقال علي رضي الله عنه:**"للعلم قفل، مفتاحه السؤال".**

وقال الإمام أحمد بن حنبل: "ربما مكثت في المسألة ثلاث سنين قبل أن أعتقد فيها شيئًا"[1].

وكان الإمام الغزالي يتمثل بقول عيسى ﵇، حين قيل لعيسى من أدّبك؟ فقال:

"ما أدبني أحد، ولكن رأيت جهل الجاهل فاجتنبته "[2].

ومعناه أن المؤمن الحق، لا يقلد الجهلاء، لكن يحاول تلافي عيوبهم، وخصوصا تقصيرهم في حق الله عزّ وجل.

والعلماء أشد الناس عرضة لفتنة الرياء؛ حيث يتعرّض العالم لتعظيم الناس له، وربما غضب على من انتقده، ولذا قال بعضهم.

"العزلة بدون عين العلم زلة، وبدون زاي الزهد علة"[3].

---

(1) ابن الجوزي: مناقب الإمـام أحمـد بـن حنبـل ص ٢٦٩. ط٢، ١٩٧٧ م، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

(2) الغزالي (الإمام): بداية الهداية ص ١٢٦. تحقيق د. عبـد الجليـل شلبي.

(3) العـاملي: الكشـكول ١: ٦ تحقيـق/ طـاهر أحمـد الـزاوي ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م – دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة.

فالناقص لو اطلع على نقصه لكان كاملاً، ولا سيما إذا كان من العلماء.

"والعلماء بعد الأنبياء تشفع، مجالسهم تفيد الحكمة، وبأعمالهم ينزجر أهل الغفلة، هم أفضل من العُباد، وأعلى درجة من الزُهاد، حياتهم غنيمة، وموتهم مصيبة"[1].

وذكر ابن حزم من فوائد العلم فائدة هامة، هي شغل الإنسان عن الوساوس والأفكار المضنية، فقال:

"لو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به، إلا أنه يقطع المشتغل به عن الوساوس المضنية، ومطارحة الآمال التي لا تفيد غير الهم، وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس، لكان ذلك أعظم داعٍ إليه، فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره"[2].

ولم يفت الصوفية أن يؤكدوا على فضل العلم بصفة عامة يقول سفيان بن عينية:

---

(1) الآجري (توفي ٣٦٠ هـ) أخلاق العلماء، ص ٧، دار الكتاب العربي.

(2) ابن حزم (٣٨٤ – ٤٥٦ هـ): الأخلاق والسير في مداواة النفوس. ص٢١، ط٢، ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

"أول العلم حسن الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر"[1].

وقال الكعبي المعتزلي لبعض الصوفية:

"رأيت لكم ببغداد شيخًا يقال له الجنيد، ما رأت عيني مثله؛ كان الكتبة يحضرونه لألفاظه، والفلاسفة لدقة كلامه، والشعراء لفصاحته، والمتكلمون لمعانيه، وكلامه ناء عن فهمهم"[2].

واهتمَ مؤلفو كتب التصوُف من الصوفية أنفسهم بالحديث عن العلم. ويروون قوله ﷺ:

"طلب العلم فريضة على كل مسلم ".

(رواه البيهقي في شعب الإيمان، وابن عبد البر في العلم، عن أنس بن مالك).

---

[1] المحاسبي (أبو عبد الله الحارث بن أسد، المتوفى عام ٢٤٣هـ): الرعاية لحقوق الله عزَ وجل ص ٢١، راجعه وقـدم لـه: د عبـد الحليم محمود، وطه عبد الباقي سرور. دار الكتب الحديثة بالقاهرة "بدون تاريخ.

[2] ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٢: ٢٢٩، القاهرة، ١٣٥٠ هـ.

وفي العلم النافع يستشهدون بقوله تعالى:

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ﴾

(البقرة – ١٠٢)

ويقول النبي ﷺ:

"اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وعمل لا يرفع، ودعاء لا يسمع".

(رواه أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، عن أنس)

وكذلك حديث:

"المتعبد بلا فقه كالحمار في الطاحونة"

(رواه أحمد في مسنده عن وائلة)

لأنه مهما يدور يظل في مكانه، لا يقطع أي طريق؛ ولذا كان هناك طائفتان على باطل: طائفة فضلت العلم، وأخرى فضلت العمل على العلم؛ ولهذا قال أنس بن مالك رضي الله عنه:

"همُّ العلماء الدراسة، وهمة السفهاء الرواية"[1].

---

[1] الهجويري: كشف المحجوب ص ٢٠٥، وانظر ما قبلها.

وأشار ابن الجوزي في هذا المقام، إلى تلبيس إبليس على فريق من الزهاد، حيث أعرضوا عن العلم؛ شغلاً بالزهد. فهم قد استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، ويعلل ابن الجوزي ذلك بقوله:

"إن الزاهد لا يتعدى نفعه عتبة بابه، والعالم نفعه متعد وكم قد رد إلى الصواب من متعبد"[1].

وإن بعض الزهاد يلبس عليهم إبليس، من ناحية جهلهم وقلة علمهم؛ إذ إنهم يعملون بواقعاتهم، ولا يلتفتون إلى قول الفقيه.

وكان أبو اسحق الخرَاز، صالحا، وكان من عادته الإمساك عن الكلام في شهر رمضان؛ فكان يخاطب بآي القرآن فيما يعرض إليه من الحوائج، فيقول في إذنه:

﴿ادخُلُوا عَلَيهِمُ الْبَابَ﴾ (المائدة – ٢٣)

ويقول لابن في عشية الصوم:

﴿ مِن بَقْلِهَا وَقِثائِهَا ﴾

(البقرة – ٦١)

---

(1) تلبيس إبليس، ص ١٥٠

آمرا له أن يشتري البقل. فقال له ابن عقيل: هذا الذي تعتقده عبادة، هو معصية. فصعب عليه.

فقال ابن عقيل: أن هذا القرآن العزيز أنزل في بيان أحكام شرعية، فلا يستعمل في أغراض دنيوية. فيكون مثل توسد المصحف. فهجره الخرّاز ولم يصغ إلى حجته.

وربما سمع الزاهد ذو العلم القليل، أشياء من عامة الناس فيفتي بها، وقد أفتى أحدهم بأن المطلقة ثلاثًا تحل لزوجها إذا ولدت مولودا ذكرا؛ وفي ذلك تحليل للحرام. وهكذا يصنع الجهل بأهله، بالإضافة إلى حفظ الجاه، خوفًا أن يرى الزاهد بعين الجهل، وكما يقول ابن الجوزي:

"وقد كان السلف ينكرون على الزاهد، مع معرفته بكثير من العلم، أن يفتي؛ لأنه لم يجمع شروط الفتوى. فكيف لو رأوا تخبيط المتزهدين اليوم في الفتوى بالواقعات"[1].

والواقعات: ما هم عليه من الواقع في الزهد.

وعن إسماعيل بن شبة، قال دخلت على أحمد بن حنبل، وقد قَدِمَ أحمد بن حرب من مكة، فقال لي أحمد بن حنبل: من

---

[1] المصدر نفسه، ص ١٥٨

هذا الخراساني الذي قد قَدِمَ. قلت: من زهده كذا وكذا، ومن ورعه كذا وكذا. فقال: لا ينبغي لمن يدَّعى ما يدَّعيه، أن يدخل نفسه في الفتيا.

وربما وقع بعض الزهاد في إثم، هو احتقار العلماء وذمهم، فهم يقولون إن المقصود هو العمل، ولا يفهمون أن العلم نور القلب.

وكان ينبغي أن يعرفوا أن مرتبة العلماء في حفظ الشريعة، هي مرتبة الأنبياء، وأن العلماء هم أدلة الطريق، والخلق وراءهم.

وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه:

"**والله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدا، خير لك من حمر النعم**".

وكثيرا ما يعيب الزهاد، موقف العلماء الذين يتفسحون في بعض المباحات، التي يتقوون بها على دراسة العلم، وكذلك يعيبون بعضهم؛ بسبب جمعه الأموال. ويقول ابن الجوزي ناقدا لهم:

"ولو فهموا معنى المباح، لعلموا أنه لا يُذمُ فاعله، وغاية الأمر أن غيره أولى منه. أفيحسن لمن صلى الليل، أن يعيب على من أدَى الفريضة ونام[1]"؟!

ويحكي أن حاتم الأصم، دخل المدينة المنورة؛ ليخاصم العلماء هناك. فلم دخل المدينة، قال: يا قوم، أي مدينة هذه؟ قالوا: مدينة الرسولﷺ. قال. فأين قصر رسول الله ﷺ، حتى أذهب إليه فأصلي ركعتين. قالوا: ما كان لرسول الله ﷺ قصر إنما كان بيت لائط (طين) قال فأين قصور أهله وأصحابه وأزواجه؟ قالوا: ما كان لهم قصور، وإنما كان لهم بيوت لائطة.

فقال حاتم: فهذه مدينة فرعون؛ فسبوه وذهبوا به إلى الوالي. وقالوا: هذا العجمي يقول: هذه مدينة فرعون. فقال الوالي: لم قلت ذلك. قال حاتم:

لا تعجل عليَ أيها الأمير، أنا رجل غريب دخلت هذه المدينة، فسألت أي مدينة هذه؟ قالوا: مدينة رسول الله ﷺ،

---

(1) تلبيس إبليس، ص ١٥٨

وسألت عن قصر رسول الله ﷺ وقصور أصحابه، قالوا: إنما كانت لهم بيوت لائطة. وسمعت الله عزَ وجل يقول:

﴿لَقَد كَانَ لَكُم فِي رَسُولِ اللهِ أُسوَةٌ حَسَنَةٌ﴾

(الأحزاب – ٢١)

فأنتم بمن تأسيتم: برسول الله ﷺ، أو بفرعون. أ هـ

ولابن الجوزي تعليق على هذا الموقف الذي وقفه حاتم، حيث يقول:

"الويل للعلماء من الزاهد الجاهل، الذي يقتنع بعلمه، فيرى الفضل فرضا؛ فإن الذي أنكره شيء مباح، والمباح مأذون فيه، والشرع لا يأذن في شيء، ثم يعاقب عليه، فما أقبح الجهل! ولو أنه قال لهم: لو قصرتم فيما أنتم فيه، لتقتدى الناس بكم. كان أقرب إلى حاله[1]".

ومما يجب أن يعلمه مدَعو التزهد، أن عبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وعبد الله بن مسعود، رضوان الله عليهم، وغيرهم من الصحابة، خلفوا مالاً عظيما.

---

[1] المصدر نفسه، ص ١٦٠

وقد اشترى تميم الداري – وهو صوفي – حلة بألف درهم، وكان يقوم فيها بالليل.

وكان حتما على الزاهد، أن يتعلم من العلماء، فإذا لم يتعلم فليسكت. فعن مالك بن دينار:

"إن الشيطان ليلعب بالقُراء، كما يلعب الشيطان بالجوز"[1].

ويقصد بالقُرّاء: الزهاد، وهذا اسم قديم لهم معروف.

وقد وقع بعض مؤلفي الصوفية – كما يرى ابن الجوزي– في أخطاء، بسبب تلبيس إبليس عليهم. فكلما مضى قرن زاد طمع إبليس، في أهل القرن الذي يليه، إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن.

وأساس الخطأ هنا، هو أن الشيطان صدّهم عن العلم، وأراهم أن المقصود هو العمل:

"فلما أطفأ مصباح العلم عندهم، تخبطوا في الظلمات: فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة، فرفضوا ما يصلح أبدانهم، وشبهوا المال بالعقارب، ونسوا

---

[1] المصدر نفسه "تلبيس"، ص ١٦٠ - ١٦١

أنه خلق للمصالح، وبالغوا في الحمل على النفوس، حتى أنه كان فيهم من لا يضطجع، وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة، غير أنهم على غير الجادة، وفيهم من كان لقلة علمه يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة، وهو لا يدري"[(1)].

ثم جاء بعدهم من تكلم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات، مع التصنيف في ذلك، كالحارث المحاسبي.

وجاء آخرون فهذبوا مذهب التصوُّف، وأفردوه بصفات ميزوه بها من الاختصاص بالمرقعة والسماع والوجد والرقص والتصفيق، وتميزوا بزيادة النظافة والطهارة.

ثم زاد بعدهم عن العلماء، حتى سموا علمهم "العلم الباطن" و جعلوا علم الشريعة "العلم الظاهر".

وقد عاب الطوسي نفسه، فريقًا من الذين كتبوا في علم التصوُّف دون ممارسة فعلية لحقيقة التصوُّف. فهو يقول:

"اعلم أن في زماننا هذا، قد كثر الخائضون في علوم هذه الطائفة، وقد كثر أيضا المتشبهون بأهل التصوُّف

---

(1) تلبيس إبليس، ص ١٦٣ - ١٦٤

والمشيرون إليها والمجيبون عنها وعن مسائلها، وكل واحد منهم يضيف إلى نفسه كتابا قد زخرفه وكلاما ألفه، وليس بمستحسن منهم ذلك؛ لأن الأوائل والمشايخ، الذين تكلموا في هذه المسائل، وأشاروا إلى هذه الإشارات، ونطقوا بهذه الحكم، إنما تكلموا بعد قطع العلائق، وإماتة النفوس بالمجاهدات أو الرياضات والمنازلات والوجد والاحتراق، والمبادرة والاشتياق إلى قطع كل علاقة قطعتهم عن الله عزَ وجل طرفة عين، وقاموا بشرط العلم، ثم عملوا به، ثم تحققوا في العمل؛ فجمعوا بين العلم والحقيقة والعمل"[(1)].

ومن الصوفية من تشعبت به الطرق، إلى درجة فساد العقائد، حيث قال بعضهم بالحلول، وقال بعضهم بالاتحاد، وما زال إبليس يخبطهم بفنون من البدع، حتى جعلوا سننًا لأنفسهم.

ومن الصوفية أيضا من خرج به الجوع إلى:

---

(1) السراج الطوسي: اللمع، ص ١٩ - ٢٠

"الخيالات الفاسدة، فادعى عشق الحق والهيمان فيه، فكأنهم تحايلوا شخصا مستحسن الصورة، فهاموا به، وهؤلاء بين الكفر والبدعة"[1].

ويذكر ابن الجوزي أمثلة لبعض المؤلفين الذين كتبوا في التصوُّف، وفي كتاباتهم نظر. فقد جاء مثلاً، أبو عبد الرحمن السلمي، فصنف لهم "كتاب السنن"، وجمع لهم حقائق التفسير:

"فذكر عنهم فيه العجب في تفسيرهم القرآن، بما يقع لهم من غير إسناد ذلك إلى أصل من أصول العلم، وإنما حملوه على مذاهبهم".

ويرى ابن الجوزي، أن السلمي لم يكن ثقة، وأنه كان يضع الأحاديث الصوفية:

"والعجب من ورعهم في الطعام، وانبساطهم في القرآن"[2].

ولابن الجوزي رأي في السرَّاج الطوسي، حين ألف "لمع الصوفية" حين ذكر فيه من الاعتقاد القبيح والمرذول.

---

(1) تلبيس إبليس، ص ١٦٤

(2) المصدر نفسه، ص ١٦٤

كذلك فإن أبا طالب المكي في "قوت القلوب" ذكر الأحاديث الباطلة، وما لا يستند فيه إلى أصل من صلوات الأيام والليالي، والاعتقاد الفاسد، وترديد عبارة "قال بعض المكاشفين" وهذا كلام فارغ كما يرى ابن الجوزي. كما ذكر في هذا الكتاب، ما ذهب إليه بعض الصوفية، من أن الله عزَّ وجل يتجلى في الدنيا لأوليائه.

وفي بغداد حفظ الناس عن أبي طالب المكي أنه قال: "ليس على المخلوق أضرُّ من الخالق"[1]. فبدَّعه الناس وهجروه؛ فامتنع عن الكلام على الناس بعد ذلك.

وجاء أبو نعيم الأصبهاني، فصنف للصوفية "كتاب الحلية"، الذي يمكن الاعتراض عليه بما يلي:

- أنه أورد في حدود التصوُّف أشياء منكرة قبيحة.
- ولم يستحِ أن يذكر في الصوفية أبا بكر وعمر وعثمان وعلي وسادات الصحابة، رضوان الله عليهم.

---

(1) المصدر نفسه، ص ١٦٥

- وذكر منهم شريح القاضي، والحسن البصري، وسفيان الثوري، وابن حنبل.

وجاء عبد الكريم بن هوازن القشيري، فصنف لهم "الرسالة" فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء والبقاء، والقبض والبسط، والوقت والحال، والوجد والوجود، والجمع والتفرقة، والصحو والسكر، والذوق والشرب، والمحو والإثبات، والتجلي والمحاضرة، والمكاشفة واللوائح والطوالع، وغير ذلك من التخليط الذي ليس بشيء.

ثم ألف محمد بن طاهر المقدسي "صفوة التصوُّف" فذكر فيه أشياء يستحي العاقل من ذكرها:

- كان يذهب مذهب الإباحة.
- وصنف في جواز النظر إلى الأمرد.
- وليس المقدسي ذاته ممن يحتج به.

وبالإضافة إلى ما سبق نجد ابن الجوزي، ينتقد الإمام الغزالي، حيث صنّف للصوفية كتاب الإحياء، على طريقة القوم، وملأه بالأحاديث الباطلة، وهو لا يعلم ببطلانها، وتكلم في علم المكاشفة، وخرج عن قانون الفقه.

وذهب الغزالي إلى أن المراد بالكوكب والشمس والقمر اللوائي رآهن إبراهيم عليه السلام: أنوار هي حجب الله عزَّ وجل، ولم يردَّ هذه المعروفات، وهذا من جنس كلام الباطنية.

كذلك فإنه يرى في كتابه المفصح بالأحوال (أي المنقذ)، أن الصوفية في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتًا، ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصورة إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق[1].

ولو أردنا الردَّ هنا لاحتاج الأمر إلى أبحاث أخرى، لكن ما سبق وما سوف يأتي من مباحث هذا الكتاب، قد يكشف شيئًا من أصول التصوُّف وحقائقه، بما يعطي نوعا من الاعتذار عن مؤلفي الصوفية هؤلاء.

غير أن الذي يجب أن يلْتَفَتُ إليه هنا، أن هناك أمورا دست على الإمام الغزالي وغيره، في هذا الميدان، ولا بد من رد فعل ضد هذا الدس والتزوير، ونلاحظ أن وضعا جرى في جانب الغرائب والكرامات، وقابله وضع أيضا في ذكر

---

(1) تلبيس إبليس، ص ١٦٥ – ١٦٦

عيوب الصوفية قديما وحديثًا، والفجوة الهائلة التي وقعت بين الصوفية وبين منتقديهم هي مسألة الذوق الصوفي، الذي تحدَث عنه الصوفية على أنه حقيقة، وأنه لا يقاس بمقياس العلم المعروف، هذا في الوقت الذي أراد فيه خصومهم قياسه بقوانين العلوم المعروفة.

ويرجِع ابن الجوزي السبب في تصنيف هؤلاء لهذه المؤلفات، إلى قلة علمهم بالسنن وبالإسلام والآثار، وإقبالهم على ما استحسنوه من طريقة الصوفية، وفي هذا نوع من المغالاة في النقد من جانب ابن الجوزي؛ إذ كيف يتَصور جهل رجل مثل حجة الإسلام الغزالي بالسنن وبالإسلام، فإن مؤلفاته بصفة عامة، وكتابه الإحياء بصفة خاصة، تبطل مثل هذا الرأي.

ويرى ابن الجوزي أن أمثال هؤلاء المؤلفين، قد استحسنوا طريقة الصوفية؛ لأنه قد ثبت في النفوس مدح الزهد، وما رأوا حالة أحسن من حالة هؤلاء القوم، ولا كلاما أرق من كلامهم.

ومعظم هذه المصنفات لا تستند إلى أصل، وإنما هي واقعات تلقفها بعضهم عن بعض ودوَنوها، وسموها

"العلم الباطن" وسئِلَ أحمد بن حنبل ﷺ عن الوساوس والخطرات، فقال:

"**ما تكلم فيها الصحابة ولا التابعون**" وحين سمع أحمد كلام المحاسبي، قال لصاحب له" **لا أرى أن تجالسهم**"[(1)]**.**

لكننا لو نظرنا إلى التصوُّف على أنه عمل، لكان هذا أيضا حال الصحابة؛ إذ لا يتصوَّر أحد منهم يجهل وجوب الحذر من الوساوس والخطرات، وإذا نظرنا إليه على أنه علم له أصوله وقواعده، صدق القول بأن الصحابة لم يتكلموا فيه، وهل نتصور أن يتكلم الصحابة في كل شيء يتعلق بالعلم!.

وإذا مضينا في استعراض ما عند أبي الفرج الجوزي، فإنه يرى أن أوائل الصوفية، يقرُّون أن التعويل على الكتاب والسنة، وإنما لبس الشيطان على من سواهم لقلة علمهم، وهذا نقد عادل من ابن الجوزي؛ ولهذا ساق شواهد من كلام الصوفية، تثبت تمسك أوائلهم بالشريعة مثل قول أبي سليمان الداراني:

(1) تلبيس.. ص ١٦٦

"ربما تقع في نفسي النكتة من نكت القوم أياما؛ فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة".

وقول أبي يزيد البسطامي:

"لو نظرتم إلى رجل أُعطِي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود".

وقال البسطامي أيضا:

"من ترك قراءة القرآن والتقشف ولزوم الجماعة وحضور الجنائز وعيادة المرضى، وأدعى بهذا الشأن فهو مبتدع".

وفي هذا ردٌ على من يظن أن التصوُف اعتزال تام للحياة الاجتماعية. وقال السري:

"من أدعى باطن علم، ينقض ظاهر حكم، فهو غالط".

ويقول الجنيد:

"مذهبنا هذا مقيد بالأصول: الكتاب والسنة"

ويقول كذلك:

"ما أخذنا التصوُّف عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات".

ومعناه: أن التصوُّف الحق مبني على الرياضات والممارسات الفعلية، وأن الادعاء فيه سرعان ما ينكشف.

وقال أبو بكر الشفاف:

"من ضيع حدود الأمر والنهي في الظاهر، حُرِمَ مشاهدة القلب في الباطن".

فهنا ارتباط واضح بين الظاهر والباطن، فلا تصوُّف بدون الأخذ بمبادئ الشريعة، وكذلك فإن كل أمر في التصوُّف يشذ عن الشريعة يجب اجتنابه، وهذا هو معنى قول الحسين النوري:

"من رأيته يدعي مع الله عز وجل، حالة تخرجه عن حد علم الشرع، فلا تقربنه، ومن رأيته يدعي حالة لا يدل عليها دليل، ولا يشهد لها حفظ ظاهر، فاتهمه على دينه"[1].

والحق أن أبا الفرج بن الجوزي، كان منصفًا حين أتى بهذه الشواهد، وأكد أنها قد ثبتت فعلاً عن شيوخ الصوفية،

---

(1) أنظر هذه النصوص في تلبيس إبليس، ص ١٦٨

فإذا وقعت غلطات من هؤلاء يجب أولاً التأكد من صحة ما نُسِبَ إليهم، فإن كان صحيحا توجه الرد عليهم؛ إذ لا محاباة في الحق، أما إذا لم يصح عنهم ذلك، فيجب الحذر من القول نفسه، مهما نسب إلى شخص أو مذهب.

وعلى هذا فإن منهج ابن الجوزي هنا، يجب أن يستفيد منه الذين انتقدوا التصوُّف دون تفريق بين قول وآخر؛ إذ يجب أولاً التثبت من مطابقة القول للشريعة، وإلا وجب ثانيا التثبت من صحة نسبة القول إلى قائله؛ حتى لا يساء الظن به، وعلى أي حال فإن القول المريض يجب الحذر منه مهما كان مصدره.

أما الذين تشبهوا بالصوفية، وليسوا منهم، فأغلاطهم كثيرة، ويقول ابن الجوزي بإزائهم.

"والله يعلم أننا لم نقصد ببيان غلط الغالط، إلا تنزيه الشريعة والغيرة عليها من الدخل، وما علينا من القائل والفاعل، وإنما نؤدي بذلك أمانة العلم[1]".

---

[1] المصدر السابق، ص ١٦٩

ولا يلتفت ابن الجوزي إلى جاهل يقول: كيف يردُّ على فلان الزاهد المتبرك به؛ لأن العبرة هنا بالانحياز إلى الشريعة، لا إلى الأشخاص:

"وقد يكون الرجل من الأولياء وأهل الجنة، وله غلطات، فلا تمنع منزلته بيان زللـه[1]".

وهذا يدعونا إلى تذكر قاعدة عامة، هي وجوب النظر بالدليل إلى الشخص وإلى ما صدر عنه، لا إلى تعظيم الشخص نفسه.

وقد كان الإمام أحمد بن حنبل، يمدح الرجل ويبالغ، ثم يذكر غلطه في الشيء بعد الشيء، ويقول: نعم الرجل فلان لولا أن خلة فيه.

وقال الإمام عن سري السقطي:

"الشيخ المعروف بطيب المطعم" ثم حكى له عنه أنه قال: إن الله عز وجل لما خلق الحروف سجدت الباء. فقال الإمام أحمد: نفروا الناس منه[2].

---

(1) نفس المكان

(2) نفس المكان.

ويرجع ابن الجوزي هذه السقطات من بعض الصوفية، إلى قلة علم بالشرع، فيقول:

"ولما قل علم الصوفية بالشرع، فصدر منهم من الأفعال والأقوال ما لا يحل ... ثم تشبه بهم من ليس منهم، وتسمى باسمهم فصدر عنهم مثل ما قد حكينا، وكان الصالح منهم نادرا – ذمهم خلق من العلماء، وعابوهم حتى عابهم مشائخهم"[1].

وهذا الجهل بالشرع يحمل عليه ما ورد لدى الشافعي من انتقاد الصوفية، حيث قال:

- لو أن رجلاً تصوَف أول النهار، لا يأتي الظهر حتى يصير أحمق.
- وقال أيضا: ما لزم أحد الصوفية أربعين يوما، فعاد عقله إليه أبدا. ثم أنشد الشافعي:

ودَع الذين إذا أتوك تنسكوا

وإذا خلوا كانوا ذئاب حقاف

---

[1] نفس المصدر، ص ٣٧١

والمراد هنا نقد المتكلفين الذين يجهلون حقيقة الشريعة وحقيقة التصوُّف معا. ولهذا قال يونس بن عبد الأعلى:

ما رأيت صوفيا عاقلاً، إلا مسلم الخواص.

فالميزان الحق الذي تُوزَن به هذه الأمور، هو ميزان الشريعة؛ ولهذا كان مما يستوجب النقد قول بعض الصوفية: " إن العبد إذا عرف لم يضرُّه ما فعل"[1]. ومعناه هنا إباحة مخالفة الشريعة؛ ومن هنا قال ابن الجوزي: " وهذه نهاية الزندقة". وقال:

"لا أسهل على أهل الخلاعة، من مفارق الجماعة[2]".

إنه لمن أعظم الأمور أن الإسلام يدعو إلى العلم النافع ويحث عليه؛ لما فيه من عمارة الدنيا والسعي إلى الآخرة، وإن أول نكسة يصاب بها المرء، وأول تلبيس شيطاني، هو الصد عن العلم؛ لأن العلم نور، فإذا أطفأ إبليس مصابيح الناس، خبطهم في الظلام كيف شاء.

---

(1) تلبيس، ص ٣٧٣، وانظر ٣٧١

(2) نفس المصدر، ص ٣٧٥

وقد دخل إبليس، كم يرى ابن الجوزي، على الصوفية في هذا الفن من أبواب:

الأول – أنه منع جمهور الصوفية من العلم أصلاً، وأراهم أنه يحتاج إلى تعب وكلاف. فحسن عندهم الراحة؛ فلبسوا المراقع، وجلسوا على بساط البطالة. ومن هنا قال الشافعي: أُسِسَ التصوُّف على الكسل. ومعناه: أن الصوفية تعجلوا الولايات.

ومن الصوفية من ذمَّ العلماء، ورأى أن الاشتغال بالعلم بطالة، وقالوا: إن علومنا بلا واسطة، وإنما رأوا بعد الطريق في طلب العلم، فقصروا الثياب، ورفعوا الجياب، وأظهروا الزهد.

ولسنا بحاجة إلى التنبيه على أن هذا النقد موجه للجهلاء من الصوفية، وأغلب جهلهم إنما هو بالشرع.

الثاني: قنع قوم من الصوفية باليسير من العلم؛ ففاتهم الفضل الكثير في كثرته، فاقتنعوا بأطراف الأحاديث، وأوهمهم إبليس أن علو الإسناد والجلوس للحديث، كله رياسة ودنيا، وأن للنفس في ذلك لذة.

وينكشف هذا التلبيس، إذا علم أنه ما من مقام عالٍ، إلا وله فضله، وفيه مخاطره، ذلك أن الإمارة والقضاء والفتوى أمور كله مخاطرة، وللنفس فيها لذة مع فضيلتها العظيمة، كالشوك في جوار الورد؛ ومن هنا وجب أن تطلب الفضائل، وتبقى ما في ضمنها من الآفات. فأما ما في الطبع من حب الرياسة، فإنه إنما وضع لتجتلب هذه الفضيلة، ولا يتقوَم قصد العالم إلا بالعلم.

قال يزيد بن هارون: "**طلبنا العلم لغير الله، فأبى إلا أن يكون** لله"[1]**.**

ومعناه: أن العلم هو الذي دلهم على الإخلاص، فمن طالب نفسه بقطع ما في طبعه، لم يمكنه ذلك على الدوام.

الثالث: أن إبليس أوهم قوما من الصوفية، أن المقصود العمل، وما فهموا أن التشاغل بالعلم من أوفى الأعمال؛ لأن العالم وإن قصر سير عمله، فإنه على الجادة. أما العابد بغير علم فإنه على غير الطريق.

---

(1) تلبيس.. ص ٣٢٠

الرابع: أنه أرى خلقًا كثيرا منهم، أن العلم ما أُكْتُسِبَ من البواطن. حتى أن أحدهم يتخايل له وسوسة، فيقول: حدثني قلبي عن ربي. وقد مرَّ إنكار ابن القيم لذلك.

وكان الشبلي يقول:

إذا طالبوني بعلم الورق

برزت عليهم بعلم الخرق

وقد سموا علم الشريعة علم الظاهر، وسموا هواجس النفوس: العلم الباطن، واحتجوا بما جاء في الأثر عن النبي ﷺ:

"علم الباطن سر من أسرار الله عز وجل، وحكم من أحكام الله تعالى، يقذفه الله عز وجل في قلوب مَن يشاء من أوليائه"[(1)].

وهذا حديث لا أصل له عن النبي ﷺ، وفي إسناده مجاهيل لا يعرَفُون.

وكان في ناحية أبي يزيد، رجل فقيه عالم تلك الناحية، فقصد أبا يزيد، وقال له: قد حكِي لي عنك عجائب. قال أبو

---

(1) نفس المصدر، ص٣٢١

يزيد: وما لم تسمع من عجائبي أكثر.

فقال له: علمك هذا يا أبا يزيد: عن من؟ ومن أين؟ ومِن من؟ قال أبو يزيد: علمي من عطاء الله تعالى، ومن حيث قال النبي ﷺ: "من عمل بما يعلم ورثة الله علم ما لم يعلم" ومن حيث قال ﷺ: "العلم علمان: علم ظاهر وهو حجة الله تعالى على خلقه، وعلم باطن وهو العلم النافع".

وعلمك يا شيخ نقل من لسان عن لسان التعليم، وعلمي من الله إلهام من عنده.

قال الشيخ: علمي من الثقات عن رسول الله ﷺ، عن جبريل عن ربه عزَ وجل.

أبو يزيد: يا شيخ كان للنبي ﷺ علم من الله لم يطلع عليه جبريل ولا ميكائيل.

الشيخ: نعم، ولكن أريد أن يصحَ لي علمك، الذي تقول هو من عند الله.

أبو يزيد: نعم أبينه لك قدر ما يستقر في قلبك معرفته: علمت أن الله تعالى كلم موسى تكليما، وكلم محمدا ﷺ ورآه كفاحا، وأن حلم الأنبياء وحي.

الشيخ: نعم.

أبو يزيد: أنا علمت أن كلام الصديقين والأولياء بإلهام منه، وفوائده من قلوبهم، حتى أنطقهم بالحكمة ونفع بهم الأمة ومما يؤكد ما قلت: ما ألهم الله تعالى أم موسى أن تلقي موسى عليه السلام في التابوت فألقته، وألهم الخضر في السفينة والغلام والحائط قوله لموسى عليه السلام ﴿**وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي**﴾ (الكهف – ٨٢)، وكما قال أبو بكر لعائشة رضي الله تعالى عنهما: إن ابنة خارجة حاملة ببنت، وألهم عمر رضي الله عنه فنادى: يا سارية الجبل!.

قال إبراهيم بن سبتية: حضرت مجلس أبي يزيد، والناس يقولون: فلان لقي فلانًا، وأخذ من علمه، وكتب منه الكثير، وفلان لقي فلان.

فقال أبو يزيد:

مساكين، أخذوا علمهم ميتًا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت[1].

ولابن الجوزي وجهة نظر فيما ورد عن أبي يزيد، حيث يرى أن الفقه في الحكاية الأولى هو من قلة العلم:

---

(1) تلبيس إبليس ص ٣٢١ – ٣٢٢

"إذ لو كان عالما، لعلم أن الإلهام للشيء لا ينافي العلم، ولا يتسع به عنه، ولا ينكر أن الله عز وجل يلهم الإنسان الشيء كما قال النبي ﷺ: (إن في الأمة محدثين، وإن يكن في أمتى فعمر[1])".

والمراد بالتحدُث: إلهام الخبر، إلا أن الملهم لو ألهم ما يخالف العلم، لم يجز له أن يعمل عليه.

أما الخضر: فقد قيل إنه نبي، ولا ينكر للأنبياء الاطلاع بالوحي على العواقب.

وليس الإلهام من العلم في شيء، إنما هو ثمرة العلم والتقوى، فيوفق صاحبهما للخير ويلهم الرشد.

فأما أن يترك العلم، ويقول إنه يعتمد على الإلهام والخواطر فليس هذا بشيء؛ إذ لولا العلم النقلي ما عرفنا ما يقع في النفس: أهو من الإلهام للخير، أو الوسوسة من الشيطان:

"واعلم أن العلم الإلهامي الملقى في القلوب، لا يكفي عن العلم المنقول، كما أن العلوم العقلية لا تكفي عن الشرعية،

---

[1] نفس المصدر، ص ٣٢٢

فإن العقلية كالأغذية، والشرعية كالأدوية، ولا ينوب هذا عن هذا[1]".

وقول أبي يزيد إنهم أخذوا علمهم ميتًا عن ميت: أصلح ما ينسب إليه هذا القائل، أنه ما يدري ما في ضمن هذا القول، وإلا فهذا القول طعن على الشريعة.

ومن المؤكد – كما يقول أبو حفص بن شاهين – إن الصوفية الذين رأوا الاشتغال بالعلم بطالة، وقالوا: إن علومهم بلا واسطة – هؤلاء لم يسلكوا منهج المتقدمين من الصوفية:

"وما كان المتقدمون في التصوف، إلا رؤساء في القرآن والفقه والحديث والتفسير، ولكن هؤلاء أحبوا البطالة[2]".

ويتعرَض ابن الجوزي لما يراه الغزالي، من أن ميل أهل التصوُف إلى الإلهية دون التعليمية؛ ولذلك لم يتعلموا، ولم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون، وذهبوا إلى أن الطريق تقديم المجاهدات بمحو

---

(1) نفس المكان.

(2) نفس المصدر، ص ٣٢٣

الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها، والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة، وذلك بأن يقطع الإنسان همه عن الأهل والمال والولد والعلم ويخلو ونفسه في زاوية، ويقتصر على الفرائض والرواتب، ولا يقرن همه بقراءة قرآن، ولا بالتأمل في نفسه، ولا يكتب حديثًا ولا غيره، ولا يزال يقول: الله الله الله، إلى أن ينتهي إلى حال يترك تحريك اللسان، ثم يمحو عن القلب صورة اللفظ. وهكذا مما نجده واضحا في كتابه "المنقذ من الضلال".

ونحن لا نشك في أن الغزالي يؤمن بالعلم وبالمعرفة الصوفية، بدليل أنه هو نفسه كان عالما، وحصل معارف كثيرة قبل أن يفتح الله تعالى عليه بالكشف الصوفي، ومع هذا لا نجد مانعا من الاطلاع على رأي ابن الجوزي الخاص برأي الغزالي السابق، فيقول ابن الجوزي:

"عزيز علي أن يصدر هذا الكلام من فقيه؛ فإنه لا يخفى قبحه. فإنه على الحقيقة طي لبساط الشريعة، التي حثت على تلاوة القرآن وطلب العلم، وعلى هذا المذهب فقد رأيت

الفضلاء من علماء الأمصار، فإنهم ما سلكوا هذه الطريق، وإنما تشاغلوا بالعلم أولاً[1]".

ومن جانبنا، فإننا نعتقد أن هذا الكلام لازم من لوازم مذهب الغزالي لكنه لا يرضيه؛ إذ كيف نتصور من حجة الإسلام أن يطوي بساط الشريعة أو حتى يرضى بذلك، وأيضا فإنه من أهل القرآن والعلم، ولعله كان يقصد بالذكر أو الخلوة ما يمكن أن يقوم به الإنسان بعد تحصيله العلم، أو ما يمكن أن يقوم به إنسان أمي لا يستطيع الاشتغال بالعلم أولاً، كأن يكون صاحب مهنة كالحداد والنجار.

لكن على كل حال، فإن كلام الغزالي لا يخلو من شبهة؛ مما جعل ابن الجوزي يرتب على ذلك أن النفس تخلو بوساوسها وخيالاتها، ولا يكون عندها من العلم ما يطرد ذلك، فيلعب بها إبليس أي ملعب، فيريها الوسوسة محادثة ومناجاة.

ولا ينكر ابن الجوزي، أنه إذا طهر القلب، انصبت عليه أنوار الهدى؛ فينظر بنور الله، إلا أنه ينبغي أن يكون تطهيره

---

(1) نفس المكان

بمقتضى العلم، لا بما ينافيه، ومعناه أن ابن الجوزي لا ينكر الكشف أو المعرفة اللدنية.

كذلك يرى ابن الجوزي، أن الجوع والسهر، وتضييع الزمان في التخيلات، أمور ينهى عنها الشرع، فلا يستفاد من صاحب الشرع شيء ينسب إلى ما نهي عنه، كما لا تستباح الرخص في سفر قد نهي عنه.

إنه لا تنافي بين العلم والرياضة الروحية، بل إن العلم يعلم كيفية الرياضة، ويعين على تصحيحها.

وعن أبي علي البناء قال: كان عندنا بسوق السلاح رجل كان يقول: "القرآن حجاب، والرسول حجاب، ليس إلا عبد ورب [(1)]". فافتتن به جماعة، فأهملوا العبادات واختفى هو مخافة القتل.

وعن ضرار بن عمر، قال:

"إن قوما تركوا العلم ومجالسة أهل العلم، واتخذوا محاريب، فصلوا وصاموا، حتى يبس جلد أحدهم على عظمه، وخالفوا السنة؛ فهلكوا، فوالله الذي لا إله غيره،

[(1)] تلبيس إبليس، ص ٣٢٤

ما عمل عامل قط على جهل، إلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح[1]".

***

ومما عرَّض الصوفية للنقد، أن كثيرا منهم قد فرَّق بين الشريعة والحقيقة، وهذا جهل منهم؛ لأن الشريعة كله حقائق، فإن كانوا يريدون بذلك الرخصة والعزيمة، فكلاهما شريعة.

وقد أنكر عليهم جماعة من قدمائهم في إعراضهم عن ظواهر الشرع. فقد جاء رجل إلى سهل بن عبد الله، وبيده محبرة وكتاب. فقال لسهل: جئت اكتب شيئًا ينفعني الله به. فقال: **اكتب، "إن استطعت أن تلقى الله وبيدك المحبرة والكتاب فافعل".**

قال: يا أبا محمد أفدني فائدة. فقال:

"الدنيا كلها جهل، إلا ما كان علما، والعلم كله حجة إلا ما كان عملاً، والعمل كله موقوف، إلا ما كان منه على الكتاب والسنة، وتقوم السنة على التقوى[2]".

---

(1) نفس المكان.

(2) نفس المكان.

ومعنى هذا أن ابن الجوزي يجد في الصوفية القدماء أصالة وصدقًا وحقًا، وهو هنا متفق مع سهل الصوفي فيما ذهب إليه، ولاسيما في قول سهل أيضا:

"احفظوا السواد على البياض؛ فما أحد ترك الظاهر إلا تزندق".

فهو هنا يوصي بالعلم وبالتمسك بالشريعة معا، وكذلك قوله:

"ما من طريق إلى الله أفضل من العلم، فإن عدلت عن طريق العلم خطوة تهت في الظلام أربعين صباحا[1]".

ومن الصوفية الذين استقام فكرهم في مسألة الحقيقة، "أبو بكر الدقاق"؛ فقد خطر بباله أن علم الحقيقة مباين للشريعة، ثم عاد وقرّر أن:

"كل حقيقة لا تتبعها الشريعة، فهي كفر [2]".

والمراد بذلك أن الشريعة قد وضعها الحق سبحانه وتعالى لمصالح الخلق وتعبداتهم. فكل من رامَ الحقيقة في غير

---

(1) نفس المكان.

(2) نفس المكان.

الشريعة فهو مغرور مخدوع.

***

ومن الاعتراضات الواردة على سلوك بعض الصوفية في مجال العلم، دفنهم كتب العلم، وإلقاؤها في الماء.

وقد كان جماعة منهم تشاغلوا بكتابة العلم، ثم لبس عليهم إبليس، وقال: ما المقصود إلا العمل، فدفنوا كتبهم.

وقد روي أن أحمد بن أبي الحواري، رمى كتبه في البحر، وقال: نعم الدليل كنت، والاشتغال بالدليل بعد الوصول محال.

وطلب هذا الرجل، الحديث ثلاثين سنة، فلما بلغ منه الغاية حمل كتبه إلى البحر فغرّقها، وقال: يا علم لم أفعل بك هذا تهاونًا ولا استخفافًا بحقك، ولكني كنت أطلبك لأهتدي بك إلى ربي، فلما اهتديت بك استغنيت عنك.

وكان أبو الحسن الخلال: حسن الفهم، له صبر على الحديث، وإنه كان يتصوّف، ويرمي بالحديث مدة، ثم يرجع ويكتب. وروي أنه رمى بجملة من سماعاته القديمة في دجلة.

ونحن ننكر هذا، ونراه جهلاً بكل من الشريعة والعلم والتصوُّف ولو أن السابقين مزَّقوا كتبهم، ما تقدَّمت البشرية خطوة واحدة، كذلك فإن الكتب والاطلاع عليها، مما يعين على فهم الدين.

وكان موسى بن هارون، يقرأ على أصحابه، فإذا فرغ من الجزء، رمى بأصله في دجلة، ويقول: قد أديته.

وكان الشبلي يقول: **"أعرف من لم يدخل في هذا الشأن، حتى أنفق جميع ملكه، وغرق في هذه الدجلة سبعين قمطرا مكتوبا بخطه، وحفظ وقرأ بكذا وكذا رواية[1]": يعني نفسه.**

إن العلم نور، وإن إبليس يحسن للإنسان إطفاء النور؛ ليتمكن منه في الظلمة، ولا ظلمة كظلمة الجهل، كما يقرر ابن الجوزي.

ولما خاف إبليس، أن يعاود هؤلاء مطالعة الكتب، فربما استدلوا بذلك على مكايده، حسن لهم "دفن الكتب وإتلافها"؛ وهذا فعل محظور قبيح، وجهل بالمقصود من الكتب.

---

(1) تلبيس إبليس، ص ٣٢٦، وانظر ٣٢٥

وليعلم أن أصل العلوم: الكتاب والسنة، فلما علم الشرع أن حفظهما يصعب، أمر بكتابة المصحف وكتابة الحديث.

فأما القرآن الكريم، فإن رسول الله ﷺ، كان إذا نزلت عليه آية دعا بالكُتاب، فأثبتها، وكانوا يكتبونها في العسيب والحجارة وعظام الكتف، ثم جمعَ القرآن بعده في المصحف أبو بكر؛ صونًا عليه، ثم نسخ من ذلك: عثمان وبقية الصحابة، رضوان الله عليهم، وكل ذلك لحفظ القرآن، ولئلا يشذ منه شيء.

ومن ناحية السنة، فإن النبي ﷺ، قصر الكتابة في بداية الإسلام على القرآن، وقال: "لا تكتبوا عني سوى القرآن"، فلما كثرت الأحاديث، ورأى قلة ضبطهم، أذن لهم في الكتابة.

فروي عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه شكا إلى رسول ﷺ، قلة الحفظ، فقال: "**أبسط رداءك**" فبسط رداءه، وحدثه النبي ﷺ، وقال "**ضمه إليك**". فقال أبو هريرة: فلم أنسَ بعد ذلك شيئًا بما حدَثنيه رسول الله ﷺ.

وفي رواية أنه قال:"**استعن على حفظك بيمينك**" يعني بالكتابة.

وروى عبد الله بن عمر، عن النبي ﷺ، أنه قال:

"قيدوا العلم، فقلت يا رسول الله، وما تقييده؟ قال: الكتابة".

وروى عنه أيضا رافع بن خديج، قال: قلنا يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء أفنكتبها؟ قال: **"اكتبوا ولا حرج"**.

ويحكي ابن الجوزي، أن الصحابة، ضبطت ألفاظ رسول الله ﷺ، وحركاته وأفعاله، واجتمعت الشريعة من رواية هذا، ورواية هذا.

وقد قال ﷺ: **"بلغوا عني"**.

وقال: **"نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها[1]".**

وتأدية الحديث كما يسمع، لا يكاد يحصل إلا من الكتابة؛ لأن الحفظ خوان، وقد كان الإمام أحمد بن حنبل، يحدث بالحديث، فيقال له: أمله علينا، فيقول لا، بل من الكتاب.

وبذلك روى الصحابة السنة، وتلقاها التابعون، وسافر المحدثون، وقطعوا شرق الأرض وغربها؛ لتحصيل كلمة من

---

(1) المصدر نفسه لابن الجوزي، ص٣٢٦ - ٣٢٧

هنا، وكلمة من هنا، بل إنهم صححوا ما صح، وزيفوا ما لم يصح، وجربوا الرواة، وعدلوا، وهذبوا السنن، وصنفوا، ويقول ابن الجوزي:

"فهل لشريعة من الشرائع قبلنا إسناد إلى نبيهم! وإنما هذه خصيصة لهذه الأمة[1]".

وإن هذه الكتب التي دفنوها، إن كان فيها باطل فلا لوم عليهم، وإن كان فيه خلط بين الحق والباطل كان ذلك عذرا لهم، وإن كان فيها الحق والشرع، فلا يحل إتلافها بوجه؛ لكونها ضابطة العلم.

ومن قال إنه أتلف الكتب؛ لأنها شغلته عن مقصوده، وهو العبادة، يقال له: جوابك من ثلاثة أوجه:

الأول: أنك لو فهمت لعلمت أن التشاغل بالعلم أوفى العبادات.

الثاني: أن اليقظة التي وقعت لك لا تدوم، فكأني بك وقد ندمت على ما فعلت بعد الفوات، ذلك أن القلوب لا تبقى على حالها وصفائها، بل تصدأ فتحتاج إلى جلاء، وجلاؤها النظر

---

(1) تلبيس إبليس، ص ٣٢٧

في كتب العلم، وقد دفن يوسف بن أسباط كتبه، ثم لم يصبر على التحديث، فحدّث من حفظه فخلط.

الثالث: أننا نقدر تمام يقظتك ودوامها، والغنى عن هذه الكتب، فهلا وهبتها لمبتدئ من الطلاب! ممن لم يصل إلى مقامك، أو وقفتها على المنتفعين بها، أو بعتها وتصدقت بثمنها. أما إتلافها فلا يحل بحال[1].

***

وقد جنى بعض الصوفية على العلم، حين أنكروا على من تشاغل بالعلم، ذلك أنه لما انقسم هؤلاء بين متكاسل عن طلب العلم، وبين ظان أن العلم هو ما يقع في النفوس من ثمرات التعبد، وسموا ذلك "العلم الباطن"؛ نهوا عن التشاغل بالعلم الظاهر.

وحكى جعفر الخلدي فقال:

"لو تركني الصوفية، لجئتكم بإسناد الدنيا. لقد مضيت إلى عباس الدوري وأنا حدث، فكتبت عنه مجلسا واحدا، وخرجت من عنده، فلقيني بعض من كنت أصحبه من

---

[1] نفس المصدر، ص ٣٢٨

الصوفية فقال: إيش هذا معك؟ فأريته إياه، فقال: **ويحك تدع علم الورق وتأخذ علم الخرق!** ثم خرق الأوراق، فدخل كلامه في قلبي؛ فلم أعد إلى عباس [1]".

وكان أبو سعيد الكندي، ينزل رباط الصوفية، ويطلب الحديث في خفية بحيث لا يعلمون به، فسقطت الدواة يوما من كمه، فقال له بعض الصوفية: **"استر عورتك"!**

وقال الحسين بن أحمد الصفار: كان بيدي محبرة، فقال لي الشبلي: **"غيب سوادك عني، يكفيك سواد قلبي".**

وقال الشبلي:

إذا خاطبوني بعلم الورق ... برزت عليهم بعلم الخرق

ومن المعلوم أن التصوف العملي نفسه، لا يتأتى عن طريق القراءة والتحصيل، بل هو تزكيه النفس، أو إجلاء البصيرة، وإلا لحصله كل من قرأ في كتب التصوُّف، وربما وصل الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب إلى التصوُّف[2].

---

(1) تلبيس..، ص ٣٢٨

(2) د. عبد الحليم محمود: قضية التصوُّف، المدرسـة الشـاذلية، ص ١٦٨ ومن ص ٤٢٤ – ٤٢٥، ط ١٩٨٣م، دار المعارف بمصر.

ويقول ابن الجوزي:

"**من أكبر المعاندة لله عز وجل، الصد عن سبيل الله، وأوضح سبيل الله؛ لأنه دليل على الله، وبيان لأحكام الله وشرعه، وإيضاح لما يحبه ويكرهه، فالمنع منه معاداة لله ولشرعه، ولكن الناهين عن ذلك، ما تفطنوا لما فعلوا**[1]".

وقال عبد الله بن خفيف: اشتغلوا بتعلم العلم، ولا يغرنكم كلام الصوفية، فإني كنت أخبئ محبرتي في جيب مرقعتي، والكاغد في حزة سراويلي، وكنت أذهب خفية إلى أهل العلم، فإذا علموا بي خاصموني، وقالوا: لا تفلح. ثم احتاجوا إليّ بعد ذلك.

وكان الأمام أحمد بن حنبل، يرى المحابر بأيدي طلبة العلم، فيقول: "**هذه سُرُج الإسلام**"، وكان هو يحمل المحبرة على كبر سنه، فقال له رجل: إلى متى يا أبا عبد الله، فقال: "**المحبرة إلى المقبرة**".

وفي قول النبي ﷺ:

"**لا تزال طائفة من أمتي منصورين، لا يضرهم من**

---

(1) المصدر نفسه، ص ٣٢٩

خذلهم، حتى تقوم الساعة".

يقول الإمام أحمد: إن لم يكونوا أصحاب الحديث، فلا أدري من هم؟ وقال: إن لم يكن أصحاب الحديث الإبدال فمن يكون؟

وقيل له: إن رجلا قال في أصحاب الحديث إنهم كانوا قوم سوء، فقال أحمد: **"هو زنديق".**

وقال الإمام الشافعي: إذا رأيت رجلاً من أصحاب الحديث، فكأني رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ [1].

وهؤلاء الصوفية، لم يصبروا عن الكلام في العلوم. فوقعت الأغاليط القبيحة منهم.

فهم يتكلمون في تفسير القرآن، والحديث، والفقه. ويسوقون العلم إلى مقتضى علمهم الذي انفردوا به:

"والله سبحانه لا يخلي الزمان، من أقوام قوام بشرعه، يردون على المتخرصين، ويبينون غلط الغالطين"[2].

---

[1] المصدر نفسه لابن الجوزي، ٣٢٩ - ٣٣٠

[2] نفس المصدر، ص ٣٣٠

ومن أجمل الأقوال في هذا المقام، ما رواه البخاري في صحيحه، من قول عمر بن الخطاب ﵁:

"**تفقهوا قبل أن تسودوا**[1]".

ومعناه الحرص على إتقان العلم، والتمكن في تحصيله، وأنتم شباب لا أشغال لكم ولا رئاسة ولا سن، فإنكم إذا كبرتم وصرتم سادة متبوعين، امتنعتم من التفقه والتحصيل غالبا.

التأويل عند الصوفية:

كان للصوفية دور في تأويل النصوص الدينية، وساروا فيه إلى أبعد شوط، وكان بعض هذا التأويل معتدلاً، وبعضه متطرفًا[2]؛ بسبب سوء نية البعض، أو سذاجته، أو بعده عن معرفة الدين وحقيقة التصوُّف.

---

(1) النووي: بستان العارفين، ص ٤١، ط١، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، دار الكتاب العربي، بيروت.

(2) د. محمد يوسف موسى: بين الدين والفلسفة، في رأي ابـن رشـد وفلاسفة العصر الوسـيط، ص ١٣٤، ومـا بعـده، ١٩٥٩، دار المعارف بمصر.

لكنهم عموما يؤمنون بخاصية لهم هي معرفة التأويل الباطن، وهو الذي ينكره عليهم أهل السنة، وليس هناك ما يمنع أن تتفاوت العقول في فهم حقائق القرآن الكريم، وقد ذهب الإمام الغزالي إلى أن كبار الصحابة، وفي مقدمتهم عمر وعلي، قد فهموا من أسرار الإسلام وحقائقه أكبر نصيب[1].

وهم يرون أن النصوص الموهمة للتشبيه، لها معانٍ خفية لا يصل إليها إلا أهل المعرفة بالله، وأن موقف العامي منها ينبغي أن يكون هو التصديق بها مع الاعتراف بالعجز عن فهمها، والتسليم فيها لأهل المعرفة.

ويرى الإمام الغزالي التوقف عن التأويل، إذا لم يوجد دليل قاطع على تعيين المعنى المجازي المراد، مثل لفظ "الوزن" للأعمال يوم القيامة: هل هو تعريف مقدار العمل؟ أو هو الصحيفة؟ فلا يوجد دليل على أنه هذا أو ذاك[2].

---

(1) الغزالي: إلجام العوام عن علم الكلام، ص ٣١ وما بعدها، طبع القاهرة، ١٣٥١ هـ.

(2) الغزالي: قانون التأويل، ص ٦ وما بعدها، طبع القاهرة، سنة ١٩٤٠ م.

والخلاف حول مسألة التأويل، يرجع إلى انقسام حول الظاهر والباطن، مع أنه لا يمكن الفصل بينهما.

وبالرغم من ذلك، فإن أهل الظاهر يمتازون بحماية المسلمين من الاستسلام إلى الأوهام والأضاليل، كما أن أهل الباطن يعطرون الشريعة بعبير الروح، ويلفتون إلى دقائق الدين التي تتعرَض للضياع أو الإهمال لدى الكثيرين.

يضاف إلى هذا، أن أهل الظاهر حفظوا العلوم الشرعية، وكافحوا الثقافة الهدامة، كذلك فإن أهل الباطن أوجدوا العصبية الدينية، وأبرزوا الجوانب الروحية في حياة النبي ﷺ، وحياة صحابته الكرام؛ مما نتج عنه حفظ القوة المعنوية للدين الحنيف، ومع هذا فإننا نفضل الجمع بين الناحيتين، وهو ما لم يتيسر إلا للقلة من علماء الإسلام، مثل الغزالي وابن تيمية.

"ولا يمكن إغفال ما أفاد الإسلام من الثقافة الصوفية؛ فالتصوف هو الذي ملأ الجوانب الخالية من قلوب

المسلمين، وهو الذي أنساهم الخشونة المادية، التي إذاعتها الثقافة الفقهية[1]".

***

إن القرآن الكريم كتاب موجه للإنسانية كلها، ومن الضروري تفسيره أو تأويله لإرضاء حاجة الإنسان الفعلية: "وبخاصة يكاد يكون من المتفق عليه بين المسلمين، أن للقرآن من ناحية المعنى وجوها كثيرة منها العام ومنها الخاص، وأن هذه الوجوه يعلمها الراسخون في العلم، فيجب اللجوء إليهم، لمعرفة ما يظن مشكلاً من القرآن[2]".

ولم يكن الخلاف حول الظاهر والباطن بالأمر الذي غاب عن الصوفية الأوائل، مثل "السرَاج الطوسي" فهو يذكر أن فريقًا من أهل الظاهر، يرى أنه لا يوجد إلا علم الشريعة الظاهرة، التي جاء بها الكتاب والسنة، وأنه لا معنى للقول بعلم الباطن أو علم التصوُّف.

---

(1) د. زكي مبارك: التصوُّف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ٢: ٢٥

(2) د. محمد يوسف موسى: القرآن والفلسـفة، ص٣٩، ط٤، ١٩٨٢م، دار المعارف بمصر.

وغاب عن هؤلاء، أن علم الشريعة علم واحد، وهو اسم يجمع معنيين: "**الرواية والدراية**" فإذا جمِعا، فهو علم الشريعة الداعية إلى الأعمال: **الظاهرة والباطنة**.

فالأعمال الظاهرة: مثل أعمال الجوارح الظاهرة، وهي الأعضاء. فيما يتعلق بما يسمى "العبادات" كالطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، وكذلك "الأحكام" مثل: الحدود والطلاق والبيوع والميراث.

والأعمال الباطنة: مثل أعمال القلوب، وهي المقامات والأحوال. كالتصديق واليقين والصدق والإخلاص والمعرفة والتوكل والمحبة والرضا والذكر والشكر والإنابة والخشية والتقوى والمراقبة والفكرة والاعتبار والخوف والرجاء والصبر والقناعة والتسليم.

إن لكل عمل من الأعمال الظاهرة والباطنة: علم وفقه وبيان وفهم وحقيقة ووجد، ويدل على صحة كل منها آيات وأحاديث، علمه من علمه وجهله من جهله.

ولهذا اشترط العلماء لصحة المعنى الباطن شرطين أساسيين:

الأول: أن يصحَ على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب، بحيث يجري على المقاصد العربية.

والآخر: أن يكون له شاهد، نصا أو ظاهرا في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض[1].

يقول السرَاج الطوسي:

"فإذا قلنا: علم الباطن، أردنا بذلك علم أعمال الباطن، التي هي على الجارحة الباطنة، وهي القلب. كما أنا إذا قلنا: علم الظاهر، أشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة، التي هي على الجوارح الظاهرة، وهي الأعضاء[2]".

يقول الله عزَ وجل:

﴿وَأَسبَغَ عَلَيكُم نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾

(لقمان: ٢٠)

---

(1) د. محمد حسين الذهبي: الاتجاهات المنحرفة في تفسـير القـرآن الكريم، دوافعها ودفعها، ص ٧٧، ط٣، ١٤٠٦ هـ ـ - ١٩٨٦ م، مكتبة وهبة بالقاهرة.

(2) اللمع، ص ٤٤

فالنعمة الظاهرة: ما أنعم الله تعالى بها على الجوارح الظاهرة، من فعل الطاعات، والنعمة الباطنة: ما أنعم الله تعالى بها على القلب من هذه الحالات، ويقول الطوسي أيضا قولاً جديرا بالاهتمام.

"ولا يستغني الظاهر عن الباطن، ولا الباطن عن الظاهر[1]".

وفي هذا ردٌ كافٍ على من اتهم الصوفية جميعا بالتحلل من الشريعة، كما أن فيه توجيها سديدا لمن شذ من الصوفية، فظن أنه ليس بحاجة إلى الشرع: "وليس في الإسلام أهل باطن وأهل ظاهر، فالإسلام جامع بين الظاهر والباطن[2]".

وفي هذا المعنى يقول الله سبحانه وتعالى، منبها إلى وجوب التمسك بسنة الرسول ﷺ، وإلى وجوب الاستعانة بالعلماء الراسخين ذوي القدرة على الاستنباط من النصوص:

---

(1) نفس المكان.

(2) أنـور الجنـدي: المـؤامرة علـى الإسـلام، ص ٤٦، ط٢، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م، دار الاعتصام بالقاهرة.

﴿وَلَو رَدوهُ إِلى الرسُول وَإِلى أُولِي الأمر مِنْهُم لَعَلِمَهُ الذِينَ يَستَنْبِطُونَهُ مِنْهُم﴾

(النساء: ٨٣)

ويقول الطوسي في هذا المقام معلقًا على الآية الكريمة، ومبينًا معنى الاستنباط:

"فالعلم المستنبط، هو العلم الباطن، وهو علم أهل التصوف؛ لأن لهم مستنبطات من القرآن والحديث وغير ذلك[1]".

ومع قبولنا لفكرة الطوسي بأن العلم المستنبط هو العلم الباطن، فإننا نختلف معه، في أن يقصر ذلك على العلم الباطن أو التأويل الصوفي وحده، ونرى أن أخذ الأحكام الفقهية إنما هو استنباط، وليس بمعقول أن الآية تردُ الخلاف أو الغموض في أمر ما، إلى علم الباطن أو التصوُف بمفرده، وما ذهب إليه الطوسي لا دليل عليه، لا من اللغة ولا من النصوص الدينية الأخرى.

---

(1) اللمع، ص ٤٤

وعلى أي حال فإن الصوفية، لهم اهتمام عظيم بالقرآن الكريم يقول أحد العارفين:

"لا يكون المريد مريدا، حتى يجد في القرآن كل ما يريد، ويعرف منه النقصان، ويستغني بالمولى عن العبيد[1]".

ومن هنا وجدنا كتبا مستقلة في التفسير الصوفي، كما أننا نجد استشهادات كثيرة بالقرآن في كل كتب التصوُّف، مع توجيهها توجيها صوفيا[2].

ومن شدة اهتمامهم بكتاب الله العزيز، يذهب بعض الصوفية، كأبي طالب المكي (المتوفى عام ٣٨٦ هـ)، إلى أن أقل ما قيل في العلوم التي يحويها القرآن، من ظواهر المعاني المجموعة فيه: أربعة وعشرون ألف علم وثمانمائة علم (٢٤٨٠٠)؛ إذ لكل آية علوم أربعة: ظاهر وباطن، وحدٌّ ومطلع.

---

(1) أبـــو طالـــب المكـــي: قـــوت القلـــوب، ١: ١١٩، طبـــع ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

(2) د. الذهبي: الاتجاهات المنحرفة في تفسـير القـرآن الكـريم، ص ٧١ - ٧٢

كذلك يوافق المكي على رأي من ذهب، إلى أن القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتين من العلوم (٧٧٢٠٠) ويقول:

"إذ لكل كلمة علم، وكل علم وصف، فكل كلمة تقتضي صفة، وكل صفة موجبة أفعالاً حسنة وغيرها على معانيها. فسبحان الفتاح العليم[1]".

وبالرغم مما يوجد في هذا الكلام من مبالغة، فإنه كلام طيب، يلفت النظر إلى وجوب العناية بالقرآن الكريم حفظًا ودرسا، وهو كذلك موافق لعموم قوله تعالى:

﴿ما فَرطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيءٍ﴾

(سورة الأنعام: ٣٨)

***

وعلى ضوء ما سبق فليس كل تفسير أو تأويل صوفي للقرآن الكريم صحيحا تماما، فهناك الصواب، وهناك ما يمكن الاختلاف فيه مع الصوفية؛ لأنهم لم يقدموا قرينة أو دليلاً على تأويل معين.

---

(1) قوت القلوب، ١: ١١٩

ومثال ذلك ما ورد عن القاشاني في "تأويلات القرآن" بخصوص الآيات الكريمة:

﴿وَاضرب لهُم مثلاً أصحَابَ الْقَريَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرسَلُونَ. إِذْ أَرسَلْنَا إِليهمُ اثْنَين فَكَذبُوهُمَا فَعَززنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنا إِلَيكُم مرسَلُونَ. قَالُوا مَا أَنْتُم إِلا بَشَر مثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرحمَنُ مِن شَيءٍ إِن أَنْتُم إِلا تَكْذِبُونَ. قَالُوا رَبنَا يَعلَمُ إِنا إِلَيكُم لَمُرسَلُونَ. وَمَا عَلَينَا إِلا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾

(سورة يس، الآيات: ١٣ – ١٧)

فهذه الآيات في معناها الظاهر، جاءت لتقصَ علينا للعبرة والذكرى، نبأ أصحاب القرية الخاطئة الضالة مع الرسل الثلاث الذين أرسلهم الله تعالى إليها، فكذبوهم.

وقد زعم المتصوفة مثل الكاشاني، أن لها معنى خفيا باطنيا، فرأوا أن القرية هي الجسم، والرسل الثلاثة هم: الروح والقلب والعقل؛ وهذا تأويل مجازي لا دليل عليه ولا قرينة[1].

---

[1] جولد تسهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ص١٤٠، ترجمة: د. محمد يوسف موسى، وآخرون، ط١ – ١٩٤٦، دار الكاتب المصري بالقاهرة.

ومن التفسير المقبول ما ذهب إليه سهل التستري في قول تعالى:

﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادا وَأَنْتُم تَعلَمُونَ﴾

(البقرة: ٢٢)

حيث يرى أن الأنداد الأضداد، وأن أكبر الأضداد: النفس الأمارة بالسوء، المتطلعة إلى حظوظها ومعناها بغير هدى من الله. فهذا مقبول، لأنه لو فصل لكان المعنى: فلا تجعلوا لله أندادا، لا صنما ولا شيطانًا، ولا النفس، ولا كذا، ولا كذا، وبالرغم من أن الأنفس لم تكن معبودة لهم، فإنه يمكن أن يكون لهذا التفسير وجه صحيح[1].

بخلاف الأمثلة الآتية:

وفي قوله تعالى:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى﴾

(سورة الأعلى: ٦)

يرى الجنيد أن المراد: لا تنسَ العمل به.

---

(1) د. الذهبي: الاتجاهات المنحرفة ...، ص ٧٨ – ٧٩

ويرى ابن الجوزي أنه تفسير لا وجه له، والغلط فيه ظاهر؛ لأنه فسره على أنه نهي وليس كذلك، إنما هو خبر لا نهي، وتقديره: فما تنسى؛ إذ لو كان نهيا كان مجزوما، فتفسيره على خلاف إجماع العلماء.

وفي قوله تعالى:

﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ (سورة الأعراف: ١٦٩)

يقول الجنيد: تركوا العمل به.

ويرى ابن الجوزي أنه الدرس الذي هو التلاوة من قوله عزَّ وجل:

﴿وَبِمَا كُنْتُم تَدرُسُونَ﴾

(آل عمران: ٧٩)

لا من درس الشيء الذي هو إهلاكه أو إهماله

وقوله تعالى:

﴿إن فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْب﴾

(سورة ق: ٣٧)

قال أبو بكر الشبلي: لمن كان الله قلبه.

فهنا تأويل صوفي متكلف؛ لأن الإشارة هنا إلى سلامة القلب من الأدواء النفسية.

وقوله سبحانه:

﴿فَنَجينَاكَ مِنَ الْغَمِ﴾

(الأنبياء: ٨٨)

قال أبو العباس بن عطاء: نجيناك من الغم بقومك، وفتناك بنا عمن سوانا. وقد اعترض ابن الجوزي على هذا التأويل بقوله:

"**وهذه جرأة عظيمة على كتاب الله عز وجل، ونسبة الكليم إلى الافتتان بمحبة الله سبحانه، وجعل محبته تفتن، غاية في القباحة**[1]".

وقوله تعالى:

﴿فَأما إِن كَانَ مِنَ الْمُقَربِينَ. فَرَوح وَرَيحَان وَجَنتُ نَعِيمٍ﴾

(سورة الواقعة: ٨٨)

قال أبو العباس بن عطاء: الروح: النظر إلى وجه الله عزَّ وجل والريحان: الاستماع لكلامه، وجنة نعيم: هو ألا يحجب

---

(1) تلبيس إبليس، ص ٣٣١

فيها عن الله عزَّ وجل، ومن الواضح أن هذا تفسير صوفي يخالف ما أجمع عليه المفسرون، ومع هذا فإن بلاغة القرآن تتسع له؛ إذ إن رحمة الله تعالى ونعمه لا تحصى سواء في الدنيا أم في الآخرة.

ويتعرَّض ابن الجوزي لموقف بعض متئولي الصوفية من فاتحة الكتاب فيقول:

"وقد جمع أبو عبد الرحمن السلمي في تفسير القرآن من كلامهم الذي أكثره هذيان لا يحل، نحو مجادين، سماها حقائق التفسير، فقال في فاتحة الكتاب عنهم: إنهم قالوا إنما سميت فاتحة الكتاب؛ لأنها أوائل ما فاتحناك به من خطابنا، فإن تأدبت بذلك، وإلا حرَمت لطائف ما بعد[1]".

ويرى ابن الجوزي، أن هذا قبيح؛ لأنه لا يختلف المفسرون في أن الفاتحة، ليست من أول ما نزل.

كذلك يعترض على ما ذهب إليه السلمي، في قول الإنسان "آمين" أي: قاصدون نحوك – فيقول ابن الجوزي:

---

[1] نفس المكان.

"هذا قبيح، لأنه ليس من أَم، لأنه لو كان كذلك، لكانت الميم مشددة[1]".

بل معناه: استجب.

وفي قوله تعالى:

﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَارَىٰ﴾

(البقرة: ٨٥)

قال السلمي: قال أبو عثمان: غرقى في الذنوب – وقال الواسطى: غرقى في رؤية أفعالهم، وقال الجنيد: أسارى في أسباب الدنيا، تفادوهم في قطع العلائق.

وكل هذا التأويل والتفسير موضع اعتراض؛ لأن الآية على وجه الإنكار، ومعناها كما ذهب ابن الجوزي:

"إذا أسرتموهم فديتموهم، وإذا حاربتموهم قتلتموهم. وهؤلاء فسروها على ما يوجب المدح[2]".

وقوله تعالى:

﴿يُحِبُّ التَّوَّٰبِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢)

---

(1) المصدر نفسه، ص ٣٣٢

(2) نفس المكان

قال محمد بن علي: أي من توبتهم، وهو توجيه للآية على منهج صوفي مع أن التوبة من الذنوب صغيرها وكبيرها.

وقوله سبحانه:

﴿يَقۡبِضُ وَيَبۡسُطُ﴾

(البقرة: ٢٤٥)

قال النوري: أن يقبضك بإياه: ويبسطك لإياه.

وقوله عزّ من قائل:

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ آمِنًا﴾

(آل عمران: ٩٧)

قال النوري: أي من هواجس نفسه ووساوس الشيطان.

ويردُّ عليه ابن الجوزي مبينًا وجهة نظر أخرى لا تكلف فيها، فيقول:

"هذا في غاية القبح؛ لأن لفظ الآية لفظ الخبر، ومعناه الأمر، وتقديرها: من دخل الحرم فأمنوه، وهؤلاء قد

فسروها على الخبر، ثم لا يصح لهم؛ لأنه كم من داخل إلى الحرم ما أمن من الهواجس ولا الوساوس[1]".

ويتضح من هذا أن ابن الجوزي رجل معتدل، لا يكلف الأمور فوق طاقتها، حيث إنه يتحدث عن واقع الكثيرين ممن دخلوا الحرم فعلاً، ولم تتخلَ عنهم وساوسهم.

وقِس على هذا موقف الصوفية من تأويل آيات أخرى مثل:

﴿إِن تَجتَنِبُوا كَبائِرَ مَا تُنْهَونَ عَنْهُ﴾

(النساء: ٣١)

قال أبو تراب: هي الدعاوى الفاسدة. وهو يقصد دعاوى بعض الصوفية في مجال الكشف الصوفي، والواضح أن الآية تتحدث عن الذنوب الكبائر.

وكذلك:

﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصاحِبِ بِالجَنْبِ وَابنِ السبِيلِ﴾

(النساء: ٣٦)

---

[1] نفس المكان عند ابن الجوزي

ذهب سهل إلى أن الجار ذي القربى هو القلب، والجار الجنب هو النفس، وابن السبيل هو الجوارح، وهو واضح التكلف دون دليل؛ لأن سياق الآية يحث على وجوب الإحسان إلى الجار وابن السبيل من الآدميين، ليكون للمسلم روابط مع مجتمعه.

وفي قوله تعالى:

﴿وَهَم بِهَا﴾

(يوسف: ٢٤)

ويقول أبو بكر الوراق: الهمان لها، ويوسف ما هَمّ بها. وهذا خلاف لصريح القرآن الكريم.

وفي قوله سبحانه:

﴿مَا هَذَا بَشَرا﴾

(يوسف: ٣١)

قال محمد بن علي: ما هذا بأهل أن يدعى إلى المباشرة. والتعسف واضح فيه، ولا حاجة للمسلمين بذلك.

وقوله تعالى:

﴿فَلِلهِ الْمَكْرُ جَمِيعا﴾ (الرعد – ٤٢)

قال الحسين الحلاج:

"لا مكر أبين فيه من مكر الحق بعباده، حيث أوهمهم أن لهم سبيلا إليه بحال، أو للحدث اقتران مع القدم؟!"

ويرد عليه ابن الجوزي بما يفيد أن هذا التأويل خطير؛ لأنه كفر محض، وفيه هزء ولعب: "ولكن الحسين هذا هو الحلاج، وهذا يليق بذاك[1]".

وقل مثل هذا في تأويل الحلاج لقوله تعالى:

﴿لَعَمْرُكَ﴾

(الحجر: ٧٢)

قال: بعمارتك سرك بمشاهدتنا.

ومعظم النماذج السابقة للتأويل الصوفي مما أورده السلمي في تفسيره، ويصف ابن الجوزي هذا التفسير بأنه كفر وخطأ وهذيان، وهو من جنس فكر الباطنية.

غير أننا نلمح فرقًا بين التأويل الباطني والتأويل الصوفي المنحرف؛ فالأول موجه لصالح المذهب الباطن أيا كان، والآخر موجه لصالح المذاهب الصوفية ومبادئها[1]".

---

[1] تلبيس إبليس، ص ٣٣٢

وفي قوله تعالى:

﴿أدعُو إِلى اللهِ عَلى بَصِيرَةٍ﴾

(يوسف: ١٠٨)

يرى الواسطى أن معناه: "لا أرى نفسي" وهو استنباط فيه تكاف شديد وغور غير مقصود في الشرع. فما هكذا يكون الدين معقدا.

وفي قوله تعالى:

﴿لو اطلعتَ عَليهم لوليتَ مِنْهُم فِرَارا﴾

(الكهف: ١٨)

يقولي الشبلى: لو اطلعت على الكل فما سوانا، لوليت منهم فرارا إلينا.

والردُ – كما يرى ابن الجوزي- أن هذا لا يحل؛ لأن الله تعالى إنما أراد أهل الكهف.

وفي قوله عزَ وجل:

---

(1) انظر لنا كتاب "إصلاح النفس" حيث رددنا في المقدمـة الدراسـية على التأويل الباطني الوارد في كتاب الكرماني "الأقوال الذهبيـة"، طبع دار الثقافة العربية، عام ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م.

﴿وَاجنُبنِي وَبَنِي أَن نعبُدَ الأصنَامَ﴾

(إبراهيم: ٣٥)

يرى بعض الصوفية، أنه إنما عنى الذهب والفضة؛ إذ رتبة النبوة أجل من أن يخْشَى عليها، أن تعبد الآلهة والأصنام، وإنما عنى بعبادته: حبه والاغترار به.

وقد ردَ ابن الجوزي على هذا التأويل الخطير، الذي يذهب بظاهر القرآن،فقال:

"وهذا شيء لم يقله أحد من المفسرين،وقد قال شعيب: ﴿وَمَا يَكُونُ لنَا أَن نعُودَ فِيهَا إِلا أَن يَشَاءَ اللهُ رَبنا وَسِعَ رَبنَا﴾ – (الأعراف: ٨٩) ومعلوم أن ميل الأنبياء إلى الشرك أمر ممتنع لأجل العصمة، لا أنه مستحيل، ثم قد ذكر مع نفسه من يُتصوَر في حقه الإشراك والكفر، فجاز أن يدخل نفسه معهم، فقال: ﴿وَاجنُبنِي وَبَنِي﴾ ومعلوم أن العرب أولاده، وقد عبد أكثرهم الأصنام[1]".

---

(1) تلبيس إبليس، ص ٣٣٣

وقد تكلمت طائفة من الصوفية، في نفس القرآن بما لا يجوز، ففي قوله تعالى:

﴿إِن فِي خَلْقِ السمَاوَاتِ وَالأَرضِ وَاخْتِلاَفِ الليلِ وَالنهَارِ لآَيَاتٍ لأُولِي الألْبَابِ﴾

(آل عمران: ١٩٠)

فقالوا: هم لآيات لي، فأضافوا إلى الله تعالى ما جعله لأولي الألباب، وهذا تبديل للقرآن. وقالوا في **﴿وَلِسُلَيمَانَ الريحَ﴾** (سبأ: ١٢): ولي سليمان.

ومن التأويل غير المقبول، ما ذهب إليه أبو حمزة الخراساني قال: قد يقطع بأقوام في الجنة، فيقال:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسلَفْتُم فِي الأيامِ الْخَالِيَةِ﴾

(الحاقة: ٢٤)

فشغلهم عنه بالأكل والشرب، ولا مكر فوق هذا، ولا حسرة أعظم منه.

وقد تولى ابن الجوزي الردّ على ذلك باستفاضة، حيث يقول: "انظروا وفقكم الله، إلى هذه الحماقة، وتسمية المنعم به مكرا، وإضافة المكر بهذا إلى الله سبحانه وتعالى".

ثم يأتي ضده بدليل آخر:

"وعلى مقتضى قول هذا أن الأنبياء لا يأكلون ولا يشربون، بل يكونون مشغولين بالله عزّ وجل. فما أجرأ هذا القائل على مثل هذه الألفاظ القباح".

ثم يورد ابن الجوزي المعنى الذي يليق بالخالق عزّ وجل، فيقول: "وهل يجوز أن يوصفَ الله عزّ وجل بالمكر على ما نعقله من معنى المكر، وإنما معنى مكره وخداعه أنه مجازي الماكرين والخادعين".

وأخيرا يتعجب فيقول:

"وإني لأعجب من هؤلاء، وقد كانوا يتورعون من اللقمة والكلمة، كيف انبسطوا في تفسير القرآن، إلى ما هذا حدُه[1]".

---

[1] المصدر نفسه، ص ٣٣٤

ثم يورد ابن الجوزي حديثين شريفين هنا. الأول عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ:

"من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ".

وفعلاً أخطأ كثير من هؤلاء الذين أوَّلوا بالعاطفة الصوفية وحدها، دون مستند شرعي.

والآخر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

"من قال في القرآن برأيه، فليتبوأ مقعده من النار".

وعلى كل حال فإن كتب "التفسير بالرأي" يغلب عليها الطابع الشخصي أو المذهبي، حتى أن التفسير ليتلون بلون صاحبه[1].

وأنكر ابن الجوزي إنكارا شديدا على من انحرفوا بتفسير المكر بالنسبة لله عزَّ وجل، وذكر أنه اقشعر من أحدهم حين أتى زملاءه الصوفية برقعة مكتوب فيها:"مكار مكار،وكلكم تدَّعون حبه" وأوهمهم أنه وجدها هكذا على هيئة رسالة من

---

(1) د. يوسف القرضاوي: ثقافة الداعية، ص ٣٨

الله تعالى، هذا وإن لفظ "مكار" هذا فوق الجهل وفوق الحماقة.

ومثله قول رويم:"إن الله غيب أشياء في أشياء: غيب مكره في علمه، وغيب خداعه في لطفه، وغيب عقوباته في باب كراماته[1]".

وهذا تخليط من جنس ما سبق، وجرأة مذمومة، تدل على جهل بالدين وبالتصوُّف معا، ومثله ما روي من أنه خرج أبو يزيد لزيارة أخ له، فلما وصل إلى نهر جيحون، التقى له حافتا النهر، فقال: سيدي، إيش هذا المكر الخفي، وعزتك ما عبدتك لهذا، ثم رجع ولم يعبر.

وأيضا يقول أبو يزيد – وقوله باطل:

"من عرف الله عزَ وجل، صار للجنة بوابا، وصارت الجنة عليه وبالاً".

ومن تعليق ابن الجوزي على ذلك قوله:

"وهذه جرأة عظيمة في إضافة المكر إلى الله عزَ وجل، وجعل الجنة التي هي نهاية المطالب وبالاً، وإذا كانت وبالاً

---

[1] تلبيس إبليس، ص ٣٣٥

للعارفين فكيف تكون لغيرهم؛ وكل هذا منبعه من قلة العلم وسوء الفهم[1]".

وذهب أبو يزيد أيضا إلى أن العارفين في زيارة الله تعالى فى الآخرة على طبقتين:

طبقة تزوره متى شاءت وأنى شاءت، وطبقة تزوره مرة واحدة، ثم لا تزوره بعدها أبدا. فقيل له: كيف ذلك؟ قال:

"إذا رآه العارفون أول مرة، جعل لهم سوقًا ما فيه شراء ولا بيع، إلا الصور من الرجال والنساء. فمن دخل منهم السوق، لم يرجع إلى الله أبدا".

ثم يقول أبو زيد:

"في الدنيا يخدعك بالسوق، وفي الآخرة يخدعك بالسوق، فأنت أبدا عبد السوق[2]".

ويتلخص ردُّ ابن الجوزي عليه فيما يلي:

١- من القبح تسمية ثواب الجنة خديعة وسببا للانقطاع عن الله عزَّ وجل.

---

(1) نفس المكان

(2) نفس المكان

٢- يجعل الله تعالى لهم السوق ثوابا لا خديعة.

٣- إذا أذن لهم في أخذ ما في السوق، ثم عوقبوا بمنع الزيارة؛ فقد صارت المثوبة عقوبة.

٤- من أين لأبي يزيد أن من اختار شيئًا من ذلك السوق، لم يعد إلى زيارة الله تبارك وتعالى، ولا يراه أبدا؟ فهذا إخبار عن مغيبات لا يعلمها إلا نبي.

٥- قال أبو هريرة لسعيد بن المسيب: جمعني الله وإياك في سوق الجنة.أفتراه طلب ترك العقوبة بالبعد عن الله عزَّ وجل!

ثم يوضح ابن الجوزي علة هذا الخطأ كله فيقول:

"لكن بعد هؤلاء عن العلم، واقتناعهم بواقعاتهم الفاسدة، أوجب هذا التخليط، وليعلم أن الخواطر والواقعات، إنما هي ثمرات علمه، فمن كان عالما كانت خواطره صحيحة؛ لأنها ثمرات علمه،ومن كان جاهلاً فثمرات الجهل كله حظه[1]".

---

(1) نفس المصدر لابن الجوزي، ص ٣٣٦، وانظر ما قبلها.

ولعل مصدر الجهل هنا راجع إلى أن هؤلاء الصوفية، أخذوا في البحث بجانب من الحقيقة أو رؤية واحدة، وكان الواجب على الواحد منهم – باعتباره باحثًا – أن يأخذ الحقيقة كاملة؛ لأن اجتزاءها أو بترها جريمة نكراء[1]، حذر منها القرآن الكريم، في قوله تعالى:

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً﴾

(النساء: ١٥٠)

ونقول: ليت أصحاب التأويل الصوفي، سلكوا في التفسير منهج ابن تيمية، الذي ارتضاه تلميذه ابن القيم، ونحن نرتضيه كذلك؛ لما فيه من عمق الفهم وتوضيح مقاصد الشرع. فقد حكى ابن القيم قال:

"كثيرا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية ... يقول: (إياك نعبد) تدفع الرياء (وإياك نستعين) تدفع الكبرياء".

---

[1] د. محمد عبد الله الشرقاوي: في الفلسفة العامة – دراسة ونقد، ص ٢١٠، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م، مكتبة الزهراء بالقاهرة

ويأخذ ابن القيم هذه الفكرة ويبني عليها أنه إذا عوفي من مرض الرياء بـ (إياك نعبد)، ومن مرض الكبرياء والعجب بـ (إياك نستعين)، ومن مرض الضلال والجهل بـ (اهدنا الصراط المستقيم) – عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المنعم عليهم (غير المغضوب عليهم) وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحق لسورة تشتمل على هذين الشفاءين: أن يستَشْفَى بها من كل مرض[1].

***

وقد طالعت كتاب "**إعجاز البيان في تأويل أم القرآن**" لمؤلفه أبي المعالي صدر الدين القونوي.

فوجدت الكتاب مليئًا بالفكر العميق، الذي يحتاج إلى التأني في استيعابه، والتدقيق في مراميه؛ مما يدل على أن هناك نماذج طيبة للتفسير الصوفي، غير ما أوردته عند ابن القيم.

---

(1) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، ١: ٥٤

وكم توقفت فيه عند أشياء ظننت أنها خارجة عن أصول الإسلام، فإذا به يفاجئني باستدلالات من الكتاب والسنة، مع فقه عميق لهذه الاستدلالات!

وليس هناك ما يمنع من الاختلاف معه، لكنني لاحظت أن الكتاب كله – وهو ليس بالقصير – يدور حول بحث الألوهية وتمجيدها إلى أقصى حد، من خلال تفسير البسملة من الفاتحة.

وهنا أدركت أنه لا يجوز ضرب التفسير الصوفي كله بعصا واحدة، بل لا بد من طرح الشاذ، والإفادة من الطيب.

ولعل الذين هاجموا التفسير الصوفي كله، لم تقوَ عقولهم على هضم الجيد منه؛ فسلكوا الطريق الأسهل، حين أراحوا أنفسهم من عناء التفكير الجاد فيه حيث ضربوا عنه صفحا، وصنفوه في دائرة الكفريات، وسوف أقدم هنا نصين من هذا الكتاب كنموذج منه:

النص الأول في تمجيد رسالة محمد ﷺ ومدى تميزها، قال:

"وليس في الرسل من صدرت رسالته عن الاسم "الله" الجامع لسائر مراتب الأسماء والصفات، المستوعب

لأحكامها، إلا رسالة نبينا ﷺ، فهو عبد الله ورسوله، كما أشار إليه ﷺ [1]".

والنصُ الآخر في الحديث حول "علم الله تعالى" ومدى استمداد الإنسان منه. يقول:

"إن من عرف الأشياء بالله وحده، فله نصيب من علم الله؛ لأنه علم الأشياء التي شاء الحق أن يعلمها بما علمها به الله، والتنبيه على ذلك في الكتاب العزيز قوله:

﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ من عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ﴾

(سورة البقرة: ٢٥٥)

وفي الحديث:

"فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يعقل[2]".

***

[1] القونوي (أبو المعالي صدر الدين): إعجاز البيان في تأويل أم القرآن، ص٤٣٢، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م، دار الكتب الحديثة بالقاهرة.

[2] المصدر نفسه، ص ٤٣٧

ولم يقف التأويل الصوفي – حقًا كان أم باطلاً – عند تأويل القرآن الكريم، بل وقع أيضا في الحديث، وما قلنا في تأويل القرآن ينسحب أيضا على الحديث، وسوف نعرض عن ذلك بعض الأمثلة.

فقد كان لبعض الصوفية تهاون في الحديث النبوي، مثلما روي عن أبي تراب النخشبي، أنه سمع أحمد بن حنبل يقول: فلان ضعيف، وفلان ثقة. فقال أبو تراب: يا شيخ لا تغتب العلماء! فالتفت إليه أحمد وقال له: ويحك هذه نصيحة، ليست غيبة. وإذا كان الإمام أحمد قد استطاع أن يرد؛ فلأنه من العلماء العظام، أما سواه فكان يستجيب لمثل هذا الرأي ويتخاذل.

وكان عبد الرحمن بن أبي حاتم، يقرأ على بعض أصحابه كتاب الجرح والتعديل، وكان يتحدث عن بعض الرواة من ناحية الثقة وعدمها؛ فتصدى له صوفى هو أبو يوسف بن الحسين وقال له:

"استحييت إليك يا أبا محمد، كم من هؤلاء القوم قد حطوا رواحلهم في الجنة منذ مائة سنة أو مائتي سنة، وأنت تذكرهم وتغتابهم على أديم الأرض".

والغريب في الأمر أن عبد الرحمن استجاب للكلام وبكى وقال: "يا أبا يعقوب لو سمعت هذه الكلمة، قبل تصنيفي هذا الكتاب، لم أصنفه".

وقد عزا ابن الجوزي هذه التصرفات، إلى قلة العلم والفقه، وكذا عدم إدراك قيمة الجرح والتعديل في خدمة السنة، فقال:

"عفا الله عن أبي حاتم، فإنه لو كان فقيها لردَ عليه، كما ردَ الإمام أحمد، على أبي تراب، ولولا الجرح والتعديل من أين كان يعرف الصحيح من الباطل؟ ثم كون القوم في الجنة، لا يمنع أن تذكرهم بما فيهم، وتسمية ذلك غيبة حديث سوء، ثم من لا يدري الجرح والتعديل، كيف هو يزكي كلامه! "[1].

***

وهناك مخالفات أخرى في التأويل سجلت على بعض الصوفية، مما له صلة "بالتوحيد" وهذه نماذج منها:

قال أبو العباس بن عطاء:

---

(1) تلبيس إبليس، ص ٣٣٧

"من عرف الله أمسك عن رفع حوائجه إليه، لما علم أنه العالم بأحواله[1]".

والحق أن هذا مخالف للدين؛ لأنه سدٌ لباب السؤال والدعاء، وهو جهل بالعلم، وقد طلب سبحانه من عباده أن يدعوه فقال:

﴿ادعُونِي أَستَجِب لَكُم﴾

(غافر: ٦٠)

وكان النبي ﷺ يدعو الله تعالى كثيرا، وليس في الناس أفضل منه. وقد أجاب الله دعاءه كله[2].

وسمع الشبلي، وقد سأله شاب: يا أبا بكر، لم تقول: "الله"، ولا تقول: " لا إله إلا الله" فقال الشبلى: أستحي أن أوجه إثباتًا بعد نفي، فقال الشاب: أريد حجة أقوى من هذه، فقال: أخشى أني أؤخذ في كلمة الوجود، ولا أصل إلى كلمة الإقرار.

---

(1) نفس المكان

(2) الماوردي: أعلام النبوة، ص ٩٨، ط١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦، دار الكتب العلمية، بيروت.

ونجد ابن الجوزي يسخر من موقف الشبلي، فيقول:

"انظروا إلى هذا العلم الدقيق، فإن رسول الله ﷺ، كان يأمر بقول: لا إِلَهَ إِلا اللهُ، ويحث عليها[(1)]".

وفي الصحيحين أنه كان ﷺ يقول في دبر كل صلاة:

" **لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ** ".

وكان يقول إذا قام لصلاة الليل:

" **لا إِلَهَ إِلا أَنتَ**".

كما ورد ذكر الثواب العظيم لمن يقول: **لا إِلَهَ إِلا اللهُ.** فما ذهب إليه الشبلي وأمثاله، إنما هو تعاطٍ على الشريعة، واختيار ما لم يختره رسول الله ﷺ. لكن لا بد أن يعلم هنا، أن الجبر هو الأصل الجامع لاتجاهات الصوفية، فالصوفي منقاد للحق، فليس للحوادث أثر عليه بحال[(2)].

---

(1) نفس المكان من تلبيس إبليس.

(2) د. أحمد محمد صبحي: الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، ص ٢٢٧ وما بعدها، ط٢، ١٩٨٣ م، دار المعارف بمصر.

وقد شهد بعضهم على النوري، أنه سمع أذان المؤذن، فقال: طعنه سم الموت. وسمع نباح كلب، فقال: لبيك وسعديك.

فقيل له في ذلك، فقال: إن الرجل المؤذن أغار عليه أن يذكر الله وهو غافل عن ذكر الله، ومتلوث بالمعاصي، ويأخذ عليه الأجرة، ولولاها ما أذن، فلذلك قلت: طعنه سم الموت. والكلب يذكر الله عز وجل بلا رياء، فإن الله قد قال: **﴿وَإِن من شَيءٍ إلا يُسَبحُ بِحَمدِهِ﴾**

(الإسراء: ٤٤)

ويسخر ابن الجوزي من النوري قائلاً:

"انظروا إخواني – عصمنا الله وإياكم من الزلل – إلى هذا الفقه الدقيق، والاستنباط الطريف[1]".

ورأى النوري رجلاً قابضا على لحية نفسه، فقال له: "نح يدك عن لحية الله" ولما سأله الخليفة عن معنى ذلك قال: أليس العبد لله ولحيته لله، وكل ما في الدنيا والآخرة له!

ويقول ابن الجوزي:

---

(1) تلبيس إبليس، ص ٣٣٨

"قلت: عدم العلم أوقع هؤلاء في التخبيط، وما الذي أحوجه إلى أن يوهم أن صفة الملك صفة الذات[1]".

وسئِلَ الشبلي عن المعرفة فقال: ويحك، ما عرف الله من قال: "الله" والله لو عرفوه ما قالوه. وهذا هذيان شديد مهما أُرِيدَ به خيرا.

وسأل الشبلي يوما رجلاً: ما اسمك؟ قال: آدم. قال الشبلي: ويلك، أتدري ما صنع آدم؟ باع ربه بلقمة.

وهذا كلام لا يليق بمقام الأنبياء عليهم السلام.

وهناك حكايات أخرى لا تحتاج إلى تعليق؛ لوضوح الباطل فيها، فقد حكِي أنه كان للشبلي جليس، فأعلمه أنه يريد التوبة، فقال: بع مالك، واقضِ دينك، وطلق امرأتك. ففعل. فقال: أيتم أولادك بأن تؤيسهم من التعلق بك، فقال: قد فعلت. فجاء بكسر قد جمعها. فقال: اطرحها بين يدي الفقراء وكُلْ معهم.

وفي هذا خروج صريح على السنن الشرعية والفطرية.

---

(1) نفس المكان.

ومن الطرائف أن الشبلي رأى في الحمام شابا بلا مئزر، فقال له يا غلام: ألا تغطي عورتك! فقال له: اسكت يا بطال: إن كنت على الحق فلا تشهد إلا الحق، وإن كنت على الباطل فلا تشهد إلا الباطل؛ لأن الحق مشتغل بالحق، والباطل مشتغل بالباطل.

ونلاحظ أن الشاب والصوفي جانبهما الصواب معا.

ووقفت امرأة صوفية تقاضي زوجها الصوفي، أمام أحد قضاة شيراز، وقالت للقاضي: أيها القاضي، إن هذا زوجي، ويريد أن يطلقني، وليس له ذلك، فإن رأيت أن تمنعه.

ولما سألها القاضي – بعد أن حنق على مذاهب الصوفية– عن العلة في أن زوجها ليس له أن يطلقها. قالت:

لأنه تزوج بي ومعناه قائم بي، والآن وهو يذكر أن معناه قد انقضى مني، وأنا معناي قائم فيه ما انقضى؛ فيجب عليه أن يصبر حتى ينقضي معناي منه، كما انقضى معناه مني، فأصلح القاضي بينهما.

وكل هذه الطرائف والغرائب، تشير إلى أن معنى التصوُّف قد أسيء فهمه تارة، وأسيء تطبيقه تارة أخرى،

لدى الصوفية أنفسهم، وهو على كل حال جهل وتخلف عن الدين.

ويقف ابن الجوزي موقفًا عادلاً، من المبالغات في مجال التوحيد والربوبية، حتى ولو صدرت من حجة الإسلام الغزالي، الذي قال:

"للربوبية سرٌ لو أُظْهِرَ بطلت النبوة، وللنبوة سرٌ لو كُشِفَ لبطل العلم، وللعلماء سرُ لو أظهروه لبطلت الأحكام".

بطلان النبوة، ثم العلم، ثم الأحكام الشرعية: كل هذا مما يقضي على صبر الحليم، وقد أمرنا بالتيسير لا التعسير؛ ولذا قال ابن الجوزي:

"فانظروا إخواني، إلى هذا التخليط القبيح، والادعاء على الشريعة، أن ظاهرها يخالف باطنها[1]".

وورد أن الغزالي قال: ضاع لبعض الصوفية ولد صغير، فقيل له: لو سألت الله أن يرده عليك، فقال: اعتراضي عليه فيما يقضي أشد عليَّ من ذهاب ولدي.

---

(1) تلبيس إبليس، ص ٣٣٩

ويقول ابن الجوزي مبينًا خروج ذلك على مبادئ الدين:

"لقد طال تعجبي من أبي حامد، كيف يحكي هذه الأشياء، في معرض الاستحسان والرضا عن قائلها، وهو يدري أن الدعاء والسؤال ليس باعتراض[1]".

وهل هذا الصوفي أفضل من الأنبياء الذين دعوا الله تعالى؛ فكشف عنهم ضرَّهم. مثل أيوب ويعقوب عليهما السلام.

ومما يحكى هنا، أن يهوديا، أراد أن يعلن إسلامه، لدى أبي سعيد الخير الصوفي، فمنعه من الإسلام، فلما عاتبه الناس، قال لليهودي، تريد الإسلام ولا بد؟ قال نعم.قال له: برئت من نفسك ومالك. قال: نعم، قال: هذا الإسلام عندي، احملوه الآن إلى الشيخ أبي حامد – يبدو أنه الغزالي – يعلمه: إلا، المنافقين – يعني: لا إله إلا الله!

وهذا الكلام لا يرضاه عقل ولا نقل، وهو – كما قال ابن الجوزي – أظهر عيبا من أن يعاب، فإنه في غاية القبح[1].وهو جهل بمنهج الإسلام ومنهج التصوُّف الحق.

---

[1] نفس المصدر،ص ٣٤٠

٨- المقامات الصوفية

تمهيد في الفرق بين المقام والحال:

المقام معناه: "مقام العبد بين يدي الله عزّ وجل، فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات، والانقطاع إلى الله عزّ وجل[2]".

قال الله تعالى:

﴿ذَلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾

(إبراهيم: ١٤)

وقال عزّ من قائل:

﴿وَمَا مِنا إلا لَهُ مَقَام معلُوم﴾

(الصافات: ١٦٤)

وسئِلَ أبو بكر الواسطى عن قول النبي ﷺ:

"الأرواح جنود مجندة".

---

(1) نفس المكان

(2) السرَاج الطوسي: اللمع، ص ٦٥

(البخاري عن عائشة، والإمام أحمد ومسلم عن أبي هريرة). فقال "مجندة" على قدر المقامات.

والمقامات مثل: التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضا، وقد اختلف الباحثون في عددها، لكننا سنقتصر على الأهم منها وهي السبعة المذكورة.

ولا بد للمريد من مقامات، وأن تكون مؤسسة على العقيدة الخالصة؛ وهذا يستلزم البراءة من الرفض، والاعتزال، والجبر، والتعصب، والجدال[1].

وأشار الكاشاني (المتوفى عام ٧٣٠ هـ)، إلى أن المقام:

"هو استيفاء حقوق المراسم، فإن من لم يستوفِ حقوق ما فيه من المنازل، لم يصح له الترقي إلى ما فوقه، كما أن من لم يتحقق بالقناعة، حتى تكون له ملكة، لم يصح

---

[1] ابن عربي (محيي الدين، المتوفى عام ٦٣٨ هـ): تحفة السفرة إلى حضرة البررة، ص٧٥، تحقيق: محمد رياض المالح، دار الكتـاب اللبناني، بيروت "بدون تاريخ".

له التوكل، وهلم جرا"[1].

وهو ينصح المريدين هنا بأداء المراسم أي حقوق الشريعة، سواء منها ما تعلق بالظاهر كالعبادات، أو الباطن كالتقوى والتوكل وغيرهما، كما يرى أنه سمي المقام مقاما لإقامة السالك فيه، فلا يجوز له مثلاً أن يتخلى يوما عن التقوى أو التوكل.

فالمقام مكتسب بالأعمال الصالحة، ولا يتأتى للإنسان إلا بعد التعب والعناء والكد والعمل وثبات الإرادة وصدق العزيمة، ومن يزعم أن الله تعالى أكرمه وأنعم عليه، من غير الأخذ بتعاليم الشرعية، فهو مدعٍ وجاهل بالدين والتصوُّف معا.

فلا بد من عناية الصوفي بالمقام، أي مقام العبد بين يدي الله فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات؛ كي يصل إلى المعرفة بالله تعالى التي هي نهاية الطريق[2].

---

(1) الكاشاني (عبد الرازق): اصطلاحات الصوفية، ص ٥٤، مصطلح رقم ٢١٣، بتحقيقنا عام ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية بالقاهرة.

(2) د. أبو الوفا التفتازاني: مدخل إلى التصوُّف الإسلامي، ص ٣٨

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود في توضيح معنى المقام، وهو يلخص معنى ما سبق: "**المقامات: هي المنازل الروحية التي يمرُ بها السالك إلى الله، فيقف فيها فترة من الزمن مجاهدا في إطارها؛ حتى يهيئ الله سبحانه وتعالى له سلوك الطريق إلى المنزل الثاني، لكي يتدرج في السمو الروحي من شريف إلى أشرف، ومن سامٍ إلى أسمى، وذلك مثلاً كمنزل "التوبة" الذي يهيئ إلى منزل "الورع"، ومنزل "الورع" الذي يهيئ إلى منزل "الزهد"، وهكذا حتى يصل الإنسان إلى منزل "المحبة"، إلى منزل "الرضا"، وهذه المنازل لا بد لها من جهاد وتزكية؛ ولذلك يقولون عنها: إنها مكتسبة، إنها اجتهاد في الطاعة، ومواصلة في التسامي في تحقيق العبودية لله سبحانه!**"[1].

أما الحال:

فيعرِّفه الكاشاني بقوله:

"**الحال ما يَردُ على القلب بمحض الموهبة، من غير تعمل أو اجتناب، كحزن أو خوف أو بسط أو قبض أو شوق**

---

[1] له: أبحاث في التصوُف، ص ١٨٩

أو ذوق، فإذا تمَ وصار ملكة سُمي مقاما[1]".

ومن أمثلة الأحوال: المراقبة، القرب، المحبة، الخوف، الرجاء، الشوق، الأنس، الطمأنينة، المشاهدة، اليقين. وهي التي سنقتصر على دراستها.

إذن فمعنى الحال هو ما يحل في القلوب، أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار، والصوفية يفضلون كتمان العلوم الحاصلة عن ذلك، لما فيها من الغرابة، وكان الحسن البصري يغلق بابه، ويتحدث مع كل واحد من إخوانه في مواجيده وذوقه[2].

يقول الجنيد:الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم، وقال غيره: إن الحال هو الذكر الخفي، لقوله ﷺ:

"خير الذكر الخفي".

(رواه أحمد وغيره)

---

(1) اصطلاحات الصوفية، ص ٣٠، مصطلح رقم ١٠٩

(2) الشـعراني: مـنح المنـة فـي التلـبس بالسـنة، ص ٢٣، ط١، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م، مكتبة عالم الفكر بالقاهرة.

فليس الحال من طريق المجاهدات والعبادات والرياضات مثل المقامات.

يقول أبو سليمان الداراني:

إذا صارت المعاملة إلى القلوب، استراحت الجوارح.

ومعناه: أنه يتمكن من المجاهدة والأعمال والعبادات، وتصير وطنه، حتى يستلذها بقلبه، ويجد حلاوتها، ويسقط عنه التعب، ووجود الألم الذي كان يجد قبل ذلك.

وهذا كما قال محمد بن واسع: كابدت الليل عشرين سنة؛ فتنعمت به عشرين سنة.

وقال مالك بن دينار: مضغت القرآن عشرين سنة، ثم تنعمت بتلاوته عشرين سنة[1].

إن الحال لا يثبت، وسمي حالاً لتحوله؛ فهو موهبة من الله تعالى، وهو خاطر يمرُّ في نفس السالكين على الله تعالى، ولكنه لا يدوم إلا لحظات قليلة، فهو إلهام من الله عزَّ وجل وهمس في الضمير دون اكتساب، لكنه لا شك نابع من العمل بالشريعة.

---

[1] الطوسي: اللمع. ص ٦٦ - ٦٧

والحال قد يحل في القلوب، أو تحل به القلوب، من صفاء الأذكار، فهو وارد دون تَعمل[1]، وهذا الوارد نسمات روحية تهبُّ على السالك؛ فتنتعش بها نفسه لحظات خاطفة، ثم تمرُّ تاركة عطرا، تتشوق إليه الروح ثانيا، وذلك مثل حال الأنس بالله تعالى[2].

وسوف نبدأ بدراسة موجزة عن بعض المقامات والأحوال، بأمر الله تعالى.

---

(1) د. أبو الوفا: مدخل.. ص ٣٩

(2) د. عبد الحليم محمود: أبحاث في التصوف، ص ١٨٩

المقامات

١- مقام التوبة:

إن التوبة هي أول مقام من مقامات المنقطعين إلى الله تعالى، ومعنى التوبة: الرجوع من كل شيء ذمه العلم، إلى ما مدحه العلم، والمراد بالعلم: معرفة عظم الذنوب وكونها حجابا بين العبد وربه[1].

وفسر سهل التوبة فقال: "ألا تنسى ذنبك" وعلى العكس منه قال الجنيد: " التوبة نسيان ذنبك" فكل منهما عبر عن وجهة نظره، ولكل رأي وجاهته.

ذلك أن عدم نسيان الذنب توبة المريدين، وهم الذين تارة لهم وتارة عليهم.

أما نسيان الذنب، فهو توبة المتحققين؛ فهم لا يذكرون ذنوبهم، لما غاب على قلوبهم من عظمة الله تعالى ودوام ذكره؛ ولهذا سماها رويم "التوبة من التوبة".

---

[1] الإحياء، ٤: ٣.

وقال ذو النون. " توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة" كما يرى أن رياء العارفين إخلاص المريدين. ويقول الطوسي في هذا:

"شتان بين تائب وتائب: فتائب يتوب من الذنوب والسيئات، وتائب يتوب من الزلل والغفلات، وتائب يتوب من رؤية الحسنات والطاعات[1]".

وأطلق ابن القيم، على مقام التوبة منزل التوبة، ورأى أنه أول المنازل، مثلما رأى الطوسي أنه أول المقامات، فلا فرق هناك في التسمية.

لكن ابن القيم يضيف كذلك، أن منزل التوبة أوسط المنازل وآخرها، بالإضافة إلى أنه أولها؛ ذلك أن العبد السالك لا يفارقه، ولا يزال فيه إلى الممات، وإن ارتحل إلى منزل أو مقام آخر ارتحل به، واستصحبه معه ونزل به. ويقول ابن القيم:

"فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك[1]".

---

[1] اللمع،ص ٦٩، وانظر ص ٦٨

قال الله تعالى:

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعا أَيهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلكُم تُفْلِحُونَ﴾

(النور: ٣١)

وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه، أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، وعلقت الآية الفلاح بالتوبة، تعليق السبب بسببه، وجاءت بأداة "لعل" المشْعِرَة بالترجي، إيذانًا بأن من تاب كان على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون.

وقال تعالى:

﴿يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوبَةً نصُوحا﴾

(التحريم: ٨)

ومعنى النصوح: الخالص لله تعالى، خاليا من الشوائب[2].

وقال عزَ من قائل:

﴿وَمَن لم يَتُب فَأُولئِكَ هُمُ الظالِمُونَ﴾

(الحجرات: ١١)

---

(1) مدارج السالكين، ١: ١٧٨

(2) الإحياء، ٤: ٥.

فقسم سبحانه العباد إلى تائب وظالم، وما ثَمَّ قسم ثالث ألبتة، وأوقع سبحانه اسم "الظالم" على من لم يتب، ولا أظلم منه؛ لجهله بربه، وجهله بعيب نفسه وآفات عمله.

كذلك فاضت السنة النبوية بوجوب التوبة وفضلها:

فعن ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال:

"**يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة**[1]".

(لفظ أحمد، وانفرد بإخراجه مسلم)

وفي رواية أخرى أنه ﷺ قال:

"**يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**[2]".

وكان أصحاب النبي ﷺ يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم:

"**رب اغفر لي، وتُب علي، إنك أنت التواب الغفور**"، مائة مرة.

---

(1) ابن الجوزي: ذمُّ الهوى، ص ٢١٣

(2) مدارج السالكين، ١: ١٧٨

وما من صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه ﴿**إِذَا جَاءَ نَصرُ اللهِ وَالْفَتْحُ**﴾ إلى آخرها، إلا قال فيها:

"سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. اللهم اغفر لي[(1)]".

وقال ﷺ:

"الندم توبة".

(رواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس، وهو صحيح على شرط الشيخين).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

إن المؤمن إذا أذنب، كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر، صُقِلَ قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي ذكر الله عزَ وجل في كتابه: ﴿كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

(سورة المطففين: ١٤)

(قال الترمذي: هذا حدث حسن صحيح)

وورد في الحديث أيضا ما ينفي الصدأ عن القلب. فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(1) نفس المصدر، ١: ١٧٩

"إن هذه القلوب، تصدأ كما يصدأ الحديد. قيل: يا رسول الله، فما جلاؤها؟ قال تلاوة القرآن[(1)]".

(أخرجه البيهقي في الشعب بسند ضعيف)

والتوبة تستلزم المحاسبة، التي هي: ضبط الحواس ورعاية الأوقات، وعدُّ الذنوب، والاستغفار منها؛ فالمحاسبة تضيق مجال الشيطان.

وإذا عزم المرء على التوبة، ولم يتم له ذلك، فمن واجبه ألا يقنط من رحمة الله تعالى، وأن يحاول مرة بعد مرة.

وأشار ابن القيم رحمه الله تعالى، إلى أن للتوبة فوائد عديدة، ومن أهمها، أنها تثمر له الأحوال الروحية، وهي التي أشار إليها الصوفية. فهو يقول:

"التوبة توجب للتائب آثارا عجيبة من المقامات التي لا تحصل بدونها، فتوجب له من المحبة والرقة واللطف وشكر الله **وحمده والرضا عنه: عبوديات أخر، فإنه إذا تاب إلى** الله **تقبل** الله **توبته، فرتب له على ذلك القبول أنواعا**

---

(1) ابن الجوزي: ذمُّ الهوى، ص ٦٧، ٦٩

من النعم لا يهتدي العبد لتفاصيلها، بل يزال يتقلب في بركتها وآثارها، ما لم ينقضها ويفسدها[(1)]".

هذا وإن التوبة تقتضي مقام الورع، وسيأتي بعده إن شاء الله تعالى.

وبناء على ما تقدَّم من استشهاد الصوفية بالكتاب والسنة في مقام التوبة، وما بعده من المقامات والأحوال، فإننا نستطيع أن نقرر أنه ليس من الإنصاف اتهام كل الصوفية بالمكر، وأنهم يدَّعون الوصول إلى الله بغير واسطة المبعوث بالشرع، مثلما اتهمهم البقاعي بذلك[(2)].

وهنا بعض الاعتراضات التي وجهها ابن الجوزي لبعض الصوفية، الذين غالوا في مواقفهم، في مسألة التوبة.

---

(1) ابن قيم الجوزية (المتوفى سنة ٧٥١هـ):
مفتاح دار السعادة ومنشور ولايـة العلـم والإرادة، ١: ٢٩٤، مكتبـة المتنبي بالقاهرة، دون تاريخ

(2) البقاعي (٨٠٩ – ٨٨٥ هـ): مصرع التصوُّف، أو تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي، ص ٢٠، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن الوكيـل، ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢ م، القاهرة

ومن ذلك استعمالهم الماء الكثير في الوضوء؛ بسبب وسوسة الشيطان لهم، وهذا إسراف منهي عنه، وبعد هذا يصلي ركعتين، ثم يلبس المرقعة. ويسمون هذا توبة.

واحتجوا بحديث ثمامة بن أثال، أن النبي ﷺ، أمره حين أسلم أن يغتسل.

والحق أن ثمامة كان كافرا فأسلم، وإذا أسلم الكافر، وجب عليه الغسل في مذهب بعض الفقهاء، مثل ابن حنبل.

وأما صلاة ركعتين فما أمر بها أحد من العلماء لمن أسلم وليس في حديث ثمامة ذكر صلاة فيقاس عليه.

يقول أبو حامد الشيرازي:

"كان عهدي بالصوفية يسخرون من الشيطان، والآن يسخر بهم الشيطان[1]".

فالمسألة بدعة وهم سموها سنة، وليس من حق الصوفية أن ينفردوا بسنة دون المسلمين؛ لأنها أن كانت منسوبة إلى الشرع، فالمسلمون فيها سواء، والفقهاء أعرف الناس بها،

(1) تلبيس إبليس، ص ١٧٤

وإن كانت بآراء الصوفية فإنما انفردوا بها؛ لأنهم هم الذين اخترعوها.

ومن الواضح أن نقد ابن الجوزي هنا، منصبٌ على فئة منحرفة عن التصوُّف الحق، وليس منصبا على حقيقة التصوُّف الصحيح، وعلى هذا يحملُ قوله أيضا:

"والعجب ممن يبالغ في الاحتراز إلى هذا الحد، متصفًا بتنظيف ظاهر، وباطنه بالوسخ والكدر[1]".

ونودُّ أن نلفت النظر إلى نقطة هامة هنا في مجال الإصلاح، وهي أنه لا بد من النظر في حال المذنب، فربما ساءنا منه فعل، لكن بقية أفعاله قد تسرُّ وتفيد، ومن الجائز أن يكون قد تاب من ذنبه دون أن تعلم؛ فصار بالتوبة أفضل ممن تعرَّض له باللوم والانتقاد[2].

---

(1) نفس المكان.

(2) د. محمود محمد عمارة: من الذي يغير المنكر، وكيف؟ ص ١٦٠، من العدد الثالث عشر. المحرم ١٤٠٧ هـ - سبتمبر ١٩٨٦م، سلسلة رسالة الإمام – وزارة الأوقاف بمصر – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

إن الذين خرجوا عن مفهوم التوبة من الصوفية، يجب ردُهم إلى تعاليم الإسلام، مثلما فعل ابن الجوزي في هذا المقام، فلا يجوز لصوفي أن يذهب إلى رأي لا مستند له من الكتاب والسنة.

وهناك صوفية ذهبوا إلى آراء في هذا، ولهم مستند من نصوص الدين، وقد أشار الإمام الغزالي إلى شي من هذا؛ إذ يقول بعض العارفين عن وجوب السرعة في التوبة من الذنوب.

"أن ملك الموت ﷺ، إذا ظهر للعبد، أعلمه أنه بقي من عمرك ساعة، وأنك لا تستأخر عنها طرفة عين، فيبدو للعبد من الأسف والحسرة، ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى؛ ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه فلا يجد إليه سبيلاً"[1].

وهذا هو أول ما يظهر من معاني قوله تعالى:

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُم وَبَينَ مَا يَشْتَهُونَ﴾

(سبأ: ٥٤)

---

[1] الإحياء، ٤: ١٢

وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَأَنفِقُوا مِن مَا رَزَقْنَاكُم مِن قَبلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوتُ فَيَقُولَ رَبِ لَولاَ أَخرتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصدقَ وَأَكُن مِنَ الصالِحِينَ. وَلَن يُؤَخرَ اللهُ نَفْسا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِير بِمَا تَعمَلُونَ﴾

(المنافقون: ١٠ – ١١)

وقيل إن الأجل القريب الذي يطلبه معناه: إنه يقول عند كشف الغطاء للعبد: " يا ملك الموت، أخرني يوما أعتذر فيه إلى ربي وأتوب وأتزود صالحا لنفسي. فيقول: فنيت الأيام فلا يوم. فيقول: فأخرني ساعة، فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة؛ فيغلق عليه باب التوبة، فيتغرغر روحه وتتردد أنفاسه في شراسفة، ويتجرع غصة اليأس من التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر[1]".

٢- مقام الورع:

إن مقام الورع مقام شريف؛ لما في من مجانبة الحرام في كل صوره، ومراعاة الله عزّ وجل.

---

(1) نفس المكان

وكان بعض الصوفية يتخدد وجهه بالبكاء على ذنب صغير وقع منه. كما فيهم من لا يخشى اقتراف الجرائم في الخفاء، والظهور أمام الناس وهو يغمغم بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والروايات اللدنية.

وجاء قي الحديث الشريف:

"ملاك دينكم الورع" أو "خير دينكم الورع".

(رواه السيوطي والبزار والطبراني في الأوسط)

وقال ﷺ:

"الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات واقع الحرام، كالراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه".

(متفق عليه من حديث النعمان بن بشير)

وجعل الإمام الغزالي "الورع" من شروط الإمامة؛ لأن هذا الورع أعزُّ الصفات وأجلها وأولاها بالرعايات، وهو أجدرها، وهو أيضا وصف ذاتي لا يمكن استعارته ولا الوصل إلى تحصيله من جهة الغير. فيقول أبو حامد:

"الورع هو الأساس والأصل، وعليه يدور الأمر كله، ولا يغني فيه ورع الغير، وهو رأس المال ومصدر جملة الخصال، ولو اختل هذا – والعياذ بالله! – لم يبق معتصم في تحقيق الإمامة[1]".

وأهل الورع ثلاث طبقات:

١- منهم من يتورع عن الشبهات التي اشتبهت عليه، وهي ما بين الحرام البين والحلال البين، وما لا يقع عليه اسم حلال مطلق ولا اسم حرام مطلق فيكون بين ذلك؛ فيتورع عنهما.

قال ابن سيرين: ليس شيء أهون عليَّ من الورع؛ إذا رابني شيء تركته.

وهذا ورع العموم، لقوله ﷺ:

"دع ما يريبك إلى ما لا يريبك"

(النسائي والحاكم والترمذي من حديث الحسن بن علي)

---

[1] الغزالي: فضائح الباطنية، ص ١٨٧، تحقيق وتقديم: د. عبد الرحمن بدوي، طبع ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤ م، نشر الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة.

٢- ومنهم من يتورع عما يقف عنه قلبه ويحيك في صدره عند تناول الشبهات، وهذا لا يعرفه إلا أرباب القلوب والمتحققون، ففي الحديث:

"الإثم ما حاك في صدرك".

(أحمد ومسلم والترمذي عن النواس بن سمعان، والبخاري في الأدب المفرد)

قال أبو سعيد الخرَّاز: الورع أن تتبرأ من مظالم الخلق من مثاقيل الذر، حتى لا يكون لأحدهم قِبلَك مظلمة ولا دعوى ولا طلبة.

وكما حكِي عن الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى، أنه كان لا يمد يده إلى طعام فيه شبهة.

وسئِلَ سهل بن عبد الله، عن الحلال، فقال:

"الحلال الذي لا يعصى الله فيه، والحلال الصافي الذي لا ينْسى الله فيه".

والذي لا يعصى الله فيه لا يتهيأ لأحد الوقوف عليه، إلا بإشارة القلب؛ فهذا ورع الخصوص.

ومن الأصول الدالة على ذلك، قول النبي ﷺ لوابصة:

"استفتِ قلبك، وإن أفتاك المفتون".

(أحمد عن وابصة بسند حسن)

وهذا ورع الخصوص أو المتقين، والمراد هنا قلب العالِم. فيقول الغزالي:

"لا يعول على كل قلب، فرب موسوس ينفر عن كل شيء، ورب شره متساهل يطمئن إلى كل شيء، ولا اعتبار بهذين القلبين، وإنما الاعتبار بقلب العَالِم الموفق المراقب لدقائق الأحوال، وهو المحك الذي يمتحن به خفايا القلوب. وما أعز هذا القلب في القلوب[1]".

٣- الطبقة الثالثة في الورع: "العارفون والواجدون" يقول أبو سليمان الداراني: كل ما شغلك عن الله فهو مشئوم عليك.

ومنه ما أشار إليه سهل من قبل إلى "الحلال الصافي الذي لا ينْسى الله فيه".

---

(1) الطوسي: اللمع، ص ٧٠ – ٧١

فالورع الذي لا ينْسى الله فيه،هو الورع الذي سئِلَ عن الشبلى فقال: أن تتورع فلا يتشتت قلبك عن الله عزَّ وجل طرفه عين[1].

وهذا ورع خصوص الخصوص، أو ورع الصديقين.

وليس من الورع ما فعله"الملامتية" وهم قوم من الصوفية، اقتحموا الذنوب، وقالوا مقصودنا أن نسقط من أعين الناس؛ فنسلم من الجاه، وهؤلاء قد أسقطوا جاههم عند الله – كما يرى ابن الجوزي – لمخالفة الشرع.

ومن الملامتية صنف: "يظهرون من أنفسهم أقبح ما هم فيه، ويكتمون أحسن ما هم عليه، وفعلهم هذا من أقبح الأشياء[2]".

ويروي ابن الجوزي هنا قول النبي ﷺ:

"من أتى شيئًا من هذه القاذورات، فليستتر بستر الله".

وقال صلى الله عليه وسلم في حق ماعز:

"هلا سترته بثوبك، يا هذا".

---

(1) الإحياء، ٢: ١١٨

(2) تلبيس إبليس،ص ٣٦٣

واجتاز بعض الصحابة على رسول الله ﷺ، وهو يتكلم مع صفية زوجته، فقال لهم:"**إنها صفية**".

وبذلك قد علم النبي ﷺ، الناس، التجافي عما يوجب سوء الظن؛ لأن المؤمنين شهداء الله في الأرض.

وقال رجل لأبي بكر: إني لمست امرأة وقبلتها، فقال: تُب إلى الله، ولا تحدث أحدا بذلك[1].

فهذا هو منهج الإسلام القويم، الذي يجب العمل به، ولا يجوز الخروج عنه لأي صنف من الناس:

"وفي اتباع السنة بركة موافقة الشرع، ورضا الرب سبحانه وتعالى، ورفع الدرجات، وراحة القلب، ودعة البدن، وترغيم الشيطان، وسلوك الصراط المستقيم[2]".

٣- مقام الزهد:

---

(1) نفس المصدر، ص ٣٦٤

(2) ابن قدامة الحنبلي (المتوفى ٦٢٠ هـ): ذم الموسوسين والتحذير من الوسوسة، ص ٦٧ – كتاب هدية مجلة الأزهر بالقاهرة، ذو القعدة ١٤٠٤ هـ.

إن مقام الورع السابق يقتضي مقام الزهد، والزهد مقام شريف؛ لأنه أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية، وهو لا يكون إلا في الحلال الموجود، أما الحرام وما فيه شبهة فتركهما واجب.

وهو أول قدم القاصدين إلى الله عزَّ وجل، والمنقطعين إلى الله، والراضين عن الله، والمتوكلين على الله تعالى، وهو ما اختاره رسول الله ﷺ لنفسه، باختيار الله له.

ومن لم يحكم أساسه في الزهد، لم يصح له شيء مما بعده؛ لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة، كما أن الزهد في الدنيا رأس كل خير وطاعة.

وإن من سمي باسم الزهد في الدنيا؛ فقد سمي بألف اسم محمود، ومن سمي باسم الرغبة في الدنيا؛ فقد سمي بألف اسم مذموم[1].

فالزاهد هو من باع الدنيا بالآخرة؛ لأن أعراض الدنيا زائلة، وأمور الآخرة باقية خالدة، فالزهد أن يترك المرء الدنيا، وهو يعلم حقارتها، إذا أضافها إلى نفاسة الآخرة.

---

(1) اللمع، ص ٧٢

كذلك فإن الزاهد من أتته الدنيا وهو قادر على التنعم بها؛ فتركها خوفًا من أن يأنس بها، فيكون آنسا بغير الله، ومحبا لغيره.

لكن حذار أن يقصر مسلم في الجهاد عن سبيل الله تعالى، باسم الزهد، فإن الزهد الحقيقي تضحية، والجهاد أكبر جود وتضحية، وإلا تعرَّض المسلم للاتهام في دينه[1].

ويعتبر الزهد عند مؤرخي التصوُّف مرحلة سابقة عليه، وهو في مفهوم الإسلام ليس رهبانية أو انقطاعا عن الدنيا، ولكنه:

"معنى يتحقق به الإنسان، يجعله صاحب نظرة خاصة للحياة الدنيا، يعمل فيها ويكد، ولكنه لا يجعل لها سلطانًا على قلبه، ولا يدعها تصرفه عن طاعة ربه[2]".

وليس من شرط الزهد في الإسلام، أن يكون مقترنًا بالفقر، بل قد يتفق لإنسان ما، الغني والفقر معا.

---

(1) د. مصطفى حلمي: التصوُّف والاتجاه السلفي في العصر الحديث، ص ٦٣، طبع ١٩٨٢م، دار الدعوة بالإسكندرية.

(2) د. أبو الوفا التفتازاني: مدخل إلى التصوُّف الإسلامي، ص٥٩

وكان عثمان بن عفان ﷺ، وعبد الرحمن بن عوف ﷺ، من كبار الأغنياء، ولكنهما كانا زاهدين فيما يملكان؛ فقد جهز عثمان ﷺ جيش العسرة، واشترى بئر رومة من يهودي كان يمنع المسلمين عنها، وبالإضافة إلى هذا فلم يكن عثمان ﷺ يتوانى عن بذل ماله في سبيل المجتمع.

وكذلك كان عبد الرحمن بن عوف ﷺ، يخرج عن تجارته وأرباحها، إذا شعر بحاجة المسلمين إليها.

ومن أصول الزهد في الإسلام، أن يرتفع الإنسان فوق شهوات نفسه، وهذا معناه أن يتحرر تماما من كل ما يعوق حريته. لكن الزهد مع هذا لا يعني انصرافًا تاما عن الدنيا، وإنما يعني الاعتدال، أو التوسط في الأخذ بأسبابها، لقوله تعالى:

﴿وَابتَغ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنُيا﴾

(القصص: ٧٧)

وكان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، نتيجة الزهد، أقوياء على نفوسهم؛ فلم يفتتنوا بمال أو جاه، ومع هذا لم يصرفهم الزهد عن حياة المجتمع؛ لأنه كان يمدُهم بطاقات

روحية لا حصر لها تعينهم على حياة المجتمع، فلم يكونوا عبادا للمال أو الجاه أو الشهوات؛ لذلك حققوا العدالة الاجتماعية في أرقى صورها[1].

فالزهد في الإسلام إذن منهج في حياة كل مسلم، قوامه التقلل من ملذات الحياة، والانصراف إلى الجاد من أمورها.

وبذلك تتحقق حرية الإنسان، المتمثلة في ارتفاعه فوق شهواته وأهوائه، بمحض إرادته، مع قدرته في نفس الوقت على تحقيق تلك الشهوات، والسير وراء هذه الأهواء، ولكنه يمنعه من ذلك إيمان قوي بالله تعالى، وبثوابه وعقابه في الآخرة.

والزهد يدل على قوة النفس، من أجل التقرُّب إلى الله عزَ وجل، وهذا لا يعني هجر اللذات والطيبات، ما دام الأمر مرتبطًا بالنية الخالصة لله تعالى، وهو ما يسميه أهل الطريق بـ"عمارة الوقت".

يقول ابن القيم:

"الاشتغال في جميع آنائه بما يقرب إلى الله، أو يعين على ذلك من مأكل أو مشرب أو منكح أو منام أو راحة.

---

[1] نفس المرجع، ص٦٠

فإنه متى أخذها بنية القوة على ما يحبه الله، وتجنب ما يسخطه كانت من عمارة الوقت، وإن كان له فيها أتم لذة؛ فلا تحسب عمارة الوقت بهجر اللذات والطيبات[1]".

وإذا كان الفُساق يزدحمون على مواضع الرغبة في هذه الدنيا، ولتلك المواقف بهم كظيظ من الزحام، فإن الزاهد يترفع ويأنف من مشاركتهم في ذلك،؛ لخسة شركائه فيها. وقد قيل لبعضهم: ما الذي زهدك في الدنيا؟ قال:قلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسة شركائها.

وقال:

إذا لم أترك الماء اتقاء ... تركت لكثرة الشركاء فيه

إذا وقع الذباب على طعام ... رفعت يدي ونفسي تشتهيه

وتجتنب الأسود ورود ماء ... إذا كان الكلاب يلغن فيه [1]

---

[1] مدارج السالكين، ٢: ١٧

ومن أحسن ما قيل في الزهد كلام الحسن البصري، وهو من أجمع الكلام في الزهد وأحسنه، حيث يقول:

"ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة – إذا أصبت بها – أرغب منك فيها لو لم تصبك[2]".

وقد حدثنا الإمام الشعراني عن موقفه من الزهد، ومدى تطبيقه لهذا المقام، فقال:

" ... ثم بلاغي مقام الزهد، إلى أن صار عند الذهب والتراب على حد سواء من غير ترجيح، ثم بعد أن أحكمت ذلك المقام رجحت الذهب على التراب؛ عملاً بما جعله الله تعالى فيه من الحكمة.

ثم ذكر أنني بلغت في مقام الزهد إلى أنه لو أمطرت السماء ذهبا، وصار الناس ينتهبونه لم أجد لي داعية إلى أخذ شيء منه، إلا لأمر مشروع.

---

(1) نفس المصدر، ٢: ١٦

(2) مدارج السالكين، ٢: ١٣

ولو أنني مررت على تلال الذهب والفضة، من غير مزاحم عليها مع أبناء الدنيا، ولا حساب عليها في العقبى، لم أتناول منها دينارا واحدا إلا لضرورة شرعية.

ولو أن البغلة دخلت داري في الليل محملة ذهبا من مطلب ونحوه، أخرجتها من داري بذهبها؛ خوفًا من طول الحساب يوم القيامة.

ثم إنه لو كان عندي ما شاء الله من الذهب، فسرقه إنسان أو أخذه من بين يدي وأنا أناظره، لا أتبعه ولا بوكيلي؛ هوانًا بالدنيا[1]".

والزُهاد على ثلاث طبقات:

١- **المبتدئون:** وهم الذين خلت أيديهم من الأملاك، وخلت قلوبهم مما خلت منه أيديهم.

يقول الجنيد في هذا المعنى حين سئِلَ عن الزهد: تخلي الأيدي من الأملاك، وتخلي القلوب من الطمع.

ويقول أيضا: الزهد في قوله تعالى:

---

[1] الشعراني: لطائف المنن والأخلاق، ص ١٠

﴿لِكَيلاَ تَأْسَوا عَلَى مَا فَاتَكُم وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم﴾

(الحديد: ٢٣)

فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود، ولا يأسف منها على مفقود.

وقال سري السقطي عن الزهد: أن يخلو قلبه مما خلت منه يداه.

وقال أيضا: إن الله عزَ وجل سلب الدنيا عن أوليائه، وحماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب أهل وداده؛ لأنه لم يرضها لهم[1].

٢- **المتحققون في الزهد:** وهم الذين تركوا حظوظ النفس؛ لما في الزهد من الراحة والثناء والمحمدة واتخاذ الجاه عن الناس، فمن زهد بقلبه في هذه الحظوظ فهو متحقق في زهده.

٣- **الذين علموا وتيقنوا:** أن لو كانت الدنيا كلها ملكًا حلالاً، ولا يحاسبون عليها في الآخرة، ولا ينقص ذلك مما لهم عند الله شيئًا، ثم زهدوا فيها لله عزَ

---

(1) مدارج، ٢: ١٠

وجل، لكان زهدهم في شيء منذ خلقها الله تعالى، ما نظر إليها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضه ما سقى الكافر منها شربة من ماء، فعند ذلك زهدوا في زهدهم وتابوا من زهدهم؛ فهذا مقام "العارفين" الذين يشتغلون بالله تعالى، ولا يلتفتون إلى الدنيا.

قال الشبلي:

الزهد غفلة؛ لأن الدنيا لا شيء، والزهد في لا شيء غفلة[1].

ويقول ابن قيم الجوزية إنه سمع شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: "**الزهد: ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع: ترك ما تخاف ضرره في الآخرة**".

ويقول ابن القيم تعليقًا على هذا: " **العبارة أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها**[2]".

---

(1) اللمع، ص ٧٢

(2) مدارج، ٢: ١٠.

ويحدثنا أبو طالب المكي عن زهد اسمه "زهد العلماء" الذي يرفض الرئاسة والمدح، فيقول:

"ومن أفضل الزهد: الزهد في الرئاسة على الناس، وفي المنزلة والجاه عندهم، والزهد في حب الثناء والمدح منهم؛ لان هذه المعاني هي من أكبر أبواب الدنيا عند العلماء، فالزهد فيها هو زهد العلماء"[1].

وذهب الإمام أحمد بن حنبل، إلى أن الزهد على ثلاثة أوجه:

الأول: ترك الحرام وهو زهد العوام، ولم يتكلم عنه الطوسي في الأنواع السابقة، وكأنه يعتبره مفروغًا منه.

الثاني: ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص.

الثالث: ترك ما يشغل عن الله، وهو زهد العارفين.

ويقول ابن القيم تعليقًا على ذلك:

"وهذا الكلام من الإمام أحمد، يأتي على جميع ما تقدَمه من كلام المشايخ، مع زيادة تفضيله وتبيين درجاته، وهو من أجمع الكلام، وهو يدل على أنه ﵁ من هذا العلم بالمحل

---

[1] أبو طالب المكي: قوت القلوب، ١: ٥٤١

الأعلى، وقد شهد الشافعي رحمه الله بإمامته في ثمانية أشياء، أحدها الزهد [1]".

وهذا حق، لما ورد من أن الإمام أحمد، أراد أن يرقع ثوبه فلم يجد ما يرقعه به، كما ورد أن لبس خفًا سبع عشرة سنة، ثم دفعة إلى أحدهم ليرمه له[2].

***

وكان هناك عاملان أساسيان لنشأة الزهد، الأول القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والآخر هو الأوضاع السياسية والاجتماعية في القرنين الأولين للهجرة[3].

العامل الأول: ويتجلى فيما ورد في القرآن والسنة، متعلقًا ببيان حقارة الدنيا وزينتها، وضرورة العمل الجاد من أجل الآخرة؛ للظفر بثواب الجنة، والنجاة من عذاب النار.

---

[1] مدارج السالكين، ٢: ١٢

[2] ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمـد بـن حنبـل، ص ٢٥٦، ط٢، ١٩٧٧ م، دار الآفاق الجديدة، بيروت

[3] د. أبو الوفا: مدخل.. ٦٣ وما بعدها

فقد جاءت بعض الآيات الكريمة تشير إلى فناء الدنيا وضرورة الزهد فيها، مثل قوله تعالى:

﴿اعلمُوا أَنمَا الْحَيَاةُ الدنيُا لعِب وَلهو وَزينَةٌ وَتَفَاخُر بَينكُم وَتكَاثُر فِي الأموَال وَالأولاَدِ كمَثَل غَيثٍ أَعجَبَ الْكُفار َنبَاتُهُ ثُم يَهيجُ فَترَاهُ مُصفَرا ثُم يَكُونُ حُطَاما وَفِي الآخِرَةِ عَذَاب شدِيد وَمَغْفِرَةٌ منَ اللهِ وَرِضوَان وَمَا الْحَيَاةُ الدنيُا إِلا مَتَاعُ الْغُرُور﴾

(الحديد: ٢٠)

وكقوله عزَ من قائل:

﴿إِن الذِينَ لاَ يَرجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدنيُا وَاطْمَأَنوا بِهَا وَالذِينَ هُم عَن آيَاتِنَا غَافِلُونَ. أُولئِكَ مَأْوَاهُمُ النارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

(يونس: ٧ – ٨)

ويصور القرآن الكريم، طبيعة الإنسان، في الميل إلى الشهوات الدنيوية، في قوله تعالى:

﴿قَد أَفْلَحَ مَن تَزَكى. وَذَكَرَ اسمَ رَبهِ فَصَلى. بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدنيُا. وَالآخِرَةُ خَير وَأَبقَى﴾

(الأعلى:١٤ – ١٧)

كذلك يمتدح القرآن الكريم، حال العباد المقبلين على الله تعالى في مثل قوله عزَّ وجل:

﴿التائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السائِحُونَ الراكِعُونَ الساجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعرُوفِ وَالناهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(التوبة – ١١٢)

وعلى هذا، فالقرآن الكريم، يصور الحياة الدنيا على أنها لعب ولهو، وأنه لا دوام لها، وهي متاع الغرور، وعلى المؤمن أن يسعى إلى لقاء الله، فلا يؤثر الحياة الدنيا ويطمئن إليها، ويجعله بديلاً عن الآخرة.

وكما كان الإنسان بطبعة مؤثرا الدنيا وملذاتها، محبا للجاه والمال، فإن عليه ألا يستسلم لذلك، بل عليه بتزكية نفس بالعبادة وسائر فروض الدين، ونهيها عن هواها باستمرار، فإذا فعل كانت الجنة مثواه.

ولا يخرج الزهد في حقيقته عن هذه المعاني، فمن الخطأ إذن أن يقال إن الزهد في الإسلام أو لدى الصوفية مصدره أجنبي؛ فهو إسلامي دون جدال.

وقد أشارت الأحاديث النبوية إلى بغض الدنيا، الذي هو المعني بالزهد؛ لأن حب الدنيا من المهلكات. وقد قال ﷺ:

"من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره، وفرق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة".

(أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد)

ويشير الإمام الغزالي هنا بعد هذا الحديث، إلى أنه ينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات[1].

كذلك وردت آثار في الزهد:

فقد قال عمر بن الخطاب ؓ:**"الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد".**

وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين: أنتم أكثر أعمالاً واجتهادا من أصحاب رسول الله ﷺ، وكانوا خيرا منكم، قيل: ولم ذلك؟. قال: كانوا أزهد في الدنيا ونحن نرغب فيها[1].

---

[1] الإحياء، ٤: ٢٢٠

وهذا الحديث وما في معناه من الآثار، كان من عوامل دفع زهاد المسلمين في القرنين الأولين، إلى العمل من أجل الآخرة، والاكتفاء بالقليل من المطعم والملبس والمال، والخوف المستمر من فتنة الدنيا، هذا مع ملاحظة أن الزهد في الإسلام، لم يكن يعني ترك الدنيا بالكلية، وإنما يعني الاشتغال بها مع التهوين من شأنها.

وليس في لبس الصوف، تقليد للمسيحية أو غيرها؛ لأن النبيﷺ كان يلبس الصوف، وكذلك صحابته (البخاري كتاب اللباس) هذا مع ملاحظة أن صوفية الإسلام فيما بعد قد عدلوا عن لبس الصوف.

فقد روي أن سفيان الثوري، نهى عن اتخاذ الصوف شعارا للزهد؛ لما في ذلك من حب الشهرة، ومن تشبه بزهاد النصارى، وعلى كل حال فإن السلف كانوا يفضلون التمسك بالسنن أو الاقتداء بأهل السنن؛ حتى لا يضلوا. يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

---

(1) نفس المصدر، ٤: ٢٢٤

"سيأتي ناس يجادلونكم بشبهات القرآن، فخذوهم بالسنن؛ فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله"[1].

أما العامل الثاني الذي أثر في نشأة التصوُّف، فإنه يتمثل في الأحوال السياسية والاجتماعية؛ إذ كان للخلافات السياسية بين المسلمين منذ أواخر عصر الخليفة عثمانﷺ أثر في مجال الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية للمسلمين، وبدأت تظهر العصبية القبلية مرة أخرى.

وتوالت الخلافات السياسية في عهد الإمام عليﷺ، وانقسم المسلمون بعد هذا إلى أمويين وشيعة وخوارج ومرجئة، واستمر النزاع بين الأمويين وخصومهم زمنًا طويلاً.

ولم يكن الخلاف السياسي بمعزل عن الدين؛ إذ كان كل فريق من المتنازعين يؤيد موقفه بنصوص من الدين، وهذا يدعو إلى الاجتهاد في فهم النصوص أو تأويلها تأويلاً خاصا؛ فصار كل حزب سياسي فرقة دينية لها معتقداتها.

---

(1) أبو شامة (الشيخ أبو محمد بن إسماعيل المعروف بأبي شامة ٥٩٩ – ٦٦٥ هـ): الباعث على إنكار البدع والحوادث، ص ١٥ تحقيق وتقديم/ عثمان عنبر، ط١، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م دار الهدى بالقاهرة.

وعمد أصحاب كل فرقة إلى اصطناع الشعراء والعلماء المهرة؛ ليستميلوا الناس إلى جانبهم، بل وضع بعضهم أحاديث لتدعيم معتقدهم؛ وبذلك صار الأمر متعلقًا بالدين ومسائله الاعتقادية تعلقًا كبيرا.

وقد استشعر بعض الصحابة خطورة الموقف، حين صار مشحونًا بالاضطراب السياسي هكذا، وآثروا أن يقفوا من أهل الفرق المتنازعة موقف الحياد، ولعلهم فعلوا ذلك إيثارا للسلامة، وابتعادا عن الفتنة، وحبا في حياة العزلة؛ وهم بهذا كانوا يتجهون إلى نوع من الزهد.

وعند حدوث الفتنة بين الحسن بن علي رضي الله عنه والأمويين، وتنازل الحسن رضي الله عنه لمعاوية رضي الله عنه، آثر بعض أنصار الحسن رضي الله عنه الاعتكاف في بيوتهم، والاشتغال بالعلم والعبادة.

وثمرة هذا الاضطراب السياسي قد نتجت في المجتمع الإسلامي على هيئة عزلة بين بعض المسلمين، وذلك منذ وقت مبكر؛ تورعا من الانغماس في الفتن.

وباستثناء عمر بن عبد العزيز وخلافته، فإن بني أمية وقعوا في مظالم عديدة، وذلك باضطهاد خصومهم؛ مما قوَى نزعة الزهد عند فريق من الناس.

ومن أمثلة هذه المظالم: مقتل الحسين رضي الله عنه في كربلاء؛ إذ كان لهذا صدى بعيد في المجتمع الإسلامي حينذاك، وتفاقمت الأمور بعد ذلك شدة بعد شدة.

وقد ندم جماعة من أهل الكوفة، وسموا أنفسهم "التوابين" بعد استشهاد الحسين؛ وذلك للخيانة التي صدرت منهم في حقه، أو مناصرتهم أعدائه، ومن أجل أن يتلافوا ما صدر منهم زاولوا العبادة.

وانزوت جماعة عن المجتمع المملوء بالشرور والمشاغبات؛ طلبا لنجاة أنفسهم، إذ لم يكن كثير من المسلمين، ذوي قدرة على مواجهة الحكام المستبدين، فلم يكن أمامهم إلا الانسحاب من حياة المجتمع والتفرغ لحياة الزهد والعبادة، وينبه الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازاني هنا إلى فكرة هامة تجيب عن شبهة قد ترد في هذا المقام فيقول:

"صحيح أن هذا النوع من السلبية، لا يعرفه الإسلام، ولكن دعت إليه فيما يبدو ظروف سياسية واجتماعية، كانت

أقوى من أولئك الأفراد، على أنه يمكن اعتباره من ناحية أخرى نوعا من الاحتجاج الصامت على سلطة الحكام"[1].

وقد اتسعت رقعة الدولة آنذاك، وفُتِحت بلدان كثيرة، وجاءت غنائم وفيرة، وبدأ الثراء يظهر في المجتمع الإسلامي مقترنًا بحياة الترف، وما قد تستتبعه من انحراف خلقي.

وقام الأتقياء بدعوة الناس إلى ما كان عليه السلف من تقلل وزهد وورع، وعدم انغماس في الشهوات. وممن قام بذلك: أبو ذر الغفاري، الذي انتقد حياة الأمويين المترفة، وأساليبهم في الحكم، نقدا غير هين.

إذن نشأ الزهد في مثل هذه الظروف، ونشأ التصوُّف أيضا وهو لا يقوم إلا على الزهد، ولم يبق الزهد في صفائه الأول وكذلك التصوُّف، بل شابهما ما يشوب أي مذهب أو اتجاه؛ إذ إننا لا نعدم في أي اتجاه أن يكون فيه جهلاء أو دخلاء، ولكن الانتقاد لا ينبغي أن يوجه إلا بمقدار، فلا يجوز أن يتَخَذَ انحراف البعض وسيلة القول بإلغاء

---

[1] مدخل إلى التصوُّف الإسلامي ص ٧٠ وانظر ما بعدها.

التصوُّف، كما لا يجوز القول بإلغاء الحق أو الدين؛ لأن بعض المنافقين أو المدَّعين وجِد منسوبا إلى هذين.

لقد تسرَّبت بعض الأفكار الفلسفية الوثنية إلى التصوُّف الإسلامي؛ فصار هناك ما يسمى "التصوُّف الفلسفي"، وتسرَّب إلى هذا النوع أمور لم يعرفها الإسلام ولم يقر بها، مثل تعذيب النفس، والقول بالحلول[1].

وينبغي أن يعلَمَ أن الإسلام حين فتح للمسلم أبواب الحياة الروحية، فإنه لم يحرم عليه ما أحله الله تعالى من أبواب الحياة والمتعة المادية والجسدية، كيلا ينقطع عن الدنيا وينسى نصيبه، وكما يقول الأستاذ العقاد:

"فالحياة الروحية في الإسلام تجري على سنن القصد الصالح للحياة البشرية، لا استغراق في الجسد، ولا انقطاع عنه في سبيل الآخرة، قوام بين هذا وذاك"[2].

وورد عن الإمام الشافعي أنه قال:

"لا تستشر من ليس في بيته دقيق؛ لأنه موله العقل"[1].

---

[1] أنور الجندي: المؤامرة على الإسلام ص ٤٧ ط٢ دار الاعتصام.

[2] العقاد: الفلسفية القرآنية ص ١٧٦ . ط١٩٤٧

وقد ذهب ابن الجوزي، إلى أن الصوفية أنفسهم من جملة الزهاد، غير أن الصوفية انفردوا عن الزهاد بصفات وأحوال، وتوسعوا بسمات.

فالتصوُّف طريقة كان ابتداؤها الزهد الكلي، ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص:

(أ) فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام؛ لما يظهرونه من التزهد.

(ب) ومال إليهم طلاب الدنيا، لما يرون عندهم من الراحة واللعب.

ويقول ابن الجوزي:

"فلا بد من كشف تلبيس إبليس عليهم في طريقه القوم، ولا ينكشف ذلك إلا بكشف أهل هذه الطريقة وفروعها، وشرح أمورها"[2].

---

[1] عبد الفتاح أبو غدة: صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، ص٣٣، ط١، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م، مكتب المطبوعات الإسلامية – بيروت

[2] تلبيس إبليس، ص ١٦١

ونلاحظ أن ابن الجوزي يعترف بوجود تصوُّف أصيل قوامه الزهد الكلي، لكن التحريف الذي دخل عليه، هو الذي جعله موضع انتقاد، كما جعل المحرفين هدفًا للانتقاد كذلك. فالتصوُّف في رأيه معروف، يزيد على الزهد، ويدل على الفرق بينهما، أن الزهد لم يذمه أحد، وقد ذموا التصوُّف[1].

ومما سبق يتبين أن كلا من الزهد والتصوُّف صار موضع نقد؛ لأن الزهاد لا يمكن فصلهم عن الصوفية، كما أنه لا يمكن فصل الصوفية عن الزهاد.

وقد توهم الزهاد، أن الزهد هو القناعة بالدون من المطعم والملبس فحسب، وبينما هم يقنعون بذلك، نجد قلوبهم راغبة في جملة أمور منكرة.

١- في الرئاسة، وطلب الجاه:

"وهم من تردد الناس إليهم وتقبيل أيديهم، في أوسع باب من ولايات الدنيا؛ لأن غاية ذلك أنهم يترصدون لزيارة الأمراء إياهم"[2].

---

(1) نفس المصدر، ص ١٦٥

(2) تلبيس ، ص ٢٥٢

٢- ويكرمون الأغنياء دون الفقراء.

٣- ويتخاشعون عند لقاء الناس، كأنهم قد خرجوا من مشاهدة.

٤- وربما ردَ أحدهم المال؛ لئلا يقال قد بدا له من الزهد.

ولا نودُ أن نكرر القول إن هذا النقد كان لفئة بعينها من الصوفية، شاهدهم ابن الجوزي ورأى انحرافهم عن التصوُف الزهدي الحقيقي الذي أشار إليه من قبل.

على أن رضا هؤلاء الصوفية بالدون لم يدم طول الزمان، فقد تغير الوضع، ولاسيما في مصر إبان العصر العثماني؛ فقد كان الصوفية – أو الفقراء – فوق النجاة من ضغط الحياة يومذاك، لا يجهدون أنفسهم في احتراف عمل يكسبون قوتهم من ورائه.

وكانوا يعيشون في الزوايا طاعمين كاسين، على نفقة المحسنين والأثرياء؛ بدعوى التفرُغ للعبادة والتهجد.

ومن أطرف المفارقات، أن هؤلاء الزهدة الذين يدَعون التقشف والقناعة بالتافه من شئون العيش، أرغد عيشًا وأترف

حياة من الفلاحين والتجار وأرباب الحرف، وكان هذا الترف من أسباب إقبال عدد كبير على اعتناق التصوُّف[1].

ومن أهم الاعتراضات الموجهة إلى الزهاد أو الصوفية، داء فتاك، هو خفي الرياء، مثل إظهار النحول، وصفار الوجه، وشعث الشعر؛ ليستدل به على الزهد، ومنه خفض الصوت؛ لإظهار الخشوع، والرياء بالصلاة.

ومثل هذه الظواهر لا تخفى على أحد، وإنما تشير إلى خفي الرياء، وذلك من تلبيس إبليس، أما الظاهر من الرياء، فلا يدخل في التلبيس، للحديث المشهور "إنما الأعمال بالنيات".

فمن لم يرد بالعمل وجه الله عزَ وجل لم يقْبلْ. قال مالك بن دينار:

"قولوا لمن لم يكن صادقًا لا تتعب"[2].

وإن المؤمن لا يريد بعمله إلا وجه الله تعالى، لكن يدخل

---

(1) د. توفيق الطويل: التصوُّف في مصر إبان العصر العثماني، ص ١٥٤

(2) تلبيس، ص ١٥٢

عليه الرياء؛ فتكون نجاته منه شديدة الصعوبة. قال يوسف بن أسباط:

"تعلموا صحة العمل من سقمه، فإني تعلمته في اثنتين وعشرين سنة"[1].

ومن أجل خوف الرياء، ستر الصالحون أعمالهم؛ حذرا عليها، وبهرجوها بضدها؛ فقد كان ابن سيرين: يضحك بالنهار ويبكي بالليل، وكان في ذيل أيوب السختياني بعض الطول، وكان ابن أدهم إذا مرض يرَى عنده ما يأكله الأصحاء، وهكذا نلاحظ أن ابن الجوزي ينتقد بعض الزهاد، ويردُ عليهم من مواقف زهاد آخرين يعتبرها هو مواقف صحيحة.

ومن الزهاد من يستعمل الزهد ظاهرا وباطنًا، لكنه قد علم أنه لا بد أن يتحدث بتركه للدنيا أصحابه أو زوجته، فيهون عليه الصبر. وهذا خطأ:

"ولو أنه أراد الإخلاص في زهده، لأكل مع أهله قدر ما ينمحي به جاه النفس، ويقطع الحديث عنه"[1].

---

[1] نفس المكان

وحكِي أن داود بن أبي هند، صام عشرين سنة، ولم يعلم به أهله، وكان يأخذ غذاءه، ويخرج إلى السوق، فيتصدق به في الطريق؛ فأهل السوق يظنون أنه قد أكل في البيت، وأهل البيت يظنون أنه قد أكل في السوق، ويعلق ابن الجوزي على ذلك بقوله: "هكذا كان الناس!".

ويعني هذا أن ابن الجوزي، لا يرفض كل سلوك الصوفية والزهاد، بدليل أنه معجب بداود بن أبي هند، ومن قبله ابن سيرين، وابن أدهم.

وبعض المتزهدين ينقطع في مسجد أو رباط أو جبل، وهنا تكون لذته علم الناس بانفراده، وربما احتجَ لانقطاعه، بأنه يخاف أن يرى المنكرات في خروجه.

ومن مقاصده في ذلك:

الكبر واحتقار الناس، وخوفه أن يقصروا في خدمته، وحفظ ناموسه ورياسته، فإن مخالطة الناس تذهب ذلك، وهو يريد أن يبقى إطراؤه وذكره. ومن المقاصد أيضا: ستر

---

(1) نفس المصدر ص ١٥٤

عيوبه وجهله، وفرحه بمجيء الأمراء إليه، وفرحه باجتماع العوام على بابه وتقبيلهم يده.

وهو مع هذا، يترك عيادة المرضى، وشهود الجنائز. ويقول أصحابه: اعذروا الشيخ، فهذه عادته. ويقول ابن الجوزي:

"لا كانت عادة تخالف الشريعة"[1].

وهذا المدّعى لو احتاج إلى القوت، ولم يكن عنده من يشتري له، صبر على الجوع؛ كيلا يشتري بنفسه، فيضيع جاهه لمشيه بين العوام.

وقد كان رسول الله ﷺ، يخرج إلى السوق، ويشتري حاجته ويحملها بنفسه، وعن بعض مكارم أخلاقه يحدثنا ابن حزم فيقول:

"قد كان رسول الله ﷺ، وهو القدوة في كل خير، والذي أثنى الله تعالى على خلقه، والذي جمع الله تعالى فيه أشتات الفضائل بتمامها، وأبعده عن كل نقص، يعود المريض مع أصحابه راجلاً في أقصى المدينة بلا خف ولا نعل

---

[1] تلبيس ، ص ١٥٥

ولا قلنسوة ولا عمامة، ويلبس الشعر إذا حضره، وقد يلبس الوشي من الحبرات إذا حضره، ولا يتكلف ما لا يحتاج إليه، ولا يترك ما يحتاج إليه، ويستغني بما وجد عما لا يجد، ومرة يمشي راجلاً حافيا، ومرة يلبس الخف ويركب البغلة الرائعة الشهباء، ومرة يركب الفرس عريا، ومرة يركب الناقة، ومرة يركب حمارا ويردف عليه بعض أصحابه، ومرة يأكل التمر دون خبز، والخبز يابسا"[(1)]. ﷺ

وكان أبو بكر الصديقﷺ، يحمل الثياب على كتفه، فيبيع ويشتري.

والحديث الآتي بإسناد عن محمد بن القاسم، قال: روي عن عبد الله بن حنظلة، قال: مرَ عبد الله بن سلام، وعلى رأسه حزمة حطب، فقال له ناس: ما يحملك على هذا وقد أغناك الله؟ قال: أردت أن أدفع به الكبر، وذلك أني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من الكبر"[(2)].

---

(1) ابن حزم: الأخلاق والسير في مداواة النفوس، ص ٥٧ – ٥٨، ط٢، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

(2) تلبيس ، ص ١٥٥

وينبغي أن يعلَم أن هذه العادة من الخروج لشراء الحاجة ونحوها قد تغيرت بتغير الزمن، كما تغيرت الأحوال والملابس.

ويقول ابن الجوزي:

"فلا أرى للعالم أن يخرج اليوم لشراء حاجته؛ لأن ذلك يكشف نور العلم عند الجهلة، وتعظيمه عندهم مشروع، ومراعاة قلوبهم في مثل هذا، يخرج إلى الرياء واستعمال ما يوجب الهيبة في القلوب لا يمنع منه، وليس كل ما كان في السلف مما لا يتغير به قلوب الناس يومئذ ينبغي أن يفعل اليوم"[(1)].

وهذا كلام له وزنه من ابن الجوزي، ولا بد لأهل كل عصر من النظر فيه؛ حتى لا يتجمدوا على أمور ليست من أصول الشريعة.

وروي أن الصوفي إبراهيم بن أدهم، كان أصحابه يتمازحون، فدَق رجل الباب، فأمرهم بالسكوت والسكون. فقالوا له: تعلمنا الرياء؟ فقال: إني أكره أن يعصي الله فيكم"

---

(1) تلبيس ، ص ١٥٥

وإنما خاف قول الجهلة؛ لأنهم لا يحتملون هذا للعباد والزهاد.

ومن هؤلاء المرائين من يرفض أن يلبس لين الثياب، ولو خرج روحه لا يأكل والناس يرونه، ويحفظ نفسه في التبسم فضلاً عن الضحك، ويوهمه إبليس أن هذا لإصلاح الخلق، مع أنه رياء:

"فتراه مطاطئ الرأس عليه آثار الحزن، فإذا خلا رأيته ليث شري"[1].

وكان السلف يدفعون عنهم، كل ما يوجب الإشارة إليهم، ويهربون من المكان الذي يشار إليهم فيه، وهذا موقف سليم، وليس من باب الرياء.

ومن باب الرياء، ما يفعله بعض الزهاد من لبس الثوب المخرَّق، دون أن يرتقه، ويترك إصلاح عمامته، كما يترك تسريح لحيته؛ قاصدا بذلك أن يظهر بأنه ليس عنده من الدنيا خير.

---

[1] نفس المصدر، ص ١٥٦

وهو إن كان صادقًا في هذا الإعراض، فليعلم أنه سلك غير الجادة. كما قيل لداود الطائي: ألا تسرح لحيتك، فقال: إني عنها لمشغول. فليست هذه طريقة رسول الله ﷺ ولا أصحابه، فإنه كان يسرح شعره، وينظر في المرآة ويدهن ويتطيب، وهو أشغل الخلق بالآخرة، ﷺ.

وكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، يخضبان بالحناء، وهما أخوف الصحابة وأزهدهم:

"فمن ادعى رتبة تزيد على السنة وأفعال الأكابر، لم يلتفت إليه"[(1)].

ومن الزهاد من يلزم الصمت الدائم، وينفرد عن مخالطة أهله، فيؤذيهم بقبح أخلاقه، وزيادة انقباضه، وينسى قول النبي ﷺ:

"إن لأهلك عليك حقا".

وقد كان رسول الله ﷺ، يمزح فيلاعب الأطفال، ويحدث أزواجه. وسابق عائشة، إلى غير ذلك من الأخلاق اللطيفة.

ويقول ابن الجوزي عمن ترك هذا الخلق من الزهاد:

---

(1) نفس المكان عند ابن الجوزي.

"فهذا المتزهد الجاعل زوجته كالأيم وولده كاليتيم، لانفراده عنهم وقبح أخلاقه، لأنه يرى أن ذلك يشغله عن الآخرة. ولا يدري لقلة علمه، أن الانبساط إلى الأهل من العون على الآخرة"[1].

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ، قال لجابر:

"هلا تزوجت بكرا تلاعبها وتلاعبك"

ويقول ابن الجوزي:

"وربما غلب على هذا المتزهد، التجفف، فترك مباضعة الزوجة، فيضيع فرضا بنافلة غير ممدوحة"[2].

ومن الزهاد من يرى عمله، فيعجبه. فمثلا لو قيل له: أنت من أوتاد الأرض، رأى ذلك حقًا.

ومنهم من يترصد لظهور كرامته، ويخيل إليه أنه لو قرب من الماء قدر أن يمشي عليه، فإذا عرض له أمر ما، فدعا، فلم يجب، تذمر في باطنه، فكأنه أجير يطلب أجر عمله، ويقول ابن الجوزي:

---

(1) نفس المكان عند ابن الجوزي

(2) نفس المكان

"ولو رُزق الفهم، لعلم أنه عبد مملوك، والمملوك لا يمن بعمله، ولو نظر إلى توفيقه للعمل، لرأى وجوب الشكر، فخاف من التقصير فيه. وقد كان يعجبني أن يشغله خوفه على العمل من التقصير فيه عن النظر إليه"[1].

مثال ذلك قول رابعة:

"أستغفر الله من قلة صدقي في قولي"

وقيل لها: هل علمت عملاً ترين أنه يقبل منك؟ فقال: إذا كان فمخافتي أن يرد علي.

وهناك مسألة الخروج عن الأموال والتجرد منها:

فقد كان إبليس – كما يرى ابن الجوزي – يلبس على الصوفية الأولين، لصدقهم في الزهد. فيريهم عيب المال، ويخوفهم من شره.

فكانوا يتجردون من الأموال، ويجلسون على بساط الفقر. وكانت مقاصدهم صالحة، وأفعالهم في ذلك خطأ لقلة العلم، ثم كُفِي إبليس هذه المؤنة، فإن أحدهم إذا كان له مال أنفقه تبذيرا وضياعا.

---

[1] تلبيس، ١٥٧

مثال هذا: أنه في الري ورث أبو عبد الله المقري من أبيه: خمسين ألف دينار، سوى الضياع والعقار، فخرج عن ذلك كله، وأنفقه على الفقراء. وقد حدث مثل هذا لآخرين.

ولا لوم على من فعل هذا، إذا كان يرجع إلى كفاية ادخرها لنفسه، أو صناعة يستغني بها، أو كان المال عن شبهة فتصدق به.

أما إذا أخرج المال الحلال كله، ثم احتاج إلى ما في أيدي الناس، وأفقر عياله، فهو:

(أ) إما أن يتعرض لمنن إخوانه أو لصدقاتهم.

(ب) وإما أن يأخذ من أرباب الظلم والشبهات. فهذا هو الفعل المذموم المنهي عنه.

ولا يعجب الإنسان ممن فعل ذلك لجهله أو لقلة علمه. لكن العجب ممن لهم عقل وعلم، كيف حثوا على هذا وأمروا به، مع مصادمته للعقل والشرع.

ويرفض ابن الجوزي كلام المحاسبي، الذي يفضل فيه البعد عن جمع المال، فيقول، أي المحاسبي:

"أيها المفتون، متى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه، فقد أزريت بمحمد ﷺ، والمرسلين".

والإمام الغزالي قوى كلام المحاسبي، بأن فقد المال أفضل من وجوده وإن صرف في الخيرات. لأن المريد إذا بقي له درهم يلتفت إليه قلبه، فهو محجوب عن الله عز وجل.

ويروي ابن الجوزي أن هذا كله بخلاف الشرع والعقل، وأنه سوء فهم للمراد بالمال:

فمن ناحية شرف المال: فإن الله عز وجل عظم قدره، وأمر بحفظه، إذ جعله قواما للآدمي الشريف، فهو شريف، قال تعالى:

﴿وَلاَ تُؤْتُوا السفَهَاءَ أَموَالَكُمُ التِي جَعَلَ اللهُ لكُم قِيَاما﴾

(النساء: ٥)

ونهى سبحانه وتعالى أن يسلم المال إلى غير رشيد فقال تعالى:

﴿فَإِن آنَستُم منْهُم رُشْدا فَادفَعُوا إِليهم أَموَالَهُم﴾

(النساء: ٦)

وصح عن رسول الله ﷺ، أنه نهى عن إضاعة المال، وقال لسعد:

"لأن تترك ورثتك أغنياء خير لك من أن تتركهم عالة يتكففون الناس".

وقال:

"ما نفعني مال كمال أبي بكر".

وقال:

"نعم المال الصالح للرجل الصالح".

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، دعا له بكل خير. وكان في آخر دعائه أن قال:

"اللهم أكثر ماله وولده وبارك له".

وهذه الأحاديث مخرجة في الصحاح[1]. وهي على خلاف ما تعتقده المتصوفة من أن إكثار المال حجاب وعقوبة، وأن حبسه ينافي التوكل.

---

[1] تلبيس، ص ١٧٩

وبالنسبة لكسب المال:

فإن اقتصر على كسب البلغة من حلها، فذلك أمر لا بد منه، وأما من قصد الجمع للاستكثار منه من الحلال، فينظر في مقصوده:

(أ) فإن كان يقصد نفس المفاخرة والمباهاة، فبئس المقصود.

(ب) وإن قصد إعفاف نفسه وعائلته وادخر لحوادث زمانه، وقصد التوسعة على الإخوان، وإغناء الفقراء، وفعل المصالح، أثيب على قصده، وكأن جمعه بهذه النية أفضل من كثير من الطاعات. وكان سعد بن عبادة يدعو فيقول: اللهم وسع علي.

وأبلغ من هذا، أن يعقوب عليه السلام، لما قال له بنوه:

﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٍ﴾ (يوسف: ٦٥)

مال إلى هذا، وأرسل ابنه بنيامين معهم. وأن شعيبا طمع في زيادة ما يناله فقال:

﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرًا فَمِنۡ عِندِكَ﴾

(القصص: ٢٧)

وكان لإبراهيم عليه السلام زرع ومال.

وهذا أمر مركوز في الطباع، فإذا قصد به الخير، كان خيرا محضا. وما ذهب إليه المحاسبي وغيره خطأ لا وجه له. حيث ذهب إلى أن الله تعالى نهى عباده عن جمع المال، وأن رسوله ﷺ أيضا نهى أمته عن جمع المال. فهذا محال، إنما النهي عن سوء القصد بالجمع، أو عن جمعه من غير حله.

وقد خلف الصحابي طلحة رضي الله عنه، تسعمائة قنطار من الذهب. وأكثر الصحابة كسبوا الأموال وخلفوها، ولم ينكر أحد منهم على أحد. ويقول ابن الجوزي عن رأي الغزالي في ذلك:

"وأعجب لسكوت أبي حامد، بل لنصرته ما حكى، وكيف يقول إن فقد المال أفضل من وجوده، وإن صُرِفَ إلى الخيرات. ولو أدعى الإجماع على خلاف هذا لصح، ولكن تصوفه غير – بالتشديد – فتواه [1]".

وكان سعيد بن المسيب رضي الله عنه يقول:

---

[1] تلبيس، ص ١٨١

"لا خير فيمن لا يطلب المال يقضي به دينه، ويصون به عرضه، ويصل به رحمه. فإن مات تركه ميراثا لمَن بعده"[1].

وخلف ابن المسيب أربعمائة دينار.

وما زال السلف يمدحون المال، ويجمعونه للنوائب، وإعانة الفقراء. وإنما تجافاه قوم منهم، إيثارا للتشاغل بالعبادات وجمع الهمم، فقنعوا باليسير. ومع هذا فإن الواحد منهم لم يكن صاحب مطمع أو اقتحام مهما كان، كما قال الأستاذ العقاد عن عمر:

"وقد كان عمر قوي النفس، بالغًا في القوة النفسية، ولكنه على قوته البالغة، لم يكن من أصحاب الطمع والاقتحام، ولم يكن ممن يندفعون إلى الغلبة والتوسع في الجاه والسلطان بغير دافع يحفزه إليه وهو كاره، لأنه كان مفطورا على العدل وإعطاء الحقوق والتزام الحرمات"[2].

---

(1) نفس المكان.

(2) العقاد: عبقرية عمر، ص٩ طبع ١٩٧٦ م دار المعارف بمصر.

ويرى ابن الجوزي، أن الفقر مرض، وأن من أُبتُلِي به أثيب على صبره، ولهذا يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، لمكان صبرهم على البلاء.

وأن المال نعمة، والنعمة تحتاج إلى شكر. والغني وإن تعب وخاطر، فهو كالمفتي والمجاهد.والفقير كالمعتزل في زاوية.

وقد قال عمر ﵁: حث رسول الله ﷺ على الصدقة، فجئت بنصف مالي. فقال رسول الله ﷺ: "وما أبقيت لأهلك" فقلت: مثله. فلم ينكر عليه رسول الله ﷺ.

وفي الحديث دليل على بطلان ما يقوله جهلة المتصوفة، من أن ليس للإنسان ادخار شيء في يومه لغده، وأن فاعل ذلك قد أساء الظن بربه ولم يتوكل عليه حق توكله. فقد ادخر رسول الله ﷺ لأزواجه قوت سنة. ويقول ابن الجوزي:

"وقد خرج أقوام من أموالهم الطيبة، ثم عادوا يتعرضون للأوساخ ويطلبون. وهذا لأن حاجة الإنسان لا تنقطع، والعاقل يعد للمستقبل".

وقد كان لبعضهم بضاعة، فأنفقها وقال: ما أريد أن تكون ثقتي إلا بالله. وهذا قلة فهم منه، حيث ظن أن التوكل قطع الأسباب وإخراج الأموال.

ويحكى أن الجنيد دق على أبي يعقوب الزيات بابه في جماعة من أصحابه، فقال: ما كان لكم شغل في الله عز وجل يشغلكم عن المجيء إلي. فقال الجنيد: إذا كان مجيئنا إليك من شغلنا به فلم ننقطع عنه. فسأله عن مسألة في التوكل، فأخرج درهما كان عنده، ثم أجاب، ليعطي المتوكل حقه، ثم قال استحييت من الله أن أجيبك وعندي شيء.

ويعلق ابن الجوزي على ذلك قائلاً:

"لو فهم هؤلاء معنى التوكل، وأنه ثقة القلب بالله عز وجل. لا إخراج صرر المال، ما قال هؤلاء هذا الكلام. ولكن قل فهمهم. وقد كان سادات الصحابة والتابعين يتجرون ويجمعون الأموال، وما قال مثل هذا أحد منهم"[1].

---

(1) نفس المصدر، ص ١٨٤

وقد أخطأ بعض الصوفية حين قبل مال أهل الظلم، فقد دخل أحد الصوفية على أمير ظالم فوعظه فأعطاه شيئًا فقبله. فقال الأمير: كلنا صيادون، وإنما الشباك تختلف.

ودخل ابن الجوزي بعض الأربطة، فسأل عن شيخه، فقيل له، قد مضى إلى الأمير فلان يهنئه بخلعة قد خلعت عليه، وكان ذلك الأمير من كبار الظلمة، فقال ابن الجوزي لهم:

"ويحكم ما كفاكم أن فتحتم الدكان، حتى تطوفوا على رءوسكم بالسلع. يقعد أحدكم عن الكسب مع قدرته عليه معولاً على الصدقات والصلات، ثم لا يكفيه حتى يأخذ ممن كان، ثم لا يكفيه حتى يدور على الظلمة، فيستعطي منهم، ويهنئهم بملبوس لا يحل وولاية لا عدل فيها. والله إنكم أضر على الإسلام من كل مضر"[1].

إن الإنسان إذا أعطى نفسه ملذاتها الطبيعية ومشتهياتها، مع التقيد بحدود الله التي شرعها، فقد سلك خير طريق، ونال أجمل فضيلة وهي العفة التي تتطلب من الإنسان القصد

---

(1) تلبيس، ص ١٨٦

في اللذائذ، فإن أفرط منهمكًا في شهواته، أو فرط في كبتها، فقد بالغ في الزهد ومال عن سواء السبيل[1].

وملابس الصوفية:

كان مما اعترض به عليهم في الحياة الاجتماعية. ذلك أن أوائل القوم سمعوا، أن النبي ﷺ، كان يرقع ثوبه، وأنه قال لعائشة رضي الله عنها:

"لا تخلعي ثوبا حتى ترقعيه".

وأن عمر رضي الله عنه، كان في ثوبه رقاع، وأن أويسا القرني كان يلتقط الرقاع من المزابل، فيغسلها في الفرات، ثم يخيطها فيلبسها.

لهذا اختار بعض الصوفية المرقعات، وقد أبعدوا في القياس. فإن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا يؤثرون البذاذة، ويعرضون عن الدنيا زهدا. وكان أكثرهم يفعل هذا لأجل أنه فقير أصلاً.

---

[1] أحمد أمين، الأخلاق، ص ٢٠٣ ط٣، ١٩٢١، المطبعة الرحمانية القاهرة.

فقد دخل مسلمة بن عبد الملك، على عمر بن العزيز رضي الله عنه، وعليه قميص وسخ، فقال لامرأته فاطمة اغسلي قميص أمير المؤمنين، فقالت: والله ما له قميص غيره. فأما إذا لم يكن هذا لفقر وقصد البذاذة، فما له من معنى.

ويرى ابن الجوزي أن صوفية زمانه، يعمدون إلى ثوبين أو ثلاثة، كل واحد منها على لون، فيجعلونها خرقًا، ويلفقونها، فيجمع ذلك الثوب وصفين: الشهرة والشهوة.

وأن ليس مثل هذه المرقعات أشهى عند خلق كثير من الديباج، وبها يشتهر صاحبها أنه من الزهاد. فهم لا يضيرون بصورة الرقاع كالسلف، وإن ظنوا ذلك، فهو من تلبيس إبليس عليهم.

ويقول ابن الجوزي هنا كلمة تعتبر قاعدة هامة، وهي:

"أتراهم ما علموا أن التصوف معنى لا صورة، وهؤلاء قد فاتهم التشبيه في الصورة والمعنى"[(1)].

في الصورة:

---

(1) تلبيس ، ص ١٨٧.

لأن القدماء كانوا يرقعون ضرورة، ولا يقصدون التحسن بالمرقع، ولا يأخذون أثوابا جديدا مختلفة الألوان، فيقطعون من كل ثوب قطعة ويلفقونها على أحسن الترقيع ويخيطونها ويسمونها مرقعة.

وحين قدم عمرﷺ بيت المقدس، وعليه ثوب مرقع سبع عشرة رقعة، بينها رقعة من أديم، فلما رآه القسيسون على هذه الصفة سلموا بيت المقدس إليه من غير قتال:

"فأين هذا مما يفعله جهال الصوفية في زماننا، فنسال الله العفو والعافية"[1].

وفي المعنى:

لأن أولئك كانوا أصحاب رياضة وزهد.

ومن هؤلاء المذمومين من يلبس الصوف تحت الثياب، ويلوح بكمه حتى يرى لباسه، وهذا "لص ليلي" أي سارق ليل.

ومنهم من يلبس الثياب اللينة على جسده، ثم يلبس الصوف فوقها، وهذا "لص نهاري مكشوف".

---

(1) نفس المكان

وجاء غير هؤلاء قاصدين التشبه بالصوفية، وصعب عليهم البذاذة، وأحبوا التنعم ولم يروا الخروج من صورة التصوف، فالقميص والعمامة على أحدهم بثمن خمسة أثواب من الحرير.

وقد خيل الشيطان إلى هؤلاء، أنهم صوفية، بنفيس النفس، فجمعوا بين رسوم التصوف وتنعم أهل الدنيا. ولهؤلاء علامات منها: مصادقة الأمراء، ومفارقة الفقراء كبرا وتعظيما. وقد كان عيسى صلوات الله عليه وسلامه يقول:

"يا بني إسرائيل: ما لكم تأتونني وعليكم ثياب الرهبان، وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري. البسوا لباس الملوك. وألينوا قلوبكم بالخشية"[1].

وعن مالك بن دينار قال: إن من الناس ناسا إذا لقوا القُراء ضربوا معهم بسهم، وإذا لقوا الجبابرة وأبناء الدنيا أخذوا معهم بسهم، فكونوا من قُراء الرحمن بارك الله فيكم!

---

[1] تلبيس ، ص ١٨٨

وأيضا نظر مالك بن دينار، إلى شاب ملازم للمسجد، فجلس إليه، فقال له: هل لك أن أكلم بعض العشارين يجرون عليك شيئًا، وتكون معهم، قال: ما شئت يا أبا يحيى. فأخذ كفًا من تراب فجعله على رأسه.

وقال محمد بن خفيف لرويم: أوصني فقال:

"هو بذل الروح، وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية"[(1)].

وقال رجل للشبلي: قد ورد جماعة من أصحابك، وهم في الجامع فمضى فرأى عليهم المرقعات والفوط، فأنشأ يقول:

أما الخيام فإنها كخيامهم

وأرى نساء الحي غير نسائها

يقول ابن الجوزي:

"واعلم أن هذه البهرجة في تشبه هؤلاء بأولئك، لا تخفى إلا على كل غبي في الغاية. فأما أهل الفطنة فيعلمون أنه تنميس بارد [(2)]".

---

(1) نفس المصدر ص ١٨٩

(2) نفس المكان

وأن لبس الفوط والمرقعات مكروه لأربعة أوجه:

١- أنه ليس من لباس السلف، وإنما كان السلف يرقعون ضرورة.

٢- أنه يتضمن ادعاء الفقر، وقد أُمِر الإنسان أن يظهر نعمة الله عليه.

٣- أنه إظهار للزهد، وقد أُمِرنا بستره.

٤- أنه تشبه بهؤلاء المتزحزحين عن الشريعة، ومن تشبه بقوم فهو منهم. فعن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ:

"من تشبه بقوم فهو منهم".

ويشير جعفر الحذاء، إلى أنه لما فقد القوم الفوائد من القلوب، اشتغلوا بالظواهر وتزيينها. يعني بذلك: أصحاب المصبغات والفوط.

ونظر محمد الكتاني إلى أصحاب المرقعات فقال: أخواني إن كان لباسكم موافقًا لسرائركم، لقد أحببتم أن يطلع الناس عليها. وإن كانت مخالفة لسرائركم فقد هلكتم ورب الكعبة.

وقال الدينوري لبعض أصحابه: لا يعجبنك ما ترى من هذه اللبسة الظاهرة عليهم. فما زينوا الظواهر، إلا بعد أن خربوا البواطن.

ومن الصوفية من يرقع المرقعة حتى تصير كثيفة خارجة عن الحد. وقد أوصى ابن الكريني لأحد أصحابه بمرقعته، فوزن فردة كم من أكمامها، فإذا فيه أحد عشر رطلاً.

وقرر هؤلاء الصوفية أن هذه المرقعة لا تلبس إلا من يد شيخ، وجعلوا لها إسنادا متصلاً، كله كذب ومحال.

وألف محمد بن طاهر كتابا، وجعل ضمن أبوابه: باب السنة فيما شرط الشيخ على المريد في لبس المرقعة. واحتج بحديث عبادة: "بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر".

فأين اشتراط الشيخ على المريد، من اشتراط رسول الله ﷺ، وهو الواجب الطاعة على البيعة الإسلامية؟!

وربما فضل بعض الصوفية، لبس "الملابس الزرقاء"، وهنا قد تفوتهم فضيلة البياض، مع وقوعهم في الشهرة.

وفضل بعضهم لبس "الفوط"، وهذه ثياب شهرة أكثر من شهرة الأزرق، ولاسيما إذا كانت مرقعة.

وقد أمر الشارع بالثياب البيض ونهى عن ثياب الشهرة. فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ:

"**البسوا من ثيابكم البيض، فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم".** (قال الترمذي: هذان حديثان صحيحان).

وعن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺقال:

"البسوا الثياب البيض، فإنها أطهر وأطيب. وكفنوا فيها موتاكم".

هذا هو الذي يستحبه أهل العلم. فقد قال الإمام أحمد: أحب الثياب أن نكفن فيها البياض.

وذكر محمد بن طاهر (السابق ذكره) في كتابه بابا سماه "باب السنة في لبسهم المصبغات" واحتج بأن النبي ﷺ، لبس حلة حمراء، وأنه دخل يوم الفتح وعليه عمامة سوداء. ويقول ابن الجوزي:

"ولا ينكر أن رسول الله ﷺ، لبس، ولأن لبسه غير جائز. وقد رُوي أنه كان يعجبه الحبرة، وإنما المسنون: الذي يأمر ويداوم عليه [1]".

---

[1] تلبيس، ص ١٩٢

وعن أبي هريرة وزيد بن ثابت، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه: "نهى عن الشهرتين، فقيل يا رسول الله وما الشهرتان؟ قال: رقة الثياب وغلظها، ولينها وخشونتها، وطولها وقصرها، ولكن سداد بين ذلك واقتصاد".

وعن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ:

"من لبس ثوب شهرة ألبسه الله ثوب المذلة يوم القيامة".

وقد روي أن ابن عمر رضي الله عنهما، رأى على ولده ثوبا قبيحا دونًا، فقال: لا تلبس هذا، فإن هذا ثوب شهرة.

وقال سفيان الثوري، متحدثًا عن حال السلف:

"كانوا يكرهون الشهرتين: الثياب الجياد التي يشتهر بها، ويرفع الناس فيها أبصارهم، والثياب الرديئة التي يحتقر فيها ويسترذل [1]".

ولعله قد اتضح الآن السبب في أننا قد اخترنا من قبل أن يكون الصوفي منسوبا إلى الصوف، نظرا لكثرة

---

[1] نفس المصدر ص ١٩٤

الاعتراضات الواردة على مسألة ملابس الصوفية، كما رأينا وكما سنرى بعد قليل.

ومن الصوفية من يلبس الصوف، ويحتج بأن النبي ﷺ، لبس الصوف، وبما روي في فضيلة لبس الصوف.

أما لبس رسول الله ﷺ، الصوف، فقد كان يلبسه في بعض الأوقات؛ إذ لم يكن لبسه شهرة عند العرب.

أما ما يروى في فضل لبسه، فمن "الموضوعات" التي لا يثبت منها شيء. على أنه لا يخلو لابس الصوف من أحد أمرين:

١- إما أن يكون متعودا لبس الصوف وما يجانسه من غليظ الثياب، فلا يكره ذلك له، لأنه لا يشتهر به.

٢- وإما أن يكون مترفًا لم يتعوده، فلا ينبغي له لبسه من وجهين:

(أ) أنه يحمل بذلك على نفسه ما لا تطيق، ولا يجوز له ذلك.

(ب) أنه يجمع بلبسه بين الشهرة وإظهار الزهد.

فالبر ليس في الكساء، وإنما البر ما وقر في القلب وصدقه العمل.

قال سليمان بن أبي سليمان، لأحمد بن أبي الحواري: أي شيء أرادوا بلباس الصوف؟ قال أحمد: التواضع. قال سليمان: لا يتكبر أحدهم إلا إذا لبس الصوف.

قال أبو جعفر الطبري:

"ولقد أخطأ من أثر لباس الشعر والصوف، على لباس القطن والكتان مع وجود السبيل إليه من حله"[(1)].

وقد أخرج مسلم في صحيحه، من حديث عمر بن الخطابﷺ، أنه رأى حلة سيراء (حرير) تباع عند باب المسجد، فقال لرسول الله ﷺ، لو اشتريتها ليوم الجمعة وللوفود إذا قدموا عليك. فقال رسول الله ﷺ:

"إنما يلبس هذه من لا خلاق له في الآخرة".

فما أنكر عليه ذكر التجمل بها، وإنما أنكر عليه؛ لكونها حريرا.

---

(1) تلبيس، ص ١٩٨

وكان ابن مسعود﷛ من أجود الناس ثوبا وأطيبهم ريحا. وكان الحسن البصري يلبس الثياب الجياد. وكان مالك بن أنس يلبس الملابس العدنية الجياد.

وربما كان السلف يلبسون خلقان الثياب في بيوتهم، فإذا خرجوا تجملوا ولبسوا ما لا يشتهرون به. قال عيسى بن حازم: كان لباس إبراهيم بن أدهم، كتانًا قطنًا فروة، لم أرَ عليه ثياب صوف ولا ثياب شهرة.

وليس من اللائق أن يلبس المسلم لباسا يزري به. وقد رأى ذو النون خفًا أحمر على أحدهم، فقال: انزع هذا يا بني، فإنه شهرة ما لبسه رسول الله ﷺ،إنما لبس النبي ﷺ خفين أسودين ساذجين. ويقول ابن الجوزي:

"واعلم أن اللباس الذي يزري بصاحبه، يتضمن إظهار الزهد وإظهار الفقر، وكأنه لسان شكوى من الله عز وجل، ويوجب احتقار اللابس، وكل ذلك مكروه ومنهي عنه"[(1)].

وعن جابر﷛ قال: أتانا رسول الله ﷺ زائرا في منزلي، فرأى رجلاً شعثًا، فقال: "أما كان يجد هذا ما يسكن

---

(1) تلبيس، ص ٢٠٠

به رأسه". ورأى رجلاً عليه ثياب وسخة، فقال: "أما كان يجد هذا ما يغسل به ثيابه".

وكان علي بن أبي طالبﷺ يؤثر لبس الخشن وأكل الشعير، فلما سئِل في ذلك قال:

"إن الله افترض على أئمة العدل، أن يُقدروا أنفسهم بالعوام، لئلا يتبيغ بالفقير فقره [(1)]" أي لئلا يزيد ويغلو.

وينبغي أن يرَاعى هنا، أنه ليس كل ما تهواه النفس مذموما، ولا كل التزين للناس يكره. لكن ينْهى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه، أو كان على وجه الرياء في باب الدين.

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، ينتظرونه على الباب، فخرج يريدهم، وفي الدار ركوة فيها ماء. فجعل ينظر في الماء ويسوي شعره ولحيته. فقلت: يا رسول الله وأنت تفعل هذا! قال:

[(1)] تلبيس، ص ٢٠١

" نعم إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيئ من نفسه، فإن الله جميل يحب الجمال [1]".

ومع هذا يجب على المسلم، أن يحتاط من الرياء في هذه المواقف، وذلك إذا أراد إظهار التخشع.

فعن ابن مسعودﷺ، عن النبي ﷺ، قال: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: إن أحدنا يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس.

(انفرد به مسلم. والغمط: الاحتقاد)

وكان في الصوفية من لبس ثوبا خرق بعضه، وربما أفسد الثوب الرفيع القدر. وحِكِي أنه كان من عادة الشبلي إذا لبس شيئًا خرق فيه موضعا ويستشهد على ذلك – جهلاً – بالآية الكريمة:

﴿فَطَفِقَ مَسحا بِالسوقِ وَالأعنَاقِ﴾

(سورة ص: ٣٣)

---

[1] نفس المكان

ولا يجوز أن ينسب فعل الفساد إلى نبي معصوم. وقد أُخْتُلِف في معنى هذه الآية على أقوال:

١- مسح على أعناقها وسوقها، وقال: أنت في سبيل الله. وهذا إصلاح.

٢- عقرها، وذبح الخيل وأكل لحمها جائز. فما فعل شيئًا فيه جناح. فأما إفساد ثوب صحيح لا لغرض صحيح فإنه لا يجوز.

٣- ومن الجائز أن يكون في شريعة سليمان جواز ما فعل ولا يكون في شرعنا.

وكان من مذهب أبي علي الروزباري: تخريق أكمامه وتفتيق قميصه. فكان يخرق الثوب المثمن، فيرتدي بنصفه، ويأتزر بنصفه حتى أنه دخل الحمام يوما وعليه ثوب، ولم يكن مع أصحابه ما يأتزرون به، فقطعه على عددهم فاتزروا به، وتقدم إليهم أن يدفعوا الخرق إذا خرجوا للحمامي. وكان الرداء الذي قطعه يقوم بنحو ثلاثين دينارا.

ونظير هذا في الإسراف، ما فعله أحد الصوفية حين ذبح لضيوفه طائرا يساوي مائة درهم. وكان يمكن أن يقترض، ثم يبيع الطائر، ويسدد الدين، دون الوقوع في هذا الإسراف.

ومثله ما حكِي من أن أبا الحسين الدراج البغدادي، دخل الري. وكان يحتاج إلى لفاف لرجله، فدفع إليه رجل منديلاً ديبقيا، فشقه نصفين، وتلفف به، فقيل له: لو بعته واشتريت منه لفافًا، وأنفقت الباقي، فقال: أنا لا أخون المذهب. وفي هذا يقول ابن الجوزي:

"فانظر إلى هذا الجهل والتفريط والبعد من العلم، فإنه قد صح عن رسول الله ﷺ: أنه نهى عن إضاعة المال. ولو أن رجلا قطع دينارا صحيحا وأنفقه، كان عند الفقهاء مفرطًا، فكيف بهذا التبذير المحرم [1]".

وبعض الصوفية يمزقون الثياب المطروحة عند الوجد، ثم يدعون أن هذه حالة. مع أنه لا خير في حالة تنافي الشرع.

وفي الصوفية من يبالغ في تقصير ثوبه، وذلك شهرة أيضا. وكان في قميص أحدهم بعض التذييل، فقيل له: فقال: الشهرة اليوم في التشمير.

---

[1] تلبيس، ص ٢٠٤

وقد روى إسحق بن هانئ، فقال: دخلت يوما على أبي عبد الله أحمد بن حنبل، وعلي قميص أسفل من الركبة، وفوق الساق. فقال: أي شيء هذا وأنكره، وقال: هذا بالمرة لا ينبغي.

وكان في الصوفية، من يجعل على رأسه خرقة مكان العمامة، وهذا أيضا نوع من الشهرة؛ لأنه على خلاف لباس أهل البلد. وكل ما فيه شهرة فهو مكروه.

وإن ابن المبارك دخل المسجد يوم جمعة وعليه قلنسوة، فنظر الناس لبس عليهم قلانس، فأخذها فوضعها في كمه.

وقد كان بعض الصوفية يستكثر من الثياب وسوسة، فيجعل للخلاء ثوبا وللصلاة ثوبا. وقد روي هذا عن جماعة منهم أبو زيد. وهذا لا بأس به، إلا أنه لا ينبغي خشية، أو يتخذ سنة. فما كان لرسول الله ﷺ، ولا لأصحابه، إلا ثوب واحد. وقد عدل زين العابدين عن اتخاذ ثوب خاص للخلاء بعد أن عرف أن هذه وسوسة[1].

---

[1] ابن قدامة الحنبلي (٦٢٠هـ) : ذم الموسوسين ص ٣٨

وكان في الصوفية، من لا يكون له سوى ثوب واحد، زهدا في الدنيا، وهذا أحسن، إلا أنه إذا أمكن اتخاذ ثوب للجمعة والعيد، كان أصلح وأحسن. وقد روي عن أبي هريرة وغيره من الصحابة، قالوا:

"كان لرسول الله ﷺ، برد يمنية وإزار من نسج عمان. فكان يلبسهما في يوم الجمعة ويوم العيد، ثم يطويان[(1)]".

***

ومسألة الطعام والشراب: كانت من أهم الاعتراضات الواردة على الزهاد والصوفية. وقد عرفنا من قبل ما بينهما من صلة.

فمن تلبيس إبليس على الزهاد، أنه يوهمهم أن الزهد ترك المباحات: فمنهم من لا يزيد على خبز الشعير، ومنهم من لا يذوق الفاكهة، ومنهم من يقلل المطعم، حتى ييبس جلده، ومنهم من يعذب نفسه بلبس الصوف، ومنهم من يمنعها الماء البارد.

---

(1) تلبيس، ص ٢٠٦

ولم تكن هذه طريقة رسول الله ﷺ، ولا طريق أصحابه وأتباعهم. وإنما كانوا يجوعون إذا لم يجدوا شيئًا، فإذا وجدوا أكلوا.

وقد كان رسول الله ﷺ: يأكل اللحم ويحبه، ويأكل الدجاج، ويحب الحلوى، ويستعذب له الماء البارد، ويختار الماء البائت، فإن الماء الجاري يؤذي المعدة ولا يروي.

وكان أحدهم يقول: أنا لا آكل الخبيص، لأني لا أقوم بشكره. فقال الحسن البصري: هذا رجل أحمق، وهل يقوم بشكر الماء البارد؟

وقد كان سفيان الثوري، إذا سافر حمل في سفرته اللحم المشوي والفالوذج. ويقول ابن الجوزي في هذا المقام:

"وينبغي للإنسان أن يعلم أن نفسه مطيته، ولا بد من الرفق بها، ليصل بها إلى المقصود. فليأخذ ما يصلحها، وليترك ما يؤذيها من الشبع والإفراط في تناول الشهوات، فإن ذلك يؤذي البدن والدين [(1)]".

فإذا تزهد امرؤ، وآثر ترك الشهوات:

[(1)] تلبيس، ص ١٥١

١- إما لأن الحلال لا يحتمل السرف.

٢- أو لأن الطعام اللذين، يوجب كثرة التناول، فيكثر النوم والكسل. فهذا وذاك يحتاج أن يعلم ما يضر تركه، وما لا يضر، فيأخذ قدر القوام من غير أن يؤذي النفس. ومن الخطأ ما ظنه قوم، من أن الخبز القفار، يكفي في قوام البدن. فربما كفى، ولكن الاقتصار عليه يؤذي، من جهة أن أخلاط البدن تفتقر إلى الحامض والحلو والحار والبارد والممسك والمسهل.

فلا ينبغي للمسلم أن يلتفت إلى قول من قال بتقليل المطعم ومجاهدة النفس بترك مباحاتها، فإن اتباع الشارع وصحابته أولى من مثل هذه الآراء، التي لا تخرج عن كونها أهواء متبعة، أو رهبانية مبتدعة. فلا بد من التعبد على عقل وشرع.

***

ويقول ابن الجوزي عن الصوفية في مسألة الطعام والشراب:

"قد بالغ إبليس في تلبيسه على قدماء الصوفية، فأمرهم بتقليل المطعم وخشونته، ومنعهم شرب الماء البارد، فلما

بلغ إلى المتأخرين استراح من التعب، واشتغل بالتعجب من كثرة أكلهم ورفاهية عيشهم "[1].

وكان في الصوفية من يبقى أياما لا يأكل إلى أن تضعف قوته. ومنهم من يتناول كل يوم الشيء اليسير، الذي لا يقيم البدن.

وروي أن سهل التستري، في بدايته، كان يشتري دبسا بدرهم وسمنًا بدرهمين، ودقيق الأرز بدرهم، فيخلطه ويجعله ثلاثمائة وستين كرة، فيفطر كل يوم على واحدة.

كما كان يقتات ورق النبق مدة، وكذلك أكل التبن مدة ثلاث سنين، واقتات بثلاث دراهم في ثلاث سنين.

وما فعله سهل - إن صح - لا يجوز، لأنه حمل على النفس ما لا تطيق. وأن الله عز وجل أكرم الآدميين بالحنطة، وجعل قشورها لبهائمهم، فلا تصلح مزاحمة البهائم في أكل التبن. وأي غذاء مثل التبن ومثل هذه الأشياء أشهر من أن يحتاج إلى رد.

---

[1] تلبيس، ص ٢٠٦

وقد حكِي عن سهل أنه كان يرى أن صلاة الجائع الذي قد أضعفه الجوع قاعدا، أفضل من صلاته قائما إذا قواه الأكل.

وهذا خطأ، بل إذا تقوى على القيام كان أكله عبادة؛ لأنه يعين على العبادة، وإذا تجوع إلى أن يصلي قاعدا، فقد تسبب في ترك الفرائض، فلم يجز له. ولو كان التناول ميتة ما جاز هذا، فكيف وهو حلال!. وأي قربة في هذا الجوع المعطل أدوات العبادة[1].

وقال أبو جعفر الحداد:

أِشرف علي أبو تراب يوما، وأنا على بركة ماء، ولي ستة عشر يوما، لم آكل شيئًا، ولم أشرب فيها ماء، فقال: ما جلوسك ههنا؟ فقلت: أنا بين العلم واليقين، وأنا أنظر من يغلب؛ فأكون معه.

وما ذهب إليه الحداد جهل محض؛ لأنه ليس بين العلم واليقين تضاد، إنما اليقين أعلى مراتب العلم. وأين من العلم واليقين، ترك ما تحتاج إليه النفس من المطعم والمشرب!

[1] تلبيس إبليس، ص ٢١١ وانظر ٢٠٧ وما بعدها.

وإنما أشار بالعلم إلى ما أمره الشرع. وأشار باليقين إلى قوة الصبر. وهذا تخليط قبيح. وهؤلاء شددوا فيما ابتدعوا، فجحدوا الأصل وشددوا في الفرع.

وقال إبراهيم بن البنا البغدادي:

صحبت ذا النون من أخميم إلى الإسكندرية، فلما كان وقت إفطاره أخرجت قرصا وملحا كان معي، وقلت: هلم، فقال لي: ملحك مدقوق لست تفلح. فنظرت إلى مزوده فإذا فيه قليل سويق شعير يستف منه.

فهذا من أقبح الأشياء. وكيف يقال عمن استعمل ما أبيح له: لست تفلح. وأما سويق الشعير، فإنه يورث مرض القولنج.

وقال أبو سليمان الصوف: الزبد بالعسل إسراف.

وهو قول مرذول؛ لأن الإسراف ممنوع منه شرعا، وهذا مأذون فيه. وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه كان يأكل القثاء بالرطب، وكان يحب الحلوى والعسل.

ويقول أبو عبد الله بن زيد: منذ أربعين سنة، ما أطعمت نفسي طعاما، إلا في وقت ما أحل الله لها الميتة.

وهو هنا فعل برأيه المرذول، وحمل على النفس مع وجود الحلال.

وجاء رجل إلى أبي يزيد، قال: أريد أن أجلس في مسجدك الذي أنت فيه، قال: لا تطيق ذلك. فقال: إن رأيت أن توسع لي في ذلك فأذن له فجلس يوما لا يطعم، فصبر، فلما كان في اليوم الثاني، قال له يا أستاذ: لا بد مما لا بد منه. فقال: يا غلام لا بد من الله. قال: يا أستاذ أريد القوت. قال: يا غلام القوت عندنا إطاعة الله. فقال: يا أستاذ أريد شيئًا يقيم جسدي في طاعته عز وجل. فقال: يا غلام إن الأجسام لا تقوم إلا بالله عز وجل.

فهذا كلام ركيك، لأن البدن قد بني على الحاجة إلى الطعام، حتى أن أهل النار في النار، يحتاجون إلى الطعام.

ونظر أبو تراب إلى صوفي مد يده إلى قشر البطيخ، وكان قد طوى ثلاثة أيام. فقال له: تمد يدك إلى قشر البطيخ، أنت لا يصلح لك التصوف، الزم السوق.

وهذا التقبيح على الجائع لا وجه له، والذي طوى ثلاثًا مخطئ هو أيضا ويستحق لوم الشرع، حتى ولو كان صائما في رمضان.

ففي حديث كل رجاله ثقاة، عن ابن عمرﷺ، قال رسول الله ﷺ:

"**من أصابه جهد في رمضان، فلم يفطر، فمات دخل النار**"[(1)]**.**

وهناك أمثلة أخرى للصوفية، ليست من أصل الشرع، وهي مما يستوجب الاعتراض، مثل قول أبي علي الروزباري:

"**إذا قال الصوفي بعد خمسة أيام: أنا جائع، فألزموه السوق، وأمروه بالكسب**"[(2)]**.**

وكان أبو عبد الله بن خفيف، قد أمر بعض أصحابه، أن يقدم إليه كل ليلة عشر حبات زبيب لإفطاره. فأشفق عليه ليلة وحمل إليه: خمس عشرة حبة، فنظر إليه، وقال: من أمرك بهذا! وأكل عشر حبات وترك الباقي! وفيه من التكلف ما لا يخفى. ولهذا لما فصد ذات مرة أُغْمِي عليه، فتحير الفصاد وقال: ما رأيت جسدا لا دم فيه إلا هذا!

---

(1) تلبيس، ص ٢١٣

(2) نفس المصدر ص ٢٠٩

وكان في الصوفية قوم لا يأكلون اللحم، حتى قال بعضهم: أكل درهم من اللحم يقسي القلب أربعين صباحا.

وهذا مذهب البراهمة، الذين لا يرون ذبح الحيوان، والله عز وجل أعلم بمصالح الأبدان، فأباح اللحم لتقويتها. فأكل اللحم يقوي القوة، وتركه يضعفها ويسيء الخلق.

وقد كان رسول الله ﷺ، يأكل اللحم، ويحب الذراع من الشاة. ودخل يوم فقدم إليه طعام من طعام البيت فقال: **"لم أر لكم برمة تفور**[1]**"**.

وكان الحسن البصري يشتري كل يوم لحما. وعلى هذا كان السلف إلا أن يكون فيهم الفقير؛ فيبعد عهده باللحم لأجل الفقر.

ومن الصوفية من يمتنع من الطيبات كلها، ومنهم من يمتنع من شرب الماء الصافي، أو الماء البارد فيشرب الحار، أو يعاقب نفسه بترك الماء مدة.

وكان بعضهم يزن قوته بكربة من كرب النخل، وهي تجف كل يوم قليلاً، فينقص من قوته بمقدار ذلك.

---

(1) تلبيس، ص ٢١٢ وأنظر ما بعدها.

وظن بعضهم أن الجوع ينقص دم الفؤاد فيبيضه، وفي بياضه نوره، ويذيب شحم الفؤاد، وفي ذوبانه رقته، وفي رقته مفتاح المكاشفة.

ومن هنا أوجبوا على المريد، أن يصوم شهرين متتابعين توبة من الله، ثم يفطر، فيطعم اليسير، ويأكل كسرة كسرة، ويقطع الإدام والفواكه واللذة، ومجالسة الأخوان، والنظر في الكتب، وهذه كلها أفراح للنفس فيمنع النفس لذتها حتى تمتلئ غما.

والحق أن من منع نفسه الشهوات، لا صلاح له؛ لأن الله عز وجل لما خلق الإنسان جعل صحته موقوفة على توفر الأغذية، كما ركب في طبعه ما تميل إليه نفسه وتوافقه. فإذا مالت النفس إلى ما يصلحها فمنعت منه، فقد قوبلت حكمة البارئ سبحانه وتعالى بردها، ثم يؤثر ذلك في البدن، فكان هذا الفعل مخالفًا للشرع وللعقل معا؛ لأن البدن مطية الآدمي، ومتى لم يرفق بالمطية لم يبلغ مراده.

والسبب في خلط هذا الفريق من الصوفية، هو قلة علمهم، فتكلموا بآراء فاسدة، فإن أسندوا فإلى حديث ضعيف أو موضوع، أو يكون فهمهم منه رديئًا.

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ، كان يأكل القثاء بالرطب. وهاتان شهوتان. وأكل ﷺ عند أبي الهيثم بن التيهان خبزا وشواء وبسرا، وشرب ماء باردا.

وكان الثوري يأكل اللحم والعنب والفالوذج، ثم يقوم فيصلي.

وربما نهى بعض السلف عن الجمع بين إدامين على الدوام لئلا يتخذ ذلك عادة؛ فيحوج إلى كلفة.

ومن الواجب أن تجتنب فضول الشهوات؛ لئلا يكون سببا لكثرة الأكل وجلب النوم. ولئلا تتعود فيقل الصبر عنها، فيحتاج الإنسان إلى تضييع العمر في كسبه، وربما تناولها من غير وجهها الصحيح. وهذا طريق السلف الصالح في ترك فضول الشهوات.

وربما احتج بعض الصوفية بحديث: "احرموا أنفسكم طيب الطعـام" وهذا حديث موضوع، عملته يدا بزيغ الـراوي[1].

وإذا اقتصر الإنسان على خبز الشعير والملح الجريش (الخشن) كما يقول بعضهم، فإنه ينحرف مزاجه؛ لأن خبز

---

[1] تلبيس، ص ٢١٣ وانظر ص ٢١٢

الشعير يابس مجفف، والملح يابس قابض يضر الدماغ والبصر، كما أن تقليل المطعم يوجب تنشيف المعدة وضيقها.

ويقول ابن الجوزي:

"واعلم أن المذموم من الأكل، إنما هو فرط الشبع، وأحسن الآداب في المطعم أدب الشارعﷺ "[1].

قال المقدام بن معدي كرب: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه. حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه. فإن كان لا بد، فثلث طعام، وثلث طعام، وثلث شراب، وثلث لنَفَسِه[2].

وبذلك قد أمر الشرع بما يقيم النفس؛ حفظًا لها، وسعيا في مصلحتها. ومن أكبر الخطأ أن الصوفية يأمرون شبابهم ومبتدئيهم بالتقلل. وهذا من أضر الأشياء على الشباب؛ لأنهم لا صبر لهم على الجوع مثل الكهول.

---

(1) تلبيس، ص ٢١٤

(2) نفس المكان

أما السبب في ذلك، فهو أن حرارة الشباب شديدة؛ فلذلك يجود هضمه، ويكثر تحلل بدنه، ومن هنا يحتاج إلى كثرة الطعام، كما يحتاج السراج الجديد إلى كثرة الزيت.

وقد فعل قوم هذا التقلل من الطعام، فقطعهم عن الغرض، كما أخرج آخرين إلى الجنون، ودفع بسواهم إلى الزندقة.

وقال رجل لأحمد بن حنبل: إني منذ خمس عشرة، قد ولع بي إبليس، وربما وجدت وسوسة: أتفكر في الله عز وجل. فقال: لعلك كنت تدمن الصوم، أفطر وكل دسما وجالس القصاص[1].

هذا وإن تناول الأطعمة الرديئة، يخرج إلى الوساوس والجنون وسوء الأخلاق. وربما ظن بعضهم أن هذه أحوال ومقامات الطريق الصوفي.

وقد يرد اعتراض هنا، فحواه: كيف تمنعون من التقلل، وقد رويتم أن عمرﷺ، كان يأكل كل يوم إحدى عشرة لقمة، وأن ابن الزبير كان يبقى أسبوعا لا يأكل، وأن إبراهيم التميمي بقي شهرين ويقول ابن الجوزي ردا على ذلك:

---

[1] نفس المصدر، ص ٢١٥

"قلنا قد يجري للإنسان من هذا الفن في بعض الأوقات، غير أنه لا يدوم عليه. ولا يقصد الترقي إليه. وقد كان في السلف من يجوع عوزا، وفيهم من كان الصبر له عادة لا يضر بدنه".

ثم يقول:

"ونحن لا نأمر بالشبع، إنما ننهى عن جوع يضعف القوة، ويؤذي البدن: وإذا ضعف البدن قلت العبادة [(1)]".

وعن أنس ﵁ قال:

"كان يطرح لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، الصاع من التمر فيأكله حتى حشفة [(2)]".

وروي أن إبراهيم بن أدهم، اشترى زبدا وعسلاً وخبزا، فقيل له: هذا كله تأكله، فقال: إذا وجدنا أكلنا أكل الرجل، وإذا عدمنا صبرنا صبر الجمال.

أما الشرب من الماء الصافي: فقد تخيره رسول الله ﷺ. فعن جابر بن عبد الله﵁، أن رسول الله ﷺ: أتى قوما

---

(1) تلبيس ، ص ٢١٦

(2) نفس المكان.

من الأنصار يعود مريضا، فاستسقى وجدول قريب منه، فقال: "**إن كان عندكم ماء بات في شن، وإلا كرعنا**".

أخرجه البخاري.

وعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ، كان يستَقَى له الماء العذب من بئر السقيا.

وينبغي أن يعلم أن الماء الكدر، يولد الحصى في الكلى، والسدد في الكبد.

وأما الماء البارد فإنه إذا كانت برودته معتدلة، فإنه – كما يرى ابن الجوزي – يشد المعدة، ويقوي شهوة الطعام، ويحسن اللون، ويمنع عفن الدم وصعود البخارات إلى الدماغ، ويحفظ الصحة.

وإذا كان الماء حارا، أفسد الهضم وأحدث الترهل، وأذبل البدن، وأدى إلى الاستسقاء والدق. فإن سخن بالشمس خِيف منه البرص.

وقد كان بعض الزهاد يقول: إذا أكلت الطيب وشربت الماء فمتى تحب الموت. وكأن الأفضل عنده أن يموت الإنسان لا أن يحيا. فلو تقلبت النفس في أي فن كان من التعذيب ما أحبت الموت! فلا يجوز شرعا تعذيبها.

وما حكِي من معاقبة أبي يزيد نفسه بترك الماء، فإنه حالة مذمومة لا يراها مستحسنة إلا الجهال.

ووجه ذمها، أن للنفس حقًا، ومنع الحق مستحقه ظلم ولا يحل للإنسان أن يؤذي نفسه، ولا أن يقعد في الشمس في الصيف بقدر ما يتأذى، ولا في الثلج في الشتاء.

هذا وإن الماء يحفظ الرطوبات الأصلية في البدن، وينفذ الأغذية، ولا قوام للنفس إلا بالأغذية، فإذا منعها أغذية الآدميين ومنعها الماء، فقد أعان عليها. وهذا من أفحش الخطأ[1].

وموضوع المساكن: كان أيضا من أهم الموضوعات التي جعلت الصوفية محل انتقاد. ذلك أن قوما من المتعبدين قاموا ببناء الأربطة، واتخذوها للانفراد بالتعبد.

وقد أطلق الرباط في أول أمره على المكان أو الثغر، الذي يرابط فيه جنود المسلمين للجهاد في سبيل الله، ويلازمونه مترصدين للعدو، متأهبين للغزو.

---

(1) تلبيس ، ص ٢١٧

وبعد ذلك صار الرباط يطلق على المكان الذي يرابط فيه الصوفية للعبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والتوبة، ومجاهدة النفس والحد من شهواتها.

كذلك صار الرابط مأوى للعاجزين والنساء المطلقات أو المهجورات، واليتامى والفقراء، ومسكنًا للفقهاء الغرباء، وأحيانًا لكبار العلماء.

وبهذا تطورات وظيفة الرباط إلى أداء خدمات اجتماعية ودينية وثقافية، كالوعظ والتحديث والسماع والإفتاء ومنح الإجازات العلمية، وتصنيف الكتب[1].

وقد استطاعت هذه الربط أن تؤدي خدماتها المذكورة، بما أوقفه عليها الواقفون من الأموال، ومن إنشاء الخزائن ووقف الكتب فيها، وعينوا لها القُوام والخُزان ومن يقوم بصيانتها وترتيبها ومناولتها.

وكان الصوفية القاطنون في الرباط، أو الذين يترددون عليه، يرتادون تلك المكتبات في الرباط؛ مما كان له أثر

---

[1] ابن الجوزي (عبد الرحمن المتوفى عام ٥٩٧ م): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٠: ١٠٠ حيدر أباد ١٣٥٧ هـ.

في تكوينهم العلمي.

فقد كانت هناك خزانة كتب، في "رباط الزوزني"، وهو أحد الربط القديمة ببغداد الغربية، بجوار جامع المنصور. وكذلك وجدت خزانة كتب كبيرة بالمأمونية، في رباط زمرد خاتون أم الخليفة الناصر لدين الله.

وهناك خزانة مشهورة في رباط الأخلاطية، وهي سلجوقي خاتون، زوجة الناصر لدين الله. وقد شاهد ياقوت الحموي في هذا الرباط، كتاب تاريخ الدول في ثلاثين مجلدا[1].

وقد اتخذ العلماء من هذه الربط، أماكن للمطالعة والتأليف في المكتبات التي تشتمل عليها.

وإن كثيرا من كتب التصوف، قد أُلفت في الربط، باعتبار أن الربط كانت مجمعا للصوفية.

ومن كتب الصوفية التي أُلفت في الربط: كتاب عوارف المعارف، الذي ألفه الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي

---

[1] ياقوت الحموي (المتوفى عام ٦٢٦هـ): معجم الأدباء ٥: ٢٨٩٠ طبع عام ١٩٥٥ بيروت.

المتوفى عام ٦٣٢هـ. هذا، وكان المتولي لمشيخة هذه الربط عديد من أكابر العلماء.

***

لكن تطور دور هذه الربط الصوفية، جعلها مأوى للكسالى والمترفين فيما بعد، وظهرت لها عيوب. وهذا ما دعا عالما مثل ابن الجوزي لتوجيه معاول نقده لهذه الربط، فعابها من ستة وجوه:

١- أنهم ابتدعوا هذا البناء، وإنما بنيان أهل الإسلام المساجد.

٢- أنهم جعلوا للمساجد نظيرا يقلل جمعها.

٣- أنهم أضاعوا على أنفسهم نقل الخطى إلى المساجد.

٤- أنه تشبهوا بالنصارى بانفرادهم بالأديرة.

٥- أنهم تعذبوا وهم شباب وأكثرهم محتاج إلى النكاح.

٦- أنهم جعلوا لأنفسهم علما ينطق بأنهم زهاد، فيوجب ذلك زيارتهم والتبرك بهم.

وإن كان قصد هؤلاء غير صحيح، فهم لم يتجاوزوا أنهم بنوا دكاكين للطبل ومناخًا للبطالة وأعلاما لإظهار الزهد.

وقد شوهد جمهور المتأخرين من هؤلاء الصوفية، مستريحين في الأربطة من كد المعاش، متشاغلين بالأكل والشرب والغناء والرقص، يطلبون الدنيا من كل ظالم، ولا يتورعون من عطاء ماكس. على أن أكثر أربطتهم قد بناها الظلمة، ووقفوا عليها الأموال الخبيثة. ويقول ابن الجوزي:

"وقد لبس عليهم إبليس، أن ما يصل إليكم رزقكم، فأسقطوا عن أنفسكم كلفة الورع، فمهمتهم دوران المطبخ والطعام والماء المبرد. فأين جوع بشر، وأين ورع السري، وأين جد الجنيد؟!"[1].

وهؤلاء ينقضي أكثر زمانهم في التفكه بالحديث، أو زيارة أبناء الدنيا. ومع هذا قد يقول أحدهم: حدثني قلبي عن ربي.

وحِكِي أن رجلاً قرأ القرآن في رباط، فمنعوه. وأن آخر أراد قراءة الحديث في رباط آخر، فقالوا ليس هذا موضعه الآن[2].

---

[1] تلبيس إبليس ، ص ١٧٥ – ١٧٦

[2] تلبيس ، ص ١٧٦

فما ذكره ابن الجوزي يعتبر نقدا لمن خرج على أصول الأربطة الصوفية، التي كانت منبع المعرفة والتربية الروحية.

***

وترك النكاح: مما اعترض به على التصوف والصوفية. وإن كان بعضهم هو الذي ترك ذلك.

وفي شريعة الإسلام، أن النكاح مع خوف العنت واجب، ومن غير خوف العنت سنة مؤكدة عند جمهور الفقهاء.

ومذهب أبي حنيفة وأحمد بن حنبل، أنه حينئذ أفضل من جميع النوافل؛ لأنه سبب في وجود الولد.

وقال ﷺ: "تناكحوا تناسلوا" وقال: "النكاح سنتى فمن رغب عن سنتي فليس مني".

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لقد رد رسول الله ﷺ، على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له في ذلك، لاختصينا وقال ابن عباس: إن خير هذه الأمة أكثرها نساء.

وقال شداد بن أوس: زوجوني فإن رسول الله ﷺ، أوصاني ألا ألقى الله عزبا. وروي أن يعقوب عليه السلام – في أيام حزنه – قد تزوج، وولد له[1].

***

وقد لبس إبليس على الكثير من الصوفية، فمنعهم من النكاح، فترك قدماؤه ذلك من أجل التعبد، ورأوا النكاح شاغلاً عن طاعة الله عز وجل.

وهؤلاء وإن كانت بهم حاجة إلى النكاح، أو بهم نوع تشوق إليه، فقد خاطروا بأبدانهم وأديانهم. وإن لم يكن بهم حاجة إليه، فاتتهم الفضيلة.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه قال:

"في بضع أحدكم صدقة، قالوا يأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر. قال أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر. قالوا: نعم، قال: وكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر".

---

(1) تلبيس إبليس ، ص ٢٩٢ – ٢٩٤

ثم قال:

"أفتحتسبون الشر ولا تحتسبون الخير".

ومن الصوفية من قال: النكاح يوجب النفقة، والكسب صعب. وهذه حجة للترفه عن تعب الكسب. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﵁، عن النبي ﷺ، أنه قال:

"دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار أنفقته في الصدقة، ودينار أنفقته على عيالك: أفضلها الذي أنفقته على عيالك".

ومن الصوفية من قال: النكاح يوجب الميل إلى الدنيا. لقول أبي سليمان الداراني: إذا طلب الرجل الحديث، أو سافر في طلب المعاش أو تزوج، فقد ركن إلى الدنيا.

وهذا كله مخالف لشريعة الله عز وجل؛ إذ إنه كيف لا يطلب الحديث والملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم!.

وأيضا كيف لا يطلب المعاش، وقد قال عمر: لأن أموت من سعيي على رجلي أطلب كفاف وجهي. أحب إلى من أن أموت غازيا في سبيل الله.

وكيف لا يتزوج، وصاحب الشرع ﷺيقول: "تناكحوا تناسلوا" فهذا الذي فعله بعض الصوفية مخالف للشرع.

فأما ما فعله جماعة من متأخري الصوفية، فإنهم تركوا النكاح، ليقال: زاهد. وهذا رياء. والعوام تعظم الصوفي، إذا لم تكن له زوجة، فيقولون: ما عرف امرأة قط. فهذه رهبانية تخالف شرعنا.

وقد وقع الغزالي في خطأ، حين أشار على المريد بألا يشغل نفسه بالتزويج،؛ فإنه يشغله عن السلوك، ويأنس بالزوجة. ومن أنس بغير الله شغل عن الله تعالى. ويرد عليه ابن الجوزي بقوله:

"**وإني والله لأعجب من كلامه. أتراه ما علم أن** من **قصد عفاف نفسه ووجود ولد، أو عفاف زوجته، فإنه لم يخرج عن جادة السلوك. أو يرى الأنس الطبيعي بالزوجة، ينافي أنس القلوب بطاعة الله تعالى والله تعالى قد من على الخلق بقوله**"[1] **:**

﴿ وَمِن آيَاتِهِ أَن خَلَقَ لَكُم من أَنْفُسِكُم أَزوَاجا لِتَسكُنُوا إِليهَا وَجَعَلَ بَينَكُم مودةً وَرَحمَةً ﴾

(الروم: ٢١)

---

[1] تلبيس .. ص ٢٩٥

وفي الحديث الصحيح عن جابر ﵁، عن النبي ﷺ، قال له:

"**هلا تزوجت بكرا تلاعبها وتلاعبك**"

وما كان بالذي ليدله على ما يقطع أنسه بالله تعالى.

أترى رسول الله ﷺ، لما كان يتبسط إلى نسائه ويسابق عائشة رضي الله عنها، أكان خارجا عن الأنس بالله!

وإذا دامت العزوبة على شبان الصوفية كان لها ثلاثة أضرار:

ويغلق شهوات الجسد، فيضعف.

١- **المرض بحبس الماء:** وذلك مما يؤثر تأثيرا ضارا على العقل.

٢- **الفرار إلى المحرم:** فإن منهم قوما صابروا على النكاح، فحدث لهم قلق، فلامسوا النساء، ولابسوا من الدنيا أضعاف ما فروا منه. فكانوا مثل من أطال الجوع، ثم أكل ما ترك في زمن الصبر.

٣- **الانحراف إلى صحبة الصبيان:** فإن قوما منهم أيسوا أنفسهم من النكاح، فأقلقهم ما اجتمع عندهم، فصاروا يرتاحون إلى صحبة المرد[1].

وقد لبس الشيطان على قوم منهم، تزوجوا، وقالوا: إنا لا ننكح شهوة. فإن أرادوا أن الأغلب في طلب النكاح إرادة السنة جاز، وإن زعموا ألا شهوة لهم في نفس النكاح، فمحال ظاهر.

وقد حمل الجهل أقواما منهم فجبوا أنفسهم، وزعموا أنهم فعلوا ذلك حياء من الله تعالى. وهذه غاية الحماقة؛ لأن قطع آلة النسل لا تزيل شهوة النكاح من النفس، فما حصل لهم مقصودهم بذلك، هذا بالإضافة إلى خروج الأمر عن حدود شريعة الله عز وجل.

***

وترك طلب الأولاد: مما أُعتُرض به على الصوفية. فقد قال أبو سليمان الداراني:

---

[1] تلبيس إبليس ، ص ٢٩٥ – ٢٩٦

"الذي يريد الولد أحمق، لا للدنيا، ولا للآخرة. إن أراد أن يأكل، أو ينام، أو ...، نغص عليه، وإن أراد أن يتعبد شغله".

وهذا غلط عظيم؛ لأن الله تعالى أوجد الدنيا، وجعل فيها أسباب اتصال دوامها، إلى أن ينقضي أجلها. وكأن الآدمي غير ممتد البقاء فيها إلا إلى أمد يسير، ولهذا أخلاف الله تعالى منه مثله، فحثه على سببه في ذلك: تارة من حيث الطبع بإيقاد نار الشهوة، وتارة من باب الشرع[1]، بقوله تعالى:

﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُم وَالصالِحِينَ مِن عِبَادِكُم﴾

(النور: ٣٢)

وقوله ﷺ:" تناكحوا تناسلوا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة.."

وقد طلب الأنبياء عليهم السلام – الولد، مثل:

﴿رَب هَب لِي مِن لَدُنْكَ ذُرية طَيبَةً إِنكَ سَمِيعُ الدعَاءِ﴾

(آل عمران: ٣٨)

﴿رَب اجعَلْنِي مُقِيمَ الصلاَةِ وَمِن ذُريتِي﴾

(إبراهيم: ٤٠)

---

[1] تلبيس إبليس ، ص ٢٨٦ وانظر ٢٩٧

ورب زواج حدث منه إمام كالشافعي وأحمد وغيرهما، فكان خيرا وسعادة من عبادة ألف سنة. وقد جاءت الأخبار بإثابة المباضعة، والإنفاق على الأولاد والعيال، ومن يموت له ولد، ومن يخلف ولدا بعده.

فمن أعرض عن التزوج وطلب الأولاد، فقد خالف المسنون والأفضل، وحرم أجرا جسيما. ومن فعل ذلك فهو كسول يفضل الراحة. يقول الجنيد:

"الأولاد عقوبة شهوة الحلال، فما ظنكم بعقوبة شهوة الحرام".

ويرد عليه ابن الجوزي مفندا رأيه هذا بقوله:

"وهذا غلط، فإن تسمية المباح عقوبة لا يحسن؛ لأنه لا يباح شيء، ثم يكون ما تجدد منه عقوبة،ولا يندب إلى شيء، إلا وحاصله مثوبة[1]".

والخلوة والعزلة: مما أثار النقد في حق الزهاد والعباد والصوفية. فقد عرف بعضهم حقيقة الخلوة، وانحراف بعضهم الآخر عن أصولها.

---

(1) تلبيس.. ص ٢٩٧

فقد يسمع العامي ذم الدنيا في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، فيرى أن النجاة في تركها، ولا يدري ما الدنيا المذمومة، وهنا يلبس عليه إبليس، بأنه لا ينجو في الآخرة إلا بترك الدنيا، فيخرج على وجهه إلى الجبال.

فيبعد عن الجمعة والجماعة والعلم، ويصير كالوحش، ويخيل إليه أن هذا هو الزهد الحقيقي.

كيف لا: وقد سمع عن فلان أنه هام على وجهه، وعن فلان أنه تعبد في جبل.

وربما كانت له عائلة، فضاعت، أو والدة فبكت لفراقه، وربما لم يعرف أركان الصلاة كما ينبغي، وربما كانت عليه مظالم لم يخرج منها:

"وإنما يتمكن إبليس من التلبيس على هذا، لقلة علمه، ومن جهله رضاه عن نفسه بما يعلم".

ويوجهه ابن الجوزي هنا، إلى مصاحبة الفقهاء، فيقول:

"ولو أنه وُفق لصحبة فقيه يفهم الحقائق، لعرفه أن الدنيا لا تذم لذاتها. وكيف يذم ما من الله تعالى به، وما هو ضروري في بناء الآدمي وسبب إعانته

على تحصيل العلم والعبادة، من مطعم ومشرب وملبس ومسجد يصلي فيه"[1].

إن الدنيا لا تُذم لذاتها، وإنما علة الذم أن يؤخذ الشيء من غير حله، أو يتناول على وجه السرف، لا على مقدار الحاجة.

وأن الخروج إلى الجبال المنفردة منهي عنه، فإن النبي ﷺ، نهى أن يبيت الرجل وحده.

وأن التعرض لترك الجماعة والجمعة، هو خسران لا ربح. كذلك فإن البعد عن سلطان العلم والعلماء، يقوي سلطان الجهل.

وفراق الوالد والوالدة في مثل هذا الغرض من العزلة، إنما هو عقوق؛ فهو من الكبائر.

وأما من سمِع عنه أنه خرج إلى جبل، فأحوالهم تحتمل أنهم لم يكن لهم عيال ولا والد ولا والدة؛ ولذا خرجوا إلى مكان يتعبدون فيه مجتمعين. ومن لم يحتمل حاله وجها أو عذرا،فهو على الخطأ أيا كان.

---

(1) تلبيس.. ص ١٥٠

قال بعض السلف: خرجنا إلى جبل نتعبد، فجاءنا سفيان الثوري فردنا[1].

***

نعم كان خيار السلف يؤثرون العزلة والوحدة عن الناس، لكن من أجل الاشتغال بالعلم والتعبد.

إلا أن عزلة القوم لم تقطعهم عن جمعة ولا جماعة ولا عيادة مريض، ولا شهود جنازة، لا قيام بحق، وإنما هي عزلة عن الشر وأهله، وعن مخالطة البطالين.

والذين لبس عليهم إبليس من الصوفية، منهم من اعتزل في جبل كالرهبان يبيت وحده، ويصبح وحده، ففاتته الجمعة وصلاة الجماعة ومخالطة أهل العلم. كما اعتزل عامتهم في الأربطة، ففاتهم السعي إلى المساجد، وتوطنوا على فرش الراحة، وتركوا الكسب.

ويرى بعض الصوفية كالغزالي أن مقصود الرياضة تفريغ القلب، وأن هذا لا يكون إلا بخلوة في مكان مظلم. فإن لم يكن مكان مظلم فيلف رأسه في جبته أو يندثر بكساء،

---

[1] نفس المكان عند ابن الجوزي.

أو إزار. ففي مثل هذه الحالة بسمع نداء الحق، ويشاهد جلال حضرة الربوبية.

ويعترض على ذلك، بأنه من أين له أن الذي يسمعه هو نداء الحق، وأن الذي يشاهده هو جلال الربوبية! ولماذا لا يكون هذا من الوساوس والخيال الفاسد؛ لأن التقال في المطعم يجلب الماليخوليا. وربما سلم من هذا، لكنه إذا تغشى بثوبه وغمض عينيه قد يتخايل هذه الأمور[1].

وكان أبو عبيد التستري – كما حكِي عنه – إذا كان أول يوم من شهر رمضان يدخل البيت، ويقول لامرأته: طيني باب البيت، وألقي إلي كل ليلة من الكوة رغيفًا، فإذ كان يوم العيد دخلت فوجدت ثلاثين رغيفًا في الزواية، ولا أكل ولا شرب، ولا يتهيأ لصلاة ويبقى على طهر واحد إلى آخر الشهر.

ويرى ابن الجوزي أن هذه الحكاية، بعيدة عن الصحة من وجهين:

الأول: بقاء الآدمي شهرا لا يحدث بنوم ولاغيره.

---

(1) تلبيس.. ٢٨٨ – ٢٨٩.

والآخر: ترك المسلم صلاة الجمعة والجماعة، وهي واجبة لا يحل تركها:

"فإن صحت هذه الحكاية، فما أبقى إبليس لهذا في التلبيس بقية[1]".

وقد جاء النهي عن الانفراد الموجب للبعد عن العلم والجهاد لعدو. والدليل هو ما روي عن أبي أمامةﷺ قال:

خرجنا مع رسول الله ﷺ، في سرية من سراياه، قال: فمر رجل بغار فيه شيء من ماء، قال: فحدث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار فيقوته ما كان فيه، وفيه شيء من ماء، ويصيب ما حوله من البقل، ويتخلى عن الدنيا.

ثم قال: لو أني أتيت نبي الله ﷺ، فذكرت ذلك له، فإن أذن لي فعلت، وإلا لم أفعل. فأتاه فقال: يا نبي الله إني مررت بغار فيه ما يقوتني من الماء والبقل، فحدثتني نفسي بأن أقيم فيه، وأتخلى من الدنيا. فقال نبي الله ﷺ:

"إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة. والذي نفس محمد بيده، لغدوة أو روحة

---

(1) تلبيس.. ص ٢٨٩

في سبيل الله، خير من الدنيا وما فيها، ولمقام أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة[1]".

٤- مقام الفقر:

يرى أهل التصوف: أن الفقر مقام شريف. فقد وصف الله تعالى: الفقراء وذكرهم في كتابه، فقال:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَستَطِيعُونَ ضَربا فِي الأَرضِ يَحسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التعَففِ تَعرِفُهُم بِسِيمَاهُم لاَ يَسأَلُونَ الناسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِن خَيرٍ فَإِن اللهَ بِهِ عَلِيم﴾

(البقرة: ٢٧٣)

ولهذا نرى صوفيا مثل إبراهيم الخواص يقول:

"الفقر رداء الشرف، ولباس المرسلين، وجلباب الصالحين وتاج المتقين، وزين المؤمنين، وغنيمة العارفين، ومنبه المريدين، وحسن المطيعين، وسجن المذنبين، ومكفر للسيئات، ومعظم للحسنات، ورافع للدرجات، ومبلغ

---

[1] نفس المكان.

إلى الغايات، ورضا الجبار، وكرامة لأهل ولايته من الأبرار"[1].

والفقراء على ثلاث طبقات[2]:

١- مقام المقربين:

والواحد منهم لا يملك شيئًا، ولا يطلب بظاهره ولا بباطنه من أحد شيئًا، ولا ينتظر من أحد شيئًا، وإن أُعطي لم يأخذ.

قال سهل بن علي الأصبهاني،: حرم علي كل من يسمي أصحابنا الفقراء؛ لأنهم أغنى خلق الله عز وجل.

وهم يرون أن صاحب هذا المقام قد استغنى بالمعطي عن العطاء؛ لأنه دخل أول منزلة من منازل التوحيد.

٢- مقام الصديقين:

والواحد من هؤلاء لا يملك شيئًا، ولا يسأل أحدا، ولا يطلب، ولا يعرض، وإن أُعطي شيئًا من غير مسألة أخذ.

---

(1) الطوسي: اللمع ص ٧٤

(2) نفس المصدر: ٧٤ - ٧٥

قال الجنيد: علامة الفقير الصادق أنه: لا يسأل، ولا يرد، ولا يحبس.

وقال أبو عبد الله بن الجلاء عن حقيقة الفقر: هو ألا يكون لك، فإذا كان لك لا يكون لك، ومن حيث لم يكن لك لم يكن لك.

وقال الخواص عن علاقة الفقير الصادق: ترك الشكوى، وإخفاء أثر البلوى.

٣- ومنهم من لا يملك شيئًا، وإذا احتاج انبسط إلى بعض إخوانه، ممن يعلم أنه يفرح بانبساطه إليه، فكفارة مسألته صدقة.

وهذا كما سئِلَ الجريري عن حقيقة الفقر، فقال: لا يطلب المعدوم حتى يفقد الموجود.

ولا يخفى أن مقام الفقر ناتج عن مقام الزهد، وكل ما وقع من اعتراضات هناك ينسحب على نفس هذا المقام، فلم نر حاجة لتكراره.

***

لكن الصوفية يعتزون بهذا المقام اعتزازا كبيرا، ويرون أن للفقر في طريق الله عز وجل، مرتبة عظمى، وأن للفقراء خطرا كبيرا.

وقد اختار النبي ﷺ "الفقر"، وقال:

"اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين".

(رواه الحاكم في المستدرك عن أبي سعيد)

ويقول الهجويري:

"وكان الفقراء والمهاجرون، في وقت النبي عليه السلام، هم أولئك الذين أقاموا في مسجده في حكم أداء العبودية، وصحبة النبي عليه السلام، وأعرضوا عن الأشغال كلية، وقالوا بترك المعارضة، واعتمدوا على الله تعالى في رزقهم، وتوكلوا عليه، حتى أمر الرسول ﷺ بصحبتهم والقيام بحقهم[1]".

وهو يتحدث هنا عن أهل الصفة، كما يشير إلى قوله تعالي:

---

[1] الهجويري: كشف المحجوب، ص ٢١٥

﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾

(الأنعام: ٥٢)

وإلى قوله عز وجل:

﴿وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾

(الكهف: ٢٨)

إلى حد أن الرسول ﷺ، حينما يرى واحدا منهم يقول: **بأبي وأمي، أولئك الذين عاتبني الله تعالى من أجلهم.**

لقد قال الفقراء بترك الأسباب الظاهرة والباطنة، ورجعوا إلى المسبب كلية، وصار فقرهم فخرا لهم، إلى حد أنهم يبكون لزواله، ويفرحون لقدومه.

ورسم الفقر: الإفلاس الاضطراري.

وحقيقته: الإقبال الاختياري.

فالفقير: هو الذي لا يملك شيئًا قط، وليس له خلل في شيء. وهو لا يصير غنيا بوجود الأسباب، ولا محتاجا

إلى سبب بعدمها. فوجود الأسباب وعدمها لدى فقره سواء، وإن يكن في العدم أكثر سعادة.

ويرى بعض مشايخ الصوفية، أنه كلما يكون العبد أضيق يدا يكون الحال أكثر فتحا عليه. ويقول الهجويري:

"حياة أرباب الحق مع الحق، تكون بالألطاف الخفية، والأسرار البهية، لا بآلات الدنيا الغدارة، والدار الفجارة[1]".

والفقير يكون محفوظ الجوارح من الزلل، ومحفوظ الحال من الخلل، فلا المعصية والزلل تجري على جسده، ولا الخلل والآفة على حاله.

وحين يصف الصوفية أنفسهم بالفقر وعزه، يرون الغنى لله تعالى ومعناه:

" أنه لا حاجة له بأي أحد أو شيء، ويفعل ما يريد، وليس لمراده واقع، ولا لقدرته مانع، وهو قادر على قلب الأعيان، وخالق الضدين، وكان ولا يزال دائما لهذه الصفة[2]".

---

[1] كشف المحجوب، ص ٢١٦

[2] كشف المحجوب (السابق)، ص ٢١٨

أما غنى الخلق فهو محدث ومتغير، مثل منال معيشة، أو وجود مسرة، أو نجاة من آفة أو راحة بمشاهدة.

إذن فهذا الاسم "الغنى" للعبد مجاز، وللحق تعالى حقيقة لقوله تعالى:

﴿يَا أَيهَا الناسُ أَنْتُم الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ﴾

(فاطر: ١٥)

وقوله عز وجل:

﴿ وَاللهُ الْغَنِي وَأَنْتُم الْفُقَرَاءُ ﴾

(محمد: ٣٨)

وتذهب طائفة من العوام، إلى أنهم يفضلون الغني على الفقير؛ لأن الله تعالى خلقه سعيدا في الدارين، ومن عليه بالغنى.

وهذه الطائفة تريد بالغنى كثرة المتاع،وإدراك الغايات، ومتابعة الشهوات. ويدللون على هذا، بأن الله تعالى أمر بالشكر على الغنى، والصبر في الفقر، فالصبر يكون في البلاء، والشكر يكون في النعماء، والنعماء في الحقيقة أفضل من البلاء.

وقد رد الهجويري على مثل هذا، بأن الله تعالى أمر بالشكر على النعمة، وجعل الشكر علة لزيادة النعمة، وأمر بالصبر على الفقر، وصبر الصبر علة لزيادة القربة:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾

(إبراهيم: ٧)

وقال عز وجل:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

(البقرة: ١٥٣)

ويقول الهجويري:

"أما الغنى الذي يفضله المشايخ على الفقر، فليس مرادهم مما يسميه العوام بالغنى؛ لأن هذا الغنى إدراك للنعم، وذاك إدراك للمنعم، فإدراك الوصل شيء وإدراك الغفلة شيء آخر[1]".

ويقول أبو سعيد الخير: "الفقر هو الغنى بالله". والمراد: الكشف الأبدي بمشاهدة الحق. فالغنى صاحب صدقة، والفقير صاحب صدق، ولا يكون الصدق أبدا كالصدقة.

---

[1] كشف المحجوب، ص ٢١٩

وقد قال الله تعالى لأيوب في شدة صبره:

﴿نِعمَ الْعَبدُ﴾

(سورة "ص": ٤٤)

وقال لسليمان في استقامة ملكه:

﴿نِعمَ الْعَبدُ﴾

(سورة "ص": ٣٠)

فلما حصل رضا الرحمن، جعل فقر أيوب مثل غنى سليمان؛ ولهذا قال أحد الصوفية: ليس الفقير من خلا من الزاد، إنما الفقير من خلا من المراد.

ويقول يحيى بن معاذ:

"علامة الفقر خوف زوال الفقر"

أي أن علامة صحة الفقر، أن العبد في كمال الولاية، وقيام المشاهدة وفناء الصفة، يخشى الزوال والقطيعة، ثم يصل به كمال الحال إلى حد أنه لا يخشى القطيعة، أي ضياع الأسباب الدنيوية.

ومن أهم سمات الفقير غير ما سبق، ما يقوله رويم:

"من نعت الفقير: حفظ سره، وصيانة نفسه، وأداء فرائضه[1]".

هذا وإن مقام الفقر يقتضي مقام الصبر، الذي يلي هذا المقام.

٥- مقام الصبر:

إن الصبر مقام شريف، وقد مدح الله تعالى الصابرين في كتابه بقوله:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

(الزمر: ١٠)

فالتوبة والورع والزهد والفقر، لا تتم للمتصوف، إلا إذا عرف كيف يصبر على مصائبه، وكيف يحتمل العوز والنكبات.

ولما سئِلَ الجنيد عن الصبر، قال: حمل المؤن لله تعالى، حتى تنقضي أوقات المكروه.

---

[1] كشف.. ص ٢٢٢

وقال الخواص عن الصبر كذلك: هرب أكثر الخلق من حمل أثقال الصبر، فالتجئوا إلى الطلب والأسباب، واعتمدوا عليها، كأنها لهم أرباب[1].

ويشير علماء الأخلاق اليوم، إلى أن الصبر يقتضي الشجاعة، فإن الشجاعة حقًا، هو من إذا عراه خطب، ل يذهب برشده، بل يقابله بثبات ورزانة وصبر[2]. وقد ورد في الحديث الذي أخرجه أبو نعيم والخطيب عن ابن مسعودﷺ، قوله ﷺ: **"الصبر نصف الإيمان".**

وأهل الصبر ثلاث طبقات:

١- المتصبر: وهو من صبر في الله تعالى، فمرة يصبر على المكاره، ومرة يعجز.

يقول القناد حين سئِلَ عن الصبر: ملازمة الواجب في الإعراض عن المنهي عنه، والمواظبة على المأمور به.

٢- الصابر: من يصبر في الله، ولله، ولا يجزع، ولا يتمكن من الجزع، ويتوقع منه الشكوى.

---

(1) الطوسي: اللمع ص ٧٦

(2) أحمد أمين: الأخلاق ص ١٩٠ - ١٩٢

وحكى ذو النون قال: دخلت على مريض أعوده، فبينما كان يكلمني أن أن، فقلت له: ليس بصادق في حبه من لم يصبر على ضربه. فقال: بل ليس بصدق في حبه من لم يتلذذ بضربه.

ولما أُدخِلَ الشبلي المارستان، وقُيد، دخل عليه بعض أصدقائه، فقال لهم: من أنتم. قالوا: نحن قوم نحبك. فأخذ يرميهم بالآجر فهربوا. فقال لهم: يا كذابون، تدعون محبتي ولم تصبروا على ضربي!

٣- الصبار: ذلك الذي صبره في الله، ولله، وبالله. فهذا لو وقع عليه جميع البلايا، لا يعجز ولا يتغير من جهة الوجوب والحقيقة، ولا من جهة الرسم والخلقة. ومن هنا فإن الصبر يقتضي التوكل[1].

وقد أوصى الحكيم الفرنسي "مونتيجون" بأن يعود الإنسان ابنه على تحمل أشد ألوان الصبر؛ ليكون قويا في مجابهة الحياة، فهو يقول:

---

(1) اللمع، ص ٧٧

"عود ابنك المشقة، والبرودة والريح والشمس، وكل ما يمكن أن يعرض للإنسان في الطبيعة. واجعله يستهين بها دائما. ولا تجعله رخوا رقيقًا، لا في ملبس أو مفرش، ولا في مأكل أو مشرب. بل عوده على كل حال وكل جو. ولا تبال أن يكون ابنك صبوحا جميلاً، بل ابنا مرعرعا شديدا. فكما اعتقدت ذلك وحكمت به في حداثتي اعتقدته وحكمت به في شيخوختى"[1].

فما أجمل هذا الكلام، لو أضيف إليه نقاء العقيدة الإسلامية وطهارة القلب والنفس من الرذائل والموبقات!

وأشار أستاذنا الدكتور محمد كمال جعفر إلى فكرة جليلة هنا، وهي أن للمكاره حظها من الجمال في نظر الإسلام. فقد وجه الإسلام الناس إلى مواطن الجمال إلى درجة المثالية الراقية. فإذا جاز أن يقول أي مذهب أو رأي إن الصبر فضيلة رائعة جميلة جديرة بالإعجاب، فإن الإسلام يرى أنه:

---

(1) نجيب المندراوي: كيف تعيش مائة سنة،ص ٧ – ٨ طبع ١٩٢٢ م، مطبعة التوفيق بمصر.

"ليس مجرد الصبر أهلاً لكل هذا التقييم، بل الأمر مقصور على الصبر الجميل؛ ولذلك أوصى نبيه صلوات الله وسلامه عليه، بأن يصبر صبرا جميلاً إزاء أثقل مهمة وأخطر مسئولية يتعرض لها بشر".

وهو يشير إلى قوله تعالى:

﴿فَاصبِر صَبرا جَمِيلاً﴾

(المعارج: ٥)

وبذلك أرسى الإسلام قواعد رعاية الجمال، حتى في الفضائل والمكاره على السواء. وهو ما يعني أن الله سبحانه جعل لكل شيء قدرا[1].

وقد أطلق بعض علماء السلف على"الصبر الجميل" اسم "الرضا"؛ لأنه صبر بلا شكوى، كما أنه ارتقاء من مقام الصبر[2].

---

[1] د. محمد كمال جعفر: تأملات في الفكر الإسـلامي، ص٣٧ طبـع ١٩٨٠ م، نشر مكتبة دار العلوم بالقاهرة.

[2] د. مصطفى كمال حلمي: ابن تيمية والتصوف، ٥٠٤ – ٥٠٥، طبع ١٩٨٢م، دار الدعوة بالإسكندرية

ومما هو جدير بالذكر، أن مقام الصبر متضمن في مقام الشكر؛ لأن الأخير جامع لجميع مقامات الإيمان،يقولان القيم:

"**ولهذا كان الإيمان نصفين: نصف صبر، ونصف شكر. والصبر داخل في الشكر، فرجع الإيمان كله شكرا. والشاكرون هم أقل العباد**[1]".

وهو يشير إلى قوله تعالى:

﴿وَقَلِيلٌ من عِبَادِيَ الشكُورُ﴾

(سبأ: ١٣)

ولهذا لا نعجب إذا وجدنا بعض الصوفية، يفصل القول في شكر اللسان، وشكر القلب، وشكر الجوارح[2].

***

ومع أن الصبر مقام جليل وشريف، فإن هناك مآخذ على بعض المتصوفة الذين جانبهم التوفيق في الأخذ بهذا المبدأ السديد.

---

(1) مدارج السالكين، ١: ١٣٧

(2) الشعراني: لطائف المنن والأخلاق، ص ٣٩

فقد أشار ابن الجوزي، إلى نوعين من التلبيس على الصوفية إذا مات لهم أحد:

الأول – أنهم يقولون: لا يبكى على هالك، و من بكى على هالك، خرج عن طريق أهل المعارف.

وهذه دعوى تزيد على الشرع؛ فهي حديث خرافة، وتخرج عن العادات والطباع؛ فهي انحراف عن المزاج المعتدل، فينبغي أن يطالب لها بالعلاج بالأدوية المعدلة للمزاج، فإن الله تعالى أخبر عن نبي كريم، فقال:

﴿يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ وَابيَضتْ عَينَاهُ مِنَ الْحُزن فَهُوَ كَظِيم﴾

(يوسف: ٨٤)

وبكى رسول الله ﷺ، عند موت ولده، وقال: "إن العين لتدمع" وقال: "واكرباه" وقالت فاطمة رضي الله عنها: واكرب أبتاه. فلم ينكر.

و من لم تحركه المسار والمطربات، وتزعجه المحزنات، فهو إلى الجماد به أقرب. وقد جعل النبي ﷺ، يلتفت إلى مكة لما خرج منها.

ومن هنا فإن المطالب لما يخرج عن الشرائع، وينبو عن الطباع جاهل يطالب بجهل. وقد قنع الشرع منا، ألا نلطم

خدا ولا نشق جيبا. فأما دمعة سائلة، وقلب حزين، فلا عيب في ذلك[1].

الثاني – أن بع المتصوفة يعملون عند موت الميت دعوة، ويسمونه "عرسا"، ويغنون فيها ويرقصون ويلعبون، ويقولون نفرح للميت إذ وصل إلى ربه.

والخطأ هنا من ثلاثة أوجه:

١- أن المسنون أن يتخذ لأهل الميت طعام؛ لاشتغالهم بالمصيبة عن إعداد الطعام لأنفسهم. وليس من السنة أن يتخذه أهل الميت ويطعمونه لغيرهم. ولما جاء نعي جعفر قال النبي ﷺ: "اصنعوا لآل جعفر طعاما، فإنه قد جاءهم ما يشغلهم" قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

٢- أنهم يفرحون للميت، ويقولون وصل إلى ربه، ولا وجه للفرح؛ لأنا لا نتيقن أنه غُفِر له، وما يؤمنا أن نفرح وهو في المعذبين.

وقد قال عمر بن زر لما مات ابنه: لقد شغلني الحزن لك عن الحزن عليك!

---

(1) تلبيس إبليس، ص ٣١٨ – ٣١٩

وعن أم العلاء قالت: لما مات عثمان بن مظعون، دخل علينا رسول الله ﷺ، فقلت رحمة الله عليك أبا السايب، فشهادتي عليه: لقد أكرمك الله. فقال النبي ﷺ:

"وما يدريك أن الله أكرمه!"

٣- أنهم يرقصون ويلعبون في تلك الدعوة؛ فيخرجون بهذا عن الطباع السليمة، التي يؤثر عندها الفراق. ثم إن كان ميتهم قد غفر له، فما الرقص واللعب بشكرهم، وإن كان معذبا فأين أثر الحزن[1]؟!

والمسألة أولاً وأخيرا ترجع إلى جهل هؤلاء بحقيقة الصبر والشكر، فالجهل بهما جهل بكلا شطري الإيمان، وغفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن، فالصبور والشكور وصفان واسمان من أسمائه الحسنى[2].

---

(1) تلبيس، ص ٣١٩ – ٣٢٠

(2) إحياء علوم الدين ٤: ٦٠

٦- مقام التوكل:

إن مقام الصبر السابق يقتضي مقام التوكل، والتوكل مقام شريف، ومنزل من منازل الدين، ومقام من مقامات الموقنين بل هو من معالي درجات الموقنين[1].

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾

(آل عمران: ١٥٩)

ويعلق الإمام الغزالي على الآية بقوله:

"وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه، ومضمون كفاية الله تعالى ملابسه، فمَن الله تعالى حسبه وكافيه ومحبه ومراعيه، فقد فاز الفوز العظيم، فإن المحبوب لا يعذب ولا يحجب[2]".

وفي قوله تعالى:

﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾

(الزمر: ٣٦)

---

[1] إحياء ٤: ٢٤٣

[2] نفس المكان

بيان أن طالب الكفاية من غيره، والتارك للتوكل: هو المكذب لهذه الآية، فإنه سؤل في معرض استنطاق بالحق، وكما يقول الغزالي:

"كل ما ذكر في القرآن من التوحيد، فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار، والتوكل على الواحد القهار[1]".

والتوكل هو الاعتصام بالله تعالى، ومحله القلب، والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب، بعد ما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى، وأنه إن تعسر شيء فبتقديره، وإن اتفق آخر فبتيسيره[2].

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه، أن إبراهيم عليه السلام حين أُلْقِي في النار قال:"حسبنا الله ونعم الوكيل" وقالها محمد ﷺ حين قيل له إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم[3].

وقد أفاضت الأحاديث الشريفة في فضل التوكل، منها أنه جاء رجل على ناقة، فقال يا رسول الله: أدعها وأتوكل،

---

(1) نفس المصدر، ٤: ٢٤٤

(2) الرسالة القشيرية، ص ١٢٩

(3) النووي: رياض الصالحين، ص ٤٠

فقال: "**اعقلها وتوكل**"

(الترمذي)

وروى عمرﷺ عن النبي ﷺ:

"**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانًا**".

(قال الترمذي: حديث حسن)

وأشار المكي إلى أن التوكل من أعلى مقامات المتقين، وأشرف أحوال المقربين؛ لأن الله جعل المتوكل حبيبه، وألقى عليه محبته.

﴿وَمَن يتَوَكلْ عَلى اللهِ فَهُوَ حَسبُهُ﴾

(الطلاق: الآية٣)

ومعناه أنه سبحانه كافيه مما سواه، فمن كان الله تعالى كافيه، فهو شافيه ومعافيه:

"**فقد صار المتوكل على الله تعالى، من عباد الرحمن الذين أضافهم إلى وصف الرحمة، ومن عباد التخصيص الذين ضمن لهم الكفاية**[1]"

---

[1] قوت القلوب، ٢: ٣

ولا يضر الادخار مع التوكل – كما يقول المكي[1] – بشرط أن يكون مدخرا لله وفيه، وكان ماله موقوفًا على رضا هؤلاء، لا مدخرا لحظوظ نفسه وهواه، فهو هنا مدخر لحقوق الله التي أوجبها عليه، فإذا رآها بذل ماله فيها، فالقيام بحقوق الله تعالى لا ينقص مقامات العبد، بل إنه يزيدها علوا وسموا. يقول ابن القيم:

"وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطال وتوكل فاسد[2]".

ويبرهن على هذا بقول سهل بن عبد الله:

"من طعن في الحركة، فقد طعن في السنة. ومن طعن في التوكل، فقد طعن في الإيمان".

وإن التوكل حال النبي ﷺ، والكسب سنته، فمن اقتدى بحال النبي ﷺ، فلا يتركن سنته.

---

(1) قوت،٢: ٣٧

(2) مدارج، ٢: ١١٦

وأفضل التوكل: التوكل في الواجب، أي واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس.

وأنفع التوكل وأوسعه: التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية، أو في دفع مفسدة دينية. وهو توكل الأنبياء صلوات الله وسلامة عليهم، في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا أيضا توكل ورثتهم.

والناس في التوكل على حسب مقاصدهم ونياتهم: فهناك متوكل على الله في حصول رغيف، وهناك متوكل في حصول الملك.

لكن من صدق توكله على الله تعالى، في حصول شيء ناله، فإن كان شيئًا يرضى عنه الله، كانت العاقبة محمودة، وإلا كان مضرة عليه. وإن كان مباحا حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه[1].

والتوكل على ثلاث طبقات[2]:

---

[1] مدارج، ٢: ١١٤

[2] اللمع، ص٧٨ - ٧٩

١- توكل المؤمنين:

لقوله تعالى:

﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّل الْمُؤْمِنُونَ﴾

(المائدة: ١١)

وشرطه ثلاثة أمور أشار إليها أبو تراب النخشبي، فقال: التوكل طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية. فإن أُعطِي شكر، وإن مِنع صبر راضيا موافقًا للقدر.

وقال ذو النون: التوكل ترك تدبير النفس، والانخلاع من الحول والطول.

وقال أبو بكر الزقاق: التوكل رد العيش إلى يوم واحد، وإسقاط هم غد.

وقال سهل بن عبد الله: التوكل الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد.

٢- توكل أهل الخصوص:

لقوله تعالى:

﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّل الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

(إبراهيم: ١٢)

فخص توكل المتوكلين من توكل المؤمنين. وهو ما عبر عنه أبو العباس بن عطاء، بقوله: من توكل على الله لغير الله، لم يتوكل على الله بالله لله، ويكون متوكلاً على الله في توكله لا لسبب آخر.

٣- توكل خصوص الخصوص:

لقوله تعالى:

﴿وَمَن يتَوَكلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾

(الطلاق: الآية ٣)

فلم يردهم إلى شيء سواه، كما قال لسيد المرسلين وإمام المتوكلين:

﴿وَتَوَكلْ عَلَى الْحَي الذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبح بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرا﴾

(الفرقان: ٥٨)

وقد عبر عنه الشبلي بقوله: أن تكون لله كما لم تكن، ويكون الله تعالى لك، كما لم يزل.

وقال عنه أبو عبد الله الجلاء: "الإيواء إلى الله وحده، في جميع الأحوال".

وقال الجنيد: اعتماد القلب على الله تعالى.

ومن هنا فإن التوكل يقتضي مقاما آخر هو مقام الرضا.

***

هذا هو أصل مقام التوكل وحقيقته المستمدة من الكتاب والسنة. ولا بد هنا أن نطلع على أهم الاعتراضات الواردة على سلوك بعض الصوفية إزاء هذا المقام. ولا نود تكرار ما سبق، من أنه خطأ فئة معينة لا كل الفئات، وأن هذا الخطأ يعود إلى جهل بالإسلام من جهة، وإلى جهل بالتصوف السني الحقيقي من جهة أخرى.

وقد وقع بعض الصوفية في "**ادعاء التوكل**[1]" يقول أبو سليمان الداراني: لو توكلنا على الله تعالى، ما بنينا الحيطان،ولا جعلنا لباب الدار غلقًا مخافة اللصوص.

ونقول: لو لم يبن الناس البيوت لخربت الدنيا؛ لأن البيوت ستر للعورات ومأوى من الحر والبرد والمطر، ولا بد

---

(1) تلبيس إبليس، ص ٢٧٨

من اتخاذ الحيطة من اللصوص بواسطة الأقفال وغيرها؛ حتى لا يلقي الإنسان بنفسه إلى التهلكة.

ويقول ذو النون المصري: سافرت سنين، وما صح لي التوكل، إلا وقتًا واحدا ركبت البحر، فكسر المركب، فتعلقت بخشبة من خشب المركب، قالت لي نفسي: إن حكم الله عليك بالغرق، فما تنفعك هذه الخشبة. فخليت الخشبة، فطفت على الماء، فوقعت على الساحل.

فهذا ليس من التوكل في شيء؛ لأن الله تعالى خالق الأسباب، وجعل الأخذ بها من الدين. والحياة كلها مربوطة بالأسباب.

ومن ادعاء التوكل ما حكِي من أن رجلاً سأل أبا يعقوب الزيات، عن مسألة في التوكل، فأخرج درهما كان عنده، ثم أجاب. وقال: استحييت أن أجيبك وعندي شيء؛ فهذا خطأ كبير في فهم التوكل.

وأخرج آخر صرة فيها أربعة دوانق، وطلب من ضيوفه أن يشتروا بها شيئًا، ثم قال: استحييت من الله تعالى، أن أتكلم في التوكل، وعندي أربعة دوانق؛ وهذا الرأي يشير

إلى جهل بالدين أيضا. وكان عليهم أن يلتفتوا إلى رأي سهل التستري وهو واحد منهم، إذ يقول:

"من طعن في الاكتساب، فقد طعن على السنة، ومن طعن على التوكل فقد طعن على الإيمان[1]".

وإن قلة العلم، هي التي أوجبت هذا التخليط. ولو عرف هؤلاء ماهية التوكل، لعلموا أنه ليس بينه وبين الأسباب تضاد، وكما يقول ابن الجوزي:

"وذلك أن التوكل اعتماد القلب على الوكيل وحده، وذلك لا يناقض حركة البدن في التعلق بالأسباب وادخار المال[2]".

وقال الله تعالى:

﴿وَلاَ تُؤْتُوا السفَهَاءَ أَموَالَكُمُ الِتي جَعَلَ اللهُ لَكُم قِيَاما﴾

أي قواما لأبدانكم.

(النساء: ٥)

وقال ﷺ:"نعم المال الصالح للرجل الصالح" وقال:" إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون

---

(1) تلبيس.. ص، ٢٧٨

(2) نفس المكان

الناس" وقد ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين، وشاور طبيبين، واختفى في الغار، وقال من يحرسني، وأمر بغلق الباب.

وفي الصحيحين من حديث جابر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، قال:"أغلق بابك" وقد أخبرنا أن التوكل لا ينافى الاحتراز.

وقال سفيان بن عيينة: تفسير التوكل، أن يرضى بما يفعل به. أي هو رضا بقضاء الله وقدره.

وربما ظن قوم أن الاحتياط والاحتراز، ينافي التوكل، وأن التوكل هو إهمال العواقب، واطراح التحفظ. وذلك عند العلماء هو العجز والتفريط الذي يقتضي من العقلاء التوبيخ والتهجين، ولم يأمر الله تعالى بالتوكل إلا بعد التحرز واستفراغ الوسع في التحفظ، فقال تعالى:

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾

(آل عمران: ١٥٩)

فلو كان التعلق بالاحتياط قادحا في التوكل، لما خص الله تعالى به نبيه حين قال له: **﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾** وهل المشاورة إلا استفادة الرأي الذي يؤخذ منه التحفظ والتحرز من العدو، ولم يقنع في الاحتياط بأن يكله إلى رأيهم

واجتهادهم، حتى نص عليه وجعله عملاً في نفس الصلاة،وهي أخص العبادات، فقال:

﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُم مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسلِحَتَهُم﴾

وبين علة ذلك بقوله تعالى:

﴿وَد الذِينَ كَفَرُوا لَو تَغفُلُونَ عَن أَسلِحَتِكُم وَأَمتِعَتِكُم فَيَمِيلُونَ عَلَيكُم ميلَةً وَاحِدَةً﴾

(النساء: ١٠٢)

ومن علم أن الاحتياط هكذا،لا يقال إن التوكل عليه ترك ما علم، لكن التوكل التفويض فيما لا وسع فيه ولا طاقة. ولو كان التوكل التحرز، لخص به خير الخلق ﷺ، في خير الأحوال وهي حالة الصلاة. وذهب الشافعي رحمه الله تعالى، إلى وجوب حمل السلاح حينئذ،لقوله:

﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسلِحَتَهُم﴾

فالتوكل لا يمنع من الاحتياط والاحتراز، فإن موسى عليه السلام، لما قيل له:

﴿إِن الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ...﴾

(القصص: ٢٠)

امتثل موسى للنصيحة وخرج.

ونبينا المصطفى ﷺ، خرج من مكة؛ لخوفه من المتآمرين عليه، ووقاه أبو بكر رضي الله عنه بسد أثقاب الغار، وأعطى القوم التحرز حقه، ثم توكلوا. وقال عز وجل في باب الاحتياط:

﴿لاَ تَقْصُص رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾

(يوسف: ٥)

وهذا لأن الحركة للدفاع عن النفس، استعمال لنعمة الله تعالى.

وقد جعل الله تعالى للطير والبهائم عدة أسلحة تدفع عنها الشرور، كالمخلب والظفر والناب. وخلق للآدمي عقلاً يقوده إلى حمل الأسلحة ويهديه إلى التحصين بالأبنية والدروع.

ومن عطل نعمة الله تعالى، بترك الاحتراز، فقد عطل حكمته، كمن يترك الأغذية والأدوية، ثم يموت جوعا أو مرضا. ويقول ابن الجوزي في هذا:

"ولا أبله ممن يدعي العقل والعلم ويستسلم للبلاء. إنما ينبغي أن تكون أعضاء المتوكل في الكسب، وقلبه ساكن مفوض إلى الحق مُنِعَ أو أُعطِي. لأنه لا يرى إلا أن الحق

سبحانه وتعالى، لا يتصرف إلا بحكمة ومصلحة، فمنعه عطاء في المعنى[1]".

وكم زين للعجزة عجزهم، وسولت لهم أنفسهم، أن التفريط توكل. فصاروا في غرورهم بمثابة من اعتقد التهور شجاعة، والخور عزما. ومتى وضعت أسباب فأهملت، كان ذلك جهلاً بحكمة الواضع، مثل وضع الطعام سببا للشبع، والماء للري، والدواء لعلاج المرض.

فإذا ترك الإنسان ذلك، إهوانًا بالسبب، ثم دعا وسأل، فربما قيل له، قد جعلنا لعافيتك سببا، فإذا لم تتناوله كان إهوانًا لعطائنا، فربما لم نعافك بغير سبب لإهوانك السبب.

وهذا مثل من بينه وبين ماء الساقية مسافة قصيرة، فكسل عنها، وأخذ يصلي صلاة الاستسقاء، طلبا للمطر، فإنه لا يحسن منه ذلك شرعا ولا عقلاً.

وكان عيسى عليه السلام يصلي على رأس جبل، فأتاه إبليس، فقال: أنت الذي تزعم أن كل شيء بقضاء وقدر.قال: نعم.

---

(1) تلبيس إبليس، ص ٢٨٠

قال: فألق نفسك من الجبل، وقل قُدر علي. فقال: يا لعين، الله يختبر العباد وليس للعباد أن يختبروا الله تعالى[1].

وقد لبس الشيطان على خلق كثير من الصوفية، بأن التوكل ينافي الكسب. كقول يوسف بن الحسين: إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص والكسب، فليس يجيء منه شيء. وقد رد عليه ابن الجوزي بقوله:

"هذا كلام قوم ما فهموا معنى التوكل، وظنوا أنه ترك الكسب وتعطيل الجوارح عن العمل" ثم قال:

"التوكل في القلب، فلا ينافي حركة الجوارح. ولو كان كل كاسب ليس بمتوكل، لكان الأنبياء غير متوكلين: فقد كان آدم عليه السلام حراثًا، ونوح وزكريا نجارين، وإدريس خياطًا، وإبراهيم ولوط زارعين، وصالح تاجرا، وكان سليمان يعمل الخوص، وداود يصنع الدرع ويأكل من ثمنه، وكان موسى وشعيب ومحمد رعاة صلوات الله عليهم أجمعين. وقال نبينا ﷺ: كنت أرعى غنما لأهل مكة بالقراريط. فلما أغناه الله عز وجل، بما فرض له من الفيء، لم يحتج

---

[1] تلبيس..، ص ٢٨١

إلى الكسب[1]".

كذلك كان أبو بكر بزازا، وعمرو بن العاص خزازا (أي يعمل في الخز، وهي ثياب تنسج من صوف وإبريسم)، وأبو حنيفة يبري النبل، وكان عثمان بن طلحة خياطًا. ومازال التابعون ومن بعدهم يكتسبون ويأمرون بالكسب.

ولو قال الرجل للصوفية، من أين أطعم عيالي، لقالوا قد أشركت. ولو سِئلُوا عمن يخرج إلى التجارة، لقالوا ليس بمتوكل ولا موقن. وكل هذا لجهلهم بمعنى التوكل واليقين.

ولو كان أحد هؤلاء الصوفية، يغلق عليه الباب، ويتوكل، لقرب أمر دعواهم. لكن بعضهم يستجدي الناس، ومنهم من يبعث غلامه فيدور بالزنبيل فيجمع له. ومنهم من يجلس في الرباط في هيئة المساكين، وقد علم أن الرباط لا يخلو من فتوح، كما لا يخلو الدكان من أن يقصد للبيع والشراء.

وكان سعيد بن المسيب يقول: من لزم المسجد، وترك الحرفة، وقبل ما يأتيه فقد ألحف في السؤال.

---

[1] نفس المصدر، ٢٨١ - ٢٨٢

وكان أبو تراب يقول لأصحابه: من لبس منكم مرقعة فقد سأل، ومن قعد في خانقاه أو مسجد فقد سأل.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا معشر الفقراء، ارفعوا رءوسكم، فقد وضح الطريق. فاستبقوا الخيرات، ولا تكونوا عيالاً على المسلمين.

وكان عمر أيضا: إذا رأى غلاما فأعجبه سأل عنه: هل له حرفة. فإن قيل: لا، سقط من عيني.

وسئِل أحمد بن حنبل: ما تقول في رجل جلس في بيته، أو في مسجده، وقال: لا أعمل شيئًا حتى يأتيني رزقي، فقال أحمد: هذا رجل جهل العلم، أما سمعت قول رسول الله ﷺ: "جعِل رزقي تحت ظل رمحي". وكان أصحاب رسول الله ﷺ، يتجرون في البر والبحر، ويعملون في نخيلهم، ولنا القدوة بهم.

وقد أمر الإمام أحمد أولاده أن يختلفوا إلى السوق، وأن يتعرضوا للتجارة.

فإن جاز لواحد أن يتوكل دون كسب، جاز لكل واحد أن يفعل ذلك، فماذا يكون حال الدنيا! فالمتوكل دون عمل

مبتدع. قال أحمد بن حنبل: أحب الدراهم إلي درهم من تجارة، وأكرهها عندي الذي من صلة الإخوان.

وكان في الصوفية من يحصد مثل إبراهيم بن أدهم، و من يلقط الحب مثل سلمان الخواص، و من يضرب اللبن مثل حذيفة المرعشي. فهم يرون أن التسبب لا يقدح في التوكل؛ لأن تعاطي رتبه ترقى على رتبة الأنبياء نقص في الدين. وحين جاع موسى عليه السلام، واحتاج إلى عفة نفسه أجر نفسه ثماني سنين.

والذين قدروا عن الكسب من الزهاد والصوفية، وقعوا بين أمرين قبيحين: إما تضييع العيال؛ فتركوا الفرائض، أو التزين باسم أنه متوكل؛ فيعطف عليهم المكتسبون الذين ضيقوا على عيالهم من أجل هؤلاء القعدة. وهذه الرذيلة لا تدخل إلا على نفس دنيئة. ويقول ابن الجوزي:

"الرجل كل الرجل، من لم يضيع جوهره، الذي أودعه الله إيثارا للكسل، أو لاسم يتزين به بين الجهال. فإن الله تعالى

قد يحرم الإنسان المال، ويرزقه جوهرا يتسبب به إلى تحصيل الدنيا بقبول الناس عليه"[1].

والقاعدون عن الكسب تشبثوا بتعللات قبيحة منها:

١- أنهم قالو لا بد من أن يصل إلينا رزقنا. وهذا في غاية القبح.

٢- يقولون أين الحلال حتى نطلبه. وهو قول جاهل؛ لأن الحلال لا ينقطع أبدا. ومعلوم أن الحلال ما أذن الشرع في تناوله. وإنما قولهم هذا احتجاج للكسل.

٣- ومنها أنهم قالوا إذا كسبنا أعنا الظلمة والعصاة.

ويقول ابن الجوزي إن هذا:

"من التعال البارد المخالف للشرع والعقل؛ لأن الله تعالى، أباح الكسب وندب إليه. فإذا قال قائل: ربما خبزت خبزا، فأكله عاصٍ، كان حديثا فارغا؛ لأنه لا يجوز لنا إذن أن نبيع الخبز لليهود والنصارى"[2].

---

[1] تلبيس إبليس، ص ٢٨٥

[2] تلبيس...، ص ٢٨٧

ومن أهم الاعتراضات الواردة على التصوف، ما يراه بعض الصوفية، من "ترك التداوي":

إذ لا يختلف العلماء في أن التداوي مباح. وإنما رأى بعضهم أن العزيمة تركه.

ومع هذا فلا يلتفت إلى قول قوم، قد رأوا أن التداوي خارج عن التوكل؛ لأن الإجماع على أنه لا يخرج من التوكل.

وقد صح أن النبي ﷺ، تداوى، وأمر بالتداوي، ولم يخرج بذلك من التوكل، ولا أخرج من أمره أن يتداوى من التوكل.

وفي الصحيح من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، رخص إذا اشتكى المحرم عينه، أن يضمدها بالصبر. وهذا أدق دليل على أن معنى التوكل غير ما قاله هؤلاء.

وأن التداوي لا يخرج فاعله من الرضا بقضاء الله تعالى، كما أن من عرض له الجوع، لا يخرجه فزعه إلى الغذاء من التوكل والرضا بالقضاء؛ لأن الله تعالى، لم ينزل داء

إلا أنزل له دواء، إلا الموت، وجعل أسبابا لدفع الأدواء، كما جعل الأكل سببا لدفع الجوع.

وقد خلق الله تعالى عباده ذوي حاجة، فلا يندفع عنهم أذى الجوع أو المرض، إلا بما جعله سببا لدفعه عنهم[1].

وفي مسألة الأسفار: وردت اعتراضات هامة على بعض الصوفية، فقد لبس عليهم إبليس، فأخرجهم إلى السياحة: لا إلى مكان معروف، ولا إلى طلب علم. وأكثرهم يخرج على الوحدة، ولا يستصحب زادا، ويدعي التوكل بذلك الفعل.

وهنا تكون النتيجة فوات فضائل وفرائض عليه، وهو يرى أنه في ذلك على طاعة، وأنه يقرب بذلك من الولاية، وهو من العصاة المخالفين لسنة رسول الله ﷺ.

أما السياحة والخروج، لا إلى مكان مقصود، فقد نهى رسول الله ﷺ، عن السعي في الأرض في غير أرب حاجة.

فعن طاوس أن رسول الله ﷺ:

" ...لا رهبانية، ولا تبتل، ولا سياحة في الإسلام"

وكان بنو إسرائيل يفعلون ذلك، مع مفارقة الأمصار والذهاب في الأرض.

---

(1) تلبيس..، ص ٢٨٧ - ٢٨٨

وجاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله ائذن لي في السياحة، فقال النبي ﷺ:

"إن سياحة أمتى الجهاد في سبيل الله"

وسئِل أحمد بن حنبل، عن الرجل يسيح يتعبد، أحب إليك، أو المقيم في الأمصار، قال: ما السياحة من الإسلام في شيء، ولا من فعل النبيين ولا الصالحين.

أما الخروج على الوحدة، فقد نهى رسول الله ﷺ، أن يسافر الرجل وحده فقال: "الراكب شيطان، والاثنان شيطانان، والثلاثة ركب". وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "لعن رسول الله ﷺ راكب الفلاة وحدة"[1].

وبعضهم يمشي بالليل أيضا على الوحدة. وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك:

"لو يعلم الناس ما في الوحدة، ما سار أحد وحده بليل أبدا".

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال ﷺ:

---

[1] تلبيس إبليس، ص ٢٩٨

"أقلوا الخروج إذا هدأت الرجل، فإن الله تعالى يبث في خلقه ما شاء".

ومن الصوفية من جعل دأبه السفر. مع أن السفر لا يراد لنفسه، قال ﷺ:

"السفر قطعة من العذاب. فإذا قضى أحدكم نهمته من سفره، فليعجل إلى أهله"

فمن جعل دأبه السفر، فقد جمع تضييع العمر، وتعذيب النفس، وكلاهما مقصود فاسد. كما قال أبو حمزة الخراساني:

"كنت قد بقيت محرما في عباء، أسفر كل سنة ألف فرسخ تطلع الشمس علي وتغرب، كلما أحللت أحرمت [1]". وهذا مخالف الشرع.

***

وقد لبس الشيطان على بعض الصوفية، فأوهمهم أن التوكل ترك الزاد، وقد شاع هذا في جهله القوم.

وجاء حمقى القُصاص يحكون ذلك عنهم، على سبيل المدح لهم به، ومثل هذا يحرض الناس على فعل ذلك.

---

[1] تلبيس إبليس، ص ٢٩٩

وبمدح هؤلاء لهؤلاء فسدت الأحوال، وخفيت على العوام طرق الصواب.

وقيل لأبي عبد الله بن الجلاء: من هؤلاء الذين يدخلون البادية بلا زاد ولا عدة، يزعمون أنهم متوكلون فيموتون في البراري. فقال: هذا فعل رجال الحق، فإن ماتوا فالدية على القاتل. ويقول ابن الجوزي ردا على ذلك:

"هذه فتوى جاهل بحكم الشرع؛ إذ لا خلاف بين فقهاء الإسلام أنه لا يجوز دخول البادية بغير زاد. وأن من فعل ذلك، فمات من الجوع فإنه عاصٍ لله تعالى مستحق لدخول النار. وكذلك إذا تعرض بما غالب العطب، فإن الله تعالى جعل النفوس وديعة عندنا فقال: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [1]"

(النساء: ٢٩)

فقد أخذ أهل الكهف معهم دراهم، وتزود موسى عليه السلام بحوت حين طلب الخضر، وتزود النبي ﷺ لما خرج إلى الغار.

---

[1] نفس المصدر، ص ٣٠٠

قال أبو علي بن خفيف: خرجت من شيراز، في السفرة الثالثة، فتهت في البادية وحدي، وأصبني من الجوع والعطش، ما أسقط من أسناني ثمانية، وانتثر شعري كله.

وقد يرى بعضهم جواز دخول المفاوز بغير زاد بشرطين: أحدهما أن يكون قد راض نفسه، حتى يمكنه الصبر على الطعام أسبوعا ونحوه. والآخر أن يمكنه التقوت بالحشيش الأخضر.

لكنه ربما لا يلقى أحدا، وربما ضل، أو مرض، فلا يصلح له الحشيش. وقد يلقى من لا يطعمه، وتفوته الجماعة قطعا، وقد يموت ولا يتبعه أحد. فليس في ذلك فضيلة حتى يخاطر بالنفس.

وإن قوم موسى عليه السلام لما سألوا البقل والقثاء والفوم والعدس وغيرها، أوحى الله تعال إلى موسى أن ﴿**اهبطوا مصرا**﴾ وذلك لان الذي طلبوه في الأمصار.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن متوكلون. فيحجون، فيأتون إلى مكة، فيسألون الناس، فأنزل الله عز وجل:

﴿**وَتَزَوَدُوا فَإِن خَيرَ الزادِ التقْوَى**﴾

(البقرة: ١٩٧)

وسئِل أحمد بن حنبل، عن الرجل يريد المفازة بغير زاد، فأنكره إنكارا شديدا، وقال لا لا، إلا بزاد ورفقاء قافلة[1].

٧- مقام الرضا:

إن مقام الرضا ناتج عن التوكل. والرضا مقام شريف، فقد ذكره الله عز وجل في قوله:

﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ﴾

(المائدة: ١١٩)

وقال عز من قائل:

﴿وَرِضوَان مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾

(التوبة: ٧٢)

وتشير الآية الكريمة، إلى أن رضا الله عز وجل، عن عباده، أكبر وأقدم من رضاهم عنه. ويقول الطوسي معرفًا بهذا المقام:

---

(1) تلبيس..، ص ٣٠٢

"والرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، وهو أن يكون قلب العبد ساكنًا تحت حكم الله عز وجل[1]".

وقال عنه الجنيد: الرضا رفع الاختيار.

والقناد: سكون القلب بمر القضاء.

وذو النون: سرور القلب بمر القضاء.

وابن عطاء الله: الرضا نظر القلب إلى قديم اختيار الله تعالى للعبد؛ لأنه يعلم أنه اختار له الأفضل، فيرضى به، ويترك السخط.

والرضا آخر المقامات، ثم هو بعد هذا يقتضي أحوال أرباب القلوب، وتهذيب الأسرار.

وأهل الرضا على ثلاثة أحوال:

١- منهم من عمل في إسقاط الجزع؛ حتى يكون قلبه مستويا لله عز وجل، فيما يجري عليه من حكم الله من المكاره والشدائد والراحات والمنع والعطاء.

٢- ومنهم من ذهب عن رؤية رضائه عن الله عز وجل، برؤية رضا الله عنه، لقوله تعالى (السابق):

---

(1) اللمع، ص ٨٠

﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ﴾

فلا يثبت لنفسه قدم في الرضا، وإن استوى عند الشدة والرخاء والمنع والعطاء.

٣- ومنهم من جاوز هذا، وذهب عن رؤية رضا الله عنه، ورضاءه عن الله تعالى، لما سبق من الله تعالى لخلقه من الرضا.

يقول أبو سليمان الداراني:

"ليس أعمال الخلق بالذي يرضيه ولا بالذي يسخطه، ولكنه رضي عن قوم فاستعملهم بعمل أهل الرضا، وسخط على قوم فاستعملهم بعمل أهل السخط[1]".

وقد نبه الغزالي في مقام الرضا بصفة عامة، إلى غلط وقع فيه بعض البطالين المفترين؛ إذ زعموا المعاصي والفجور والكفر،من قضاء الله وقدره عز وجل، فيجب الرضا به، وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع؛

---

(1) اللمع، ص ٨١

لأن الشر وإن كان مرادا لله تعالى، إلا أنه مكروه له سبحانه. أما الخير فإنه مراد ومرضي به[1].

وسوف ننتقل بعد هذا إلى دراسة الأحوال الصوفية، مع مراعاة الإيجاز.

---

[1] الإحياء، ٤: ٣٥١ – ٣٥٣.

٩- الأحوال الصوفية

١- حال المراقبة:

إن المراقبة حال شريف. وقد جاء هذا الحال في القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾

(الأحزاب: ٥٢)

ومعناه أن الله تعالى حاضر في العالم وفي كل ما يجري فيه.

وفي قوله:

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيهِ رَقِيب عَتِيد﴾

(سورة ق: ١٨)

وفيها إشارة إلى وجوب قول الخير، أو يصمت أفضل من النطق بالشر.

وقوله:

﴿أَلَم يَعلَمُوا أَن اللهَ يَعلَمُ سِرهُم وَنَجوَاهُم وَأَن اللهَ عَلامُ الْغُيُوبِ﴾

(التوبة: ٧٨)

وهنا دليل على اطلاع الله تعالى على الأسرار وما هو أدق منها.

وفي الحديث الشريف، روي قوله ﷺ:

"اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

(متفق عليه من حديث أبي هريرة)

وهذا هو المسمى مرتبة الإحسان.

ولا تكون المراقبة إلا لعبد قد علم وتيقن، أن الله تعالى مطلع على ما في ضميره وقلبه، وعالم. فهو يراقب الخواطر المذمومة المشغلة للقلب عن ذكر سيده. ويحاسب نفسه عليها أولاً[1].

يقول ابن المبارك: كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل[2].

يقول أبو سليمان الداراني: كيف يخفى عليه ما في القلوب!

---

(1) الرسالة القشيرية، ص ١٤٨

(2) الغزالي: إحياء علوم الدين، ٤: ٣٩٧

ولا يكون في القلوب إلا ما يلقي فيها، أفيخفى عليه ما هو منه؟!

وقيل:"كان أبو يزيد إذا قام للصلاة يخرج من صدره قعقعة يسمعها من كان قريبا منه. وهذه القعقعة من هيبة الحق وخشيته وتعظيم الشريعة[1]".

وقال الجنيد: قال لي إبراهيم الآجري: يا غلام، لان ترد من همتك إلى الله تعالى ذرة خير لك مما طلعت عليه الشمس.

وقال الدامغاني: عليكم بحفظ السرائر، فإنه مطلع على الضمائر.

وأهل المراقبة على ثلاثة أحوال في مراقبتهم:

الأول: حال الابتداء في المراقبة، وهو حفظ السر[2].

الثاني: حال مراقبة الحق بالحق مع متابعة المصطفى ﷺ، في أفعاله وأخلاقه وآدابه.

---

[1] د. عبد الرحمن بدوي: شطحات الصوفية – الجز الأول: أبو يزيـد البسطامي، ص ٢١٧، ط٣، ١٩٧٨ م، وكالة المطبوعات بالكويت.

[2] انظر الرسالة القشيرية، ص ١٥٠، ففيها تأكيد على ذلك.

الثالث: حال الكبراء من أهل المراقبة، فإنهم يراقبون الله تعالى، ويسألونه أن يرعاهم فيها؛ لأن الله عز وجل، قد خص نجباءه وخاصته، بألا يكلهم في جميع أحوالهم إلى أحد، وهو الذي يتولى أمرهم، فقال عز وجل:

﴿وَهُوَ يَتَوَلى الصالِحِينَ﴾

(الأعراف: ١٩٦)

وقال ابن عطاء، لبعض حكماء خرسان، ممن قد ولع بالجهل وقارن التقشف:

"أو ما علمت أن ما تقارن ببدنك أقذار في جنب ما تطلع بقلبك! وما تطالعه بقلبك هباء في جنب ما تراقب في سرك! فراقب الله تعالى في سرك وعلانيتك، فإنه خير مما تقارن من عماك وعبادتك [1]".

هذا، وإن المراقبة تقتضي حال القرب.

وحكِي أنه كان لبعض مشايخ الصوفية، تلميذ شاب، وكان يكرمه ويقدمه. فقال له بعض أصحابه: كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ.

---

[1] الطوسي: اللمع، ص ٨٣ وانظر ٨٢

فدعا بعدة طيور، وأعطى كل واحد منهم طائرا وسكينًا، وقال: ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه فيه أحد. ودفع إلى الشاب مثل ذلك، وقال له ما قال لهم.

فرجع كل واحد منهم بطائره مذبوحا، ورجع الشاب والطائر حي في يده.

فقال الشيخ: مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك؟ فقال: لم أجد موضعا لا يراني فيه أحد؛ إذ الله مطلع علي في كل مكان. فاستحسنوا منه هذه المراقبة، وقالوا: حق لك أن تكرم [1]

وحكِي عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها، فقالت له: ألا تستحيي؟ فقال: ممن أستحيي وما يرانا إلا الكواكب؟ قالت: فأين مكوكبها[2]؟

ولا يتحقق حسن المراقبة، إلا بمحاسبة النفس، وذلك بالنظر والتثبت بالتمييز لما كره الله عز وجل، مما أحب. وذلك ينطبق على كل النيات والأقوال والأعمال[3]؛ ولهذا قال

---

[1] الإحياء، ٤: ٣٩٧

[2] نفس المكان

[3] المحاسبي: الرعاية، ص ٣٥ – ٣٩

ذو النون:

"علامة المراقبة: إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله [1]".

وهذا هو الفناء في شهود الحقيقة، لا في وحدة الوجود. ولا بد من التفريق هنا بين وحدة الوجود ووحدة الشهود؛ فوحدة الوجود تعني أن الله والعالم واحد، وهذه لوثة مرفوضة في الإسلام، فالعالم يخالف الله عز وجل.

أما وحدة الشهود فهي نفسها منزلة الإحسان أو المراقبة التي وردت هنا مؤيدة بالأدلة الدينية من الكتاب والسنة[2]، وهي تجعل صاحبها يعيش في أنوار الله معيشة رفيعة[3].

فوحدة الشهود إلهام ترتفع معه الوسائط وتعدم؛ لأن هذا أمر وراء الحس والعقل.

---

[1] ابن قيم الجوزيه: مدارج السالكين، ٢: ٦٥

[2] نفس المصدر، ١: ٤٩ – ٥٠

[3] محمد الغزالي: ليس من الإسلام، ص ١٦٢ – ١٦٣ . ط5

٢- حال القرب:

إذا نجح العبد في المراقبة؛ شعر بقرب الله تعالى منه، وبقرب نفسه من الله. وهم يستدلون عني هذا الحال بقوله تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَني فَإني قَرِيب﴾

(البقرة: ١٨٦)

وبقوله:

﴿وَنَحنُ أَقْرَبُ إِليهِ مِن حَبل الْوَرِيدِ﴾

(ق: ١٦)

وبقوله:

﴿وَنَحنُ أَقْرَبُ إِليهِ مِنْكُم وَلكِن لاَ تُبصِرُونَ﴾

(الواقعة: ٨٥)

وبقوله:

﴿أُولئِكَ الذِينَ يَدعُونَ يَبتَغُونَ إِلى رَبهمُ الْوَسِيلَةَ أَيهُم أَقْرَبُ﴾

(الإسراء: ٥٧)

والوسيلة يعني القرب. وهذه الآية هي الأقرب إلى الاستشهاد مما سبق. ومع هذا فإننا نلاحظ تكلفًا في استشهاد الصوفية بالآيات السابقة بخصوصها؛ لأنها تتحدث عن عناية الله تعالى بكل البشر، كما تشير إلى قرب الله تعالى من المحتضر أكثر من قرب أهله وهم حوله.

إن حال القرب لا تكون إلا لعبد شاهد بقلبه قرب الله منه؛ فتقرب إلى الله تعالى بطاعته، وجمع همه بين يدي الله تعالى بدوام ذكره في علانيته وسره.

وأصحاب هذا الحال على ثلاثة أنواع:

الأول: المتقربون إلى الله تعالى، بأنواع الطاعات؛ لعلمهم بعلم الله تعالى بهم وقربه منهم وقدرته عليهم.

الثاني: من تحقق بذلك منهم، وفي هذا يقول عامر بن عبد القيس: ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله تعالى أقرب إليه مني.

ويقول الجنيد: وأعلم أنه يقرب من قلوب عباده، على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه، فانظر ماذا يقرب من قلبك؟

وقال صوفي آخر:

إن لله تعالى عبادا قربهم الله عز وجل، بما هو به قريب منهم، وكانوا قريبين منه بما هو به قريب إليهم.

الثالث: حال الكبراء وأهل النهايات. وفيه يقول أبو الحسين النوري، لرجل دخل عليه، فقال: من أين أنت؟ قال: من بغداد، قال: من صحبت بها، قال: أبا حمزة، قال: إذا رجعت إلى بغداد، فقل لأبي حمزة: قرب القرب في معنى ما، نحن نشير إليه: بعد البعد.

وفيه أيضا يقول أبو يعقوب السوسي: ما دام العبد يكون بالقرب، لم يكن قرب، حتى يغيب عن القرب بالقرب، فإذا ذهب عن رؤية القرب بالقرب فذلك قرب. يعني عن رؤية قربه من الله عز وجل بقرب الله منه[1]!.

ولعل هذا التكلف في القرب وشدة التعقيد فيه، هو الذي دعا بعض الباحثين، إلى القول بأنه يكاد يقود الصوفية إلى نوع من الحلولية الفلسفية[2].

---

[1] الطوسي: اللمع، ص ٨٤ – ٨٥

[2] جبور عبد النور: التصوف عند العرب، ص ١١١

هذا وإن حال القرب يمهد الطريق لحال المحبة وحال الخوف.

٣- حال المحبة:

هو أشهر الأحوال التي تمر في قلب المتصوف، والتي تغنى بها الشعراء والشواعر من الحلاج إلى ابن الفارض إلى رابعة.

والحب في الأحوال، كالتوبة في المقامات. فلا يبقى للمحب من غاية، سوى التوصل إلى حبيبه، فيصدف عن أمور الدنيا وخدعها، وينصرف إلى السلوك الخير الذي يبلغه غايته.

وقد ذكر الله تعالى، حال المحبة في مواضع من كتابه، فقال:

﴿فَسَوفَ يَأْتِي اللهُ بِقَومٍ يُحِبهُم وَيُحِبونَهُ﴾

(المائدة: ٥٤)

فذكر هنا محبته قبل محبتهم

وقال عز من قائل:

﴿قُلْ إِن كُنْتُم تُحِبونَ اللهَ فَاتبِعُونِي يُحبِبكُمُ اللهُ﴾

(آل عمران: ٣١)

وهنا ذكر محبتهم له ومحبته لهم.

﴿يُحِبونَهُم كَحُب اللهِ وَالذِينَ آمَنُوا أَشَد حُبا للهِ﴾

(البقرة: ١٦٥)

وهنا ذكر محبتهم له.

وحال المحبة يتحقق لعبد نظر بعينه إلى ما أنعم الله به عليه، ونظر بقلبه إلى قرب الله تعالى منه وعنايته به وكلاءته له، فنظر بإيمانه وحقيقة يقينه إلى ما سبق له من الله تعالى، من العناية والهداية، فأحب الله عز وجل[1].

وإن أهل المحبة على ثلاثة أحوال:

الأول: محبة العامة. وهي تتولد من إحسان الله تعالى إليهم وعطفه عليهم؛ لأن النفوس قد جبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها. وفي الحديث أمر رسول الله ﷺ بالمحبة فقال:

"أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبوني لحب الله إياي"

---

[1] الطوسي: اللمع، ص ٨٦

(أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس، وقال: حسن غريب)

وهذا الحال من المحبة له شرط، قال عنه سمنون: صفاء الود مع دوام الذكر؛ لأن من أحب شيئًا أكثر من ذكره.

وفي نفس الحال يقول سهل بن عبد الله: موافقة القلوب لله، والتزام الموافقة، واتباع الرسول ﷺ، مع دوام الاستهتار، أي الولع. بذكر الله تعالى، ووجود حلاوة المناجاة لله عز وجل.

وسئِلَ الحسن بن علي رضي الله عنه عن المحبة فقال: بذل المجهود، والحبيب يفعل ما يشاء.

وقال آخر عن المحبة شغف القلوب بالثناء على المحبوب، وإيثار طاعته، والموافقة له. كما قال القائل:

لو كان حبك صادقًا لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيع

الثاني: حال من المحبة يتولد من نظر القلب إلى غناء الله وجلاله وعظمته وعلمه وقدرته، وهو حب الصادقين والمتحققين. وقال النوري عن شرطها ووصفها: هتك الأستار، وكشف الأسرار.

وقال: الخواص: محو الإرادات، واحتراق جميع الصفات والحاجات.

وقال الخراز: طوبى لمن شرب كأسا من محبته، وذاق نعيما من مناجاة الجليل وقربه، بما وجد من اللذات بحبه، فملأ قلبه حبا، وطار بالله طربا، وهام إليه اشتياقًا، فيا له من وامق بربه، كاف دنف، ليس له سكن غيره ولا مألوف سواه.

الثالث: هو محبة الصديقين والعارفين، تولدت من نظرهم ومعرفتهم بقديم حب الله تعالى بلا علة، فكذلك أحبوه بلا علة.

وهذا هو ما عبر عنه ذو النون المصري، حين سئِلَ: ما المحبة الصافية التي لا كدورة فيها؟ قال: حب الله الصافي الذي لا كدورة فيه: سقوط المحبة عن القلب والجوارح، حتى لا يكون فيها المحبة، وتكون الأشياء بالله ولله، فذلك المحب لله.

وفي نفس المعنى يقول أبو يعقوب السوسي: لا تصح المحبة حتى يخرج من رؤية المحبة، إلى رؤية المحبوب: بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب في الغيب،

ولم يكن هو بالمحبة، فإذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محبا من غير محبة.

وسئِلَ الجنيد عن المحبة فقال: دخول صفات المحبوب على البال من صفات المحب[1]. فهذا معنى قوله:

"حتى أحبه، فإذا أحببته كنت عينه التي يبصر بها، وسمعه الذي يسمع به، ويده التي يبطش بها".

(حديث قدسي رواه البخاري عن أبي هريرة، وأحمد عن عائشة)

إن محبة الله تعالى، ليست ادعاء، وليست خيالاً، بل هي علم وعمل بالشريعة أولاً. فمن يكون كذلك ظهر ادعاؤه. يقول ابن القيم:

"لما كثر المدعون للمحبة، طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى. فلو يعطي الناس بدعواهم، لادعى الخلي حرقة الشجي"[2].

---

(1) اللمع، ص ٨٦ – ٨٨

(2) مدارج السالكين، ٣: ٨

وقد صحح الإمام الغزالي هنا، ما أجمعت عليه الأمة من أن الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ فرض، فيقول:

"وكيف يفرض ما لا وجود له، وكيف يفسر الحب بالطاعة، والطاعة تبع الحب وثمرته؟ فلا بد وأن يتقدم الحب، ثم بعد ذلك يطيع من أحب"[(1)].

نعم إن الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ، فرض، لكنه لا يكون دون أن يتقدمه طاعة، كذلك لا تكون محبة إلا بعد معرفة وإدراك؛ إذ لا يحب الإنسان إلا ما يدركه.

وهنا ينبهنا الغزالي إلى نقطة أخرى هامة، وهي أن المستحق للمحبة هو الله وحده، فيقول:

"من أحب غير الله، لا من حيث نسبته إلى الله، فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى. وحب الرسول ﷺ، محمود؛ لأنه عين حب الله تعالى، وكذا حب العلماء والأتقياء؛ لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ومحب المحبوب محبوب. وكل ذلك يرجع إلى حب

---

(1) الإحياء، ٤: ٢٩٤

الأصل، فلا يتجاوزه إلى غيره. فلا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى، ولا مستحق للمحبة سواه"[1].

وقال الثوري لرابعة: ما حقيقة إيمانك؟ قالت: ما عبدته خوفًا من ناره ولا حبا لجنته، فأكون كالأجير السوء، بل عبدته حبا له وشوقًا إليه. وقالت في معنى المحبة نظما:

أحبك حبين حب الهوى
وحبا لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى
فشغلي بذكرك عمن سواك
وأما الذي أنت أهل له
فكشفك لي الحجب حتى أراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي
ولكن له الحمد في ذا وذاك[2]

---

(1) نفس المصدر، ٤: ٣٠٠ – ٣٠١

(2) نفس المصدر، ٤: ٣١٠ – ٣١١

ولعلها أرادت بحب الهوى": حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة. وأرادت بحبه لما هو أهل له: الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها، وهو أعلى الحبين وأقواهما.

ويشير الإمام الغزالي هنا، إلى ما يسمى بـ"لذة مطالعة جمال الربوبية" وهي التي عبر عنهما رسول الله ﷺ، حيث قال حاكيا عن ربه تعالى:

"أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر".

(أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة)

ويقول الغزالي عن هذه المرتبة:

"إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية، رماه الخلق بالحجارة، أي يخرج كلامه عن حد عقولهم، فيرون ما يقوله جنونًا أو كفرا فمقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط. فهي قرة العين التي لا تعلم نفس ما أُخفي لهم منها، وإذا حصلت انمحقت الهموم والشهوات كلها، وصار القلب مستغرقًا بنعيمها، فلو أُلقِي في النار لم يحس بها،

لاستغراقه، ولو عُرِضَ عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه، لكمال نعيمه، وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية [1]".

وهذه إشارة لطيفة من الإمام الغزالي، تفيد قصور عقول الذين يرمون الصوفية بالجنون أو الكفر عن إدراك حالهم تماما.

ومن هنا كان مصدر الخطأ، في أحكام علماء النفس الذين حكموا على التصوف مثل: وليم جيمس، وباستيد، وأندرهيل- حيث وضعوا الظواهر النفسية للتصوف في دائرة التجربة الحسية وحدها؛ ولذا حكموا عليها بأنها أمراض عقلية، وهي ليست إلا غيابا مؤقتًا عن الذات من الاستغراق في الحقيقة. أما المرض العقلي، فهو الذي يصاحبه فقدان مستمر للشعور بأنا أو بالذات[2].

ويؤيد قول الإمام الغزالي، ما تحدث به الجنيد (المتوفى عام ٢٩٧ هـ) عن شدة حبه أو وجده أو فنائه في الله تعالى، فيقول:

---

(1) الإحياء ، ٤: ٣١١

(2) د. أبو الوفا التفتازاني : مدخل إلى التصوف الإسلامي، ص ١٠ -١١

"مكثت زمانًا، وعندي وقفة في قول بعضهم: إن الذاكر لله تعالى يصل إلى حالة لو ضرب وجهه بالسيف لم يحس، إلى أن وجدت الأمر كما قال"[1].

وهو كناية عن شدة الاستغراق في محبة الله عز وجل. وقد أشار ابن القيم، إلى أن محبة الله تعالى تندرج تحت مفهوم "الصراط المستقيم"، وأنها من حقائق الإيمان، التي هي منازل السائرين إلى الله تعالى[2].

كذلك أشار ابن القيم هنا، إلى الفرق بين الوجود والوجد لدى الصوفية. فالوجود هو الظفر بحقيقة الشيء.

أما الوجد فهو ما يصادف القلب، ويرد عليه من واردات المحبة والشوق، والإجلال والتعظيم وتوابع ذلك، وهو يقول:

"الوجد هو ثمرة أعمال القلوب، من الحب في الله والبغض فيه، كما جعله النبيﷺ، ثمرة كون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما، وثمرة الحب فيه، وكراهة

---

(1) الشعراني: لطائف المنن والأخلاق،ص ٤١

(2) مدارج السالكين، ١: ٥٨

عوده في الكفر كما يكره أن يقذف في النار"[1].

وبذلك يكون الوجد ثمرة هذه الأعمال القلبية، التي هي الحب في الله، والبغض في الله. ولا بد من التنبه إلى ما هو أعلى منه، وهو "المواجيد" فإن الوجد مصادفة، المواجيد ثمرات الأوراد. وكلما كثرت الأوراد قويت المواجيد[2]. أو كما يقول ابن القيم:

"إذا غرست شجرة المحبة في القلب، وسقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب، أثمرت أنواع الثمار، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها"[3].

وقد وردت اعتراضات على مواقف بعض الصوفية في هذا المجال، وهم في هذا لم يعرفوا حقيقة المحبة لله عز وجل.

فقد حكِي أن أبا الحسين النوري، شهد عليه غلام الخليل، أنه سمعه يقول: أنا أعشق الله عز وجل، وهو يعشقني.

---

(1) نفس المصدر، ٣: ٦٩

(2) نفس المصدر، ٣: ٦٨

(3) نفس المصدر، ٣: ٩

ويبرر النوري ذلك بما ورد في القرآن الكريم من ﴿يُحِبهُم وَيُحِبونَهُ﴾ وأنه ليس العشق بأكثر من المحبة.

قال القاضي أبو يعلى: وقد ذهبت الحلولية إلى أن الله عز وجل يعشق. ويرى ابن الجوزي، أن هذا جهل من ثلاثة أوجه:

الأول: من حيث الاسم، فإن العشق عند أهل اللغة لا يكون إلا لما ينكح.

الثاني: أن صفات الله عز وجل منقولة، فهو يحب – بضم ففتح ولا يقال يعشق، ويحب ولا يقال يعشق، كما يقال: يعلم ولا يقال: يعرف.

الثالث: من أين له أن الله تعالى يحبه، فهذه دعوى بلا دليل. وقد ورد في الحديث: **"من قال إني في الجنة فهو في النار"**[1].

إن العبد هو الذي يبدأ بالمحبة من جانبه؛ لأن العبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع؛ وبذلك يظل

---

[1] تلبيس إبليس ، ص ١٧٠ – ١٧١

سعي المحب صاعدا إلى حبيبه، لا يحجبه دونه شيء. ويقول ابن القيم:

"ومن ههنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه محبوبا لهم، بل هو غاية مطلوبهم – ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم – منكرين لكونه إلها، وإن أقروا بكونه ربا للعالمين وخالقًا لهم، فهذا غاية توحيدهم، وهو توحيد الربوبية، الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يخرجوا به عن الشرك [1]".

٤- حال الخوف:

إن الخوف يحدث إذا شاهد العبد من ربه عظمة وهيبة وقدرة، ولم يفطن إلى العطف واللطف والإحسان والمحبة للعباد.

وهنا تضطرب أعصابه، وتثور نفسه، ويتبرم بالحياة؛ خشية على نفسه، ألا تبلغ الكمال، ولا تنال المرتبة السامية، أو ينالها العقاب.

---

(1) ابن القيم: مدارج السالكين، ١: ٧٤

وقد دفع الخوف بعض الصوفية، إلى هجر الناس، والعيش في البراري والقفار، وإلى الذهول والنحول، حتى كانوا يتمثلون بقول الشاعر:

لو أن ما بي على صخر لأنحله

فكيف يحمله خلق من الطين!

وعلى هذا فإن حال القرب السابق يقتضي حالين:

فمن السالكين من يغلب على قلبه الخوف، من نظره إلى قرب الله منه. ومنهم من يغلب على قلبه المحبة، وذلك حسبما قسم الله للقلوب من التصديق وحقيقة اليقين والخشية، وذلك من كشف القلوب.

والخوف على ثلاثة أوجه:

الأول: خوف الأجلة، وقد قرنه الله تعالى بالإيمان في قوله:

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾

(آل عمران: ١٧٥)

الثاني: خوف الأوساط، لقوله تعالى:

﴿وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِهِ جَنتَانِ﴾

(الرحمن: ٤٦)

قال مجاهد: يريد أن يذنب أو يهم؛ فيخاف ربه فيدعه.

الثالث: خوف العامة، لقوله تعالى:

﴿يَخَافُونَ يَوما تَتَقَلبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبصَارُ﴾

(النور: ٣٧)

فخوف العامة اضطراب قلوبهم مما علموا من سطوة معبودهم.

وعلى هذا تواردت آراء الصوفية في الخوف حسب تجاربهم. فيقول الشبلي عن الخوف: تخاف ألا يسلمك إليك.

وقال أبو سعيد الخراز: شكوت إلى بعض العارفين الخوف، فقال لي: إني اشتهي أن أرى رجلاً يدري ما الخوف من الله. ثم قال: إن أكثر الخائفين خافوا على أنفسهم من الله شفقة منهم على أنفسهم، وعملاً في خلاصها من أمر الله عز وجل.

وقال ابن حنبيق: الخائف عندي: أن يكون بحكم الوقت: فوقت يخافه، ووقت يأمنه. وقال كذلك: الخائف عندي من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان.

وقال القناد: علامة الخوف: ألا يعلل نفسه بعسى وسوف.

وقال ابن الجلاء: الخائف عندي الذي لا يخاف غير الله تعالى.

وقال آخر: علامة خوف الله تعالى: هيجان القلوب، وشدة الذعر من الترهيب.

وعرف سهل بن عبد الله خوف أهل الخصوص من الخائفين، فقال: لو قسم ذرة من خوف الخائفين على أهل الأرض، لسعدوا بذلك أجمعين. فقيل له: فكم يكون مع الخائفين من هذا الخوف؟ قال: مثل الجبل.

وقال الواسطي: الأكابر يخافون القطع، والأصاغر يخافون العقوبة، وخوف الأكابر أقطع؛ لأن ما دام للنفس في النفس من رعوناتها بقية فليس بمحسن وإن أتى بكل تفويض وتسليم. ومعنى رعوناتها: تدبيرها ودعواها ونظرها إلى طاعاتها[1].

وينظر الإمام الغزالي إلى الخوف على أنه حجاب بين العبد وربه؛ لأن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه

---

[1] الطوسي: اللمع ، ص ٨٩ – ٩٠

بسبب توقع مكروه في المستقبل. ومن أنس بالله تعالى لم يبق له التفات إلى المستقبل.

"وبالجمله فالمحب إذا شغل قلبه في مشاهدة الحبيب بخوف الفراق، كان ذلك نقصا في الشهود، وإنما دوام الشهود غاية المقامات"[(1)].

وعلى كل حال فهو يتكلم عن حال الواصلين.

***

والتقوى لها ارتباط بالخوف؛ لأن الخوف قبل التقوى، وهو أصلها. فالتقوى التي أعد الله عز وجل، الجنة لأهلها، تكون في اتقاء الشرك، فما دونه من ذنب، من كل ما نهى الله عنه، أو تضييع واجب مما افترضه الله تعالى:

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾

(النساء: ١٣١)

وهي وصية الله عز وجل في الأولين والآخرين.

---

(1) الإحياء، ٤: ١٥٥.

وقال تعالى:

﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

(يونس: ٦٢- ٦٣)

ذلك أن التقوى إنما كان أصلها الخوف والحذر من الله عز وجل.

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾

(الدخان: ٥١)

فأخبر العليم أن الخوف كان قبل التقوى. فلما كان الخوف من الله تعالى، هو أصل التقوى، وعدهم الأمن عوضا مما أخافوا أنفسهم به من عقابه. ولا يخلو قلب الإنسان في الآخرة، من أن يكون أحد قلبين كما يقول المحاسبي:

الأول:

"إما قلبا كان في الدنيا لله تعالى خائفًا، فاستطار فرحا لما سمع الله عز وجل، يقولها غبطة وسرورا؛ لما رأى من عواقب الصبر، وما حل في قلبه من الأمن، وما سمع

من الخصوصية له من الله جل وعز بالأمن والرضا على رءوس أهل الجمع".

والآخر:

"وإما قلبا كان في الدنيا غافلاً مغترا آمنًا، فاستطار فزعا ورعبا، وغلبت عليه الندامة والحسرة، حين رأى سوء عواقب غفلته واغتراره، ولزم قلبه اليقين بأن غضب الله عز وجل قد حل به، وأنه لن ينجو من عذاب الله عز وجل، بضعفه، وما خصه الله تبارك اسمه به من الشقاء والعداوة: من النداء بالخيبة له على رءوس أهل الجمع"[1].

فتقوى الله عز وجل، هي أول ما يجب لتأمين القلب؛ ليصير المرء من أعز الخلائق أنفسا، وأنورهم قلوبا، وأطيبهم عيشًا.

ولعظمة التقوى أمر الله تعالى بالتعاون فيها حيث قال: **﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾**

(المائدة: ٢)

قال أبو العالية: البر ما أُمرتم به، والتقوى: ما نُهيتم عنه.

---

(1) المحاسبي : الرعاية لحقوق الله عز وجل، ص٢٦

وقال غيره: ما عبد الله العابدون بشيء أفضل من ترك ما نهاهم عنه.

ومن خطبة أبي بكر ﷺ يوم توليه الخلافة:

"واعلموا أن أكيس الكيس: التقى، وأن أحمق الحمق: الفجور"[1].

والتقوى في الجوارح: القيام بالحق وترك المعاصي.

والتقوى في الضمير: أداء الفرض والنفل وجميع أعمال الطاعات مما ندب الله عز وجل إليها عباده، ولم يفترضها عليهم رحمة لهم.

والتقوى تسلم إلى الورع؛ لأن المرء لما اتقى الله عز وجل، تورع: أي جانب ما كره الله عز وجل. وفي هذا يقول المحاسبي:

"فالتقوى أول منزلة العابدين: وبها يدركون أعلاها، وبها تزكوا أعمالهم؛ لأن الله عز وجل، لايقبل عملاً إلا ما أريد به وجهه، فوالله ما رضي كثير من المتقين بها لله تعالى، وحدها، حتى أعطوه المجهود من القلوب والأبدان، وبذلوا

---

[1] نفس المصدر، ص ٣٠

له المهج من الدماء والأموال! فانظر رحمك الله أين أنت منهم"[1].

ومن أحوال السلف الصالح في الخوف:

روي أن أبا بكر الصديق ﵁، قال لطائر: ليتني مثلك يا طائر ولم أُخْلَق بشرا.

وقال أبو ذر ﵁: وددت لو أني شجرة تعضد.

وقالت عائشة رضي الله عنها: وددت أني كنت نسيا منسيا.

وروي أن عمر ﵁، كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن، مغشيا عليه، فكان يعاد أياما.

وقال عمر بن عبد العزيز: إنما جعل الله هذه الغفلة في قلوب العباد رحمة؛ كيلا يموتوا من خشية الله تعالى[2].

وهكذا نجد السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان من أعلام الصوفية، يستمدون مواقفهم من الكتاب والسنة. وليت بعض

---

[1] الرعاية ، ص ٣٢

[2] الإحياء، ٤: ١٨٣ وما بعدها.

المحدثين من الصوفية التزموا بهذا المنهج، لكنهم اشتغلوا عن القرآن بالأحزاب والأوراد والموالد وغيرها[1].

***

وإذا سكن الخوف القلب، أوجب خشوع الظاهر، ولا يملك صاحبه دفعه، فتراه مطرقًا متأدبا متذللاً. وقد كان السابقون يجتهدون في ستر ما ينظر منهم في ذلك. وكان محمد بن سيرين يضحك بالنهار، ويبكي بالليل.

ولا ينبغي أن يطْلب من العالم الانبساط بين العوام؛ فذلك يؤذيهم، لما روي عن علي ﵁: إذا ذكرتم العلم، فاكظموا عليه، ولا تخلطوه بضحك فتمجه القلوب.

ومثل هذا لا يسمى رياء؛ لأن قلوب العوام تضيق عن التأويل للعالم، إذا تفسح في المباح، فينبغي أن يتلقاهم بالصمت والأدب.

---

(1) محمد أحمد الحوامدي: السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات ، ص ٢٠٠ – ٢٠١ ، مكتبة ابن تيمية بالقاهرة، ١٣٥٢هـ.

وإنما المذموم هنا، تكلف التخشع والتباكي ومطأطأة الرأس، ليرى الإنسان بعين الزهد والتهيؤ للمصافحة وتقبيل اليد. وربما قيل له: ادع لنا، فكره ذلك واشتد عليه.

وكان في الخائفين من حمله الخوف على شدة الذل والحياء؛ فلم يرفع رأسه إلى السماء. وليس هذا بفضيلة؛ لأنه لا خشوع فوق خشوع رسول الله ﷺ.

فقد جاء في صحيح مسلم، من حديث أبي موسى رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ، كثيرا ما يرفع رأسه إلى السماء. وفي هذا الحديث دليل على استحباب النظر إلى السماء، لأجل الاعتبار بآياتها.

وقال الله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَمَاءِ فَوقَهُم كَيفَ بَنَينَاهَا وَزَينَاهَا﴾

(سورة ق: ٦)

وقال سبحانه:

﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَمَاوَاتِ وَالأَرضِ﴾

(يونس: ١٠١)

وفي هذا رد على بعض المتصوفة، الذين يطرقون إلى الأرض، فإن أحدهم يبقى سنين لا ينظر إلى السماء. وهذا جهل منهم بالدين. وما شُغل إبليس إلا التلاعب بالجهلة. أما العلماء فهو بعيد عنهم، شديد الخوف منهم؛ لأنهم يعرفون جميع أمره، ويحترزون من فنون مكره.

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال:

"لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ منحرفين ولا متماوتين. وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم. فإذا أريد أحد منهم على شيء من أمر دينه دارت حماليق عينيه كأنه مجنون"[1].

ونظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إلى شاب قد نكس رأسه، فقال له: "يا هذا ارفع رأسك، فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب" فمن أظهر للناس خشوعا فوق ما في قلبه، فإنما أظهر نفاقًا على نفاق.

وروي أن رجلاً تنفس عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كأنه يتحازن، فلكزه عمر، أو لكمه؛ وذلك لأن التصنع مكروه.

[1] ابن الجوزي : تلبيس إبليس، ص ٢٩١، وانظر ٢٩٠

"وقد كان السلف يسترون أحوالهم، ويتصنعون بترك التصنع"[1].

ورأت الشفاء بنت عبد الله، فتيانًا يقصرون في المشي، ويتكلمون رويدا. فقالت: ما هذا؟ قالوا: نُساك. قالت: كان والله عمر إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو الناسك حقًا.

وكان في ثوب أيوب السختياني، بعض الطول؛ ليستر حاله.

وكان سفيان الثوري يقول: لا أعتد بما ظهر من عملي.

وقال لصاحب له حين رآه يصلي: ما أجرأك تصلي والناس يرونك!.

ومر أبو أمامة برجل ساجد، فقال: يا لها من سجدة، لو كانت في بيتك!

وقال الإمام الشافعي في هذا المعنى:

ودع الذين إذا أتوك تنسكوا

وإذا خلوا كانوا ذئاب حقاف [1]

---

[1] نفس المصدر، ص ٢٩١

وعلى كل فإن المسألة تعود إلى الجهل بحقيقة الدين، ولهذا وجدنا سهل بن عبد الله التستري، يوجب على صاحب الحال العلم، ويوجب على العالم أن يكون صاحب حال، وإلا ضل وأضل. فهو يقول:

"من كان له حال فليعتصم بالعلم من تلك الزلة، والعالم إذا لم يكن له حال، فهو قائد الناس إلى الناس، يعني أن يكون له حال من أحوال التقوى: إما حياء، وإما خوف أو ورع أو مراقبة أو زهد أو نحو هذا"[(2)].

٥- حال الرجاء:

إن الرجاء حال شريف، وهو مع الخوف جناحا العمل لا يطير إلا بهما. والرجاء أيضا ترويح من الله تعالى لقلوب الخائفين، ولولا ذلك لتلفت نفوسهم وذهلت عقولهم.

---

(1) نفس المصدر لابن الجوزي، ص ٢٩٢

(2) التستري (سهل بن عبد الله): المعارضة والرد على أهل الفرق وأهل الدعاوى في الأحوال،ص ٩٠، تحقيق ونقد وتعليق: د.محمد كمال جعفر، ط١، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م، مكتبة دار الإنسان، بالقاهرة.

قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾

(الأحزاب: ٢١)

وقال سبحانه:

﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾

(الإسراء: ٥٧)

وقوله:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

(الكهف: ١١٠)

ولقاء الله هنا قد فُسر بثواب ربه؛ ولهذا قال بعض السلف: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا.

والرجاء على ثلاثة أقسام:

١- رجاء في ثواب الله وفي سعة رحمته لعبد مريد قد سمع من الله ذكر المنن، وعلم أن الكرم والفضل

والجود من صفات الله، فارتاح قلبه إلى المرجو من كرمه وفضله.

٢- رجاء في سعة رحمة الله تعالى:

وحكِي عن ذى النون المصري، أنه كان يدعو ويقول: اللهم إن سعة رحمتك أرجى لنا من أعمالنا عندنا، واعتمادنا على عفوك أرجى عندنا من عقابك لنا.

٣- الرجاء في الله، وهو أعلاها: وهذا يكون من عبد تحقق في الرجاء، فلا يرجو من الله شيئًا سوى الله. وهو معنى قول الشبلي: الرجاء أن ترجوه ألا يقطع بك دونه.

وقال ذو النون المصري: بينا أنا أسير في بعض البوادي إذ لقيتني امرأة فقالت لي: من أنت؟ قلت: رجل غريب، فقالت: وهل يوجد مع الله تعالى أحزان الغربة[1].

وعموما فإن الرجاء من جملة أحوال الطالبين، وهو يتم من حال وعلم وعمل، فالعلم سبب يثمر الحال، والحال يقتضي العمل.

---

[1] الطوسي: اللمع، ص ٩١ - ٩٢

وقد ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب، لاسيما في وقت الموت.

قال تعالى:

﴿لاَ تَقْنَطُوا مِن رحمَةِ اللهِ﴾

(سورة الزمر: ٥٣)

فحرم أصل اليأس. وفي أخبار يعقوب عليه السلام: أن الله تعالى أوحى إليه: أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف؟ لأنك قلت: أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. لِم خفت الذئب ولم ترجني؟ ولِم نظرت إلى غفلة أخوته، ولم تنظر إلى حفظي له[1].

وقال ﷺ:

"لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى"

(أخرجه مسلم من حديث جابر)

وقال ﷺ: يقول الله عز وجل:

---

[1] الإحياء، ٤: ١٤٤

"أنا عند ظن عبدي بي"

(جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة)

هذا وإن الرجاء يجعل للعبد رغبة في الاجتهاد؛ لتحقيق بغيته.

٦- حال الشوق:

إن الشوق لا يحصل إلا للذين تثبت المحبة في قلوبهم، فيشتاقون إلى التعرف على صفات الله تعالى وأسرار جماله وقوته، فالشوق ثمرة المحبة، ومن أحب الله تعالى اشتاق إلى لقائه. ومن اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات.

وكأن هذا الحال نار يشعلها الله تعالى، في قلوب أوليائه، حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات.

وكان ﷺ يقول في دعائه:

"أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك".

(النسائي والحاكم، عن عمارة، وسنده صحيح)

فالشوق إلى اللقاء يكون في الدنيا، ولذة النظر إلى وجه الله تعالى في الآخرة.

وقد روي أن الجنة اشتاقت إلى ثلاثة: إلى علي وعمار وسلمان رضي الله عنهم أجمعين.

(الترمذي عن أنس)

والشوق يكون لعبد قد تبرم ببقائه شوقًا إلى لقاء محبوبه. وقيل: الشوق هيمان القلب عند ذكر المحبوب.

وقال الخراز: مِلِئت قلوبهم من المحبة؛ فطاروا بالله عز وجل طربا، وهاموا إليه اشتياقًا، فيا لهم من قلق مشتاق أسف بربه، كلف دنف، ليس لهم سكن غيره، ولا مألوف سواه!

والأولياء في الشوق على ثلاثة أنواع:

١- منهم من اشتاق إلى ما وعد الله تعالى أوليائه من الثواب والكرامة، والفضل والرضوان.

٢- ومنهم من اشتاق إلى محبوبه من شدة محبته وتبرمه ببقائه شوقًا إلى لقائه.

٣- ومنهم من شاهد قرب سيده، أنه حاضر لا يغيب، فينعم قلبه بذكره، وقال: إنما يشتاق إلى غائب وهو حاضر لا يغيب. فذهب بالشوق عن رؤية الشوق،

فهو مشتاق بلا شوق، ودلائله تصفه عند أهله بالشوق، وهو لا يصف نفسه بالشوق[1].

فالشوق ناتج عن المحبة؛ لأن المرء إذا غاب عليه التطلع من وراء حجب الغيب، إلى منتهى الجمال، واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال، انبعث القلب إلى الطلب، وانزعج له وهاج إليه، وتسمى حالة الانزعاج شوقًا، وهو بالإضافة إلى أمر غائب.

ولذا قيل لبعضهم: أنت مشتاق؟ فقال: لا، إنما الشوق إلى غائب، فإذا كان الغائب حاضرا فإلى من يشتاق؟ وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله[2].

٧- حال الأنس:

إن حال الشوق السابق يقتضي حال الأنس الذي لا يتم إلا للموهوب المقرب. وقد عرف الأنس بالله تعالى بأنه:

"الاعتماد على الله تعالى، والسكون إليه، والاستعانة به". وقد روي في الخبر: أن مطرف بن عبد الله، كتب إلى

---

[1] اللمع، ص ٩٤ – ٩٥

[2] الإحياء، ٤: ٣٣٩

عمر بن عبد العزيز: "ليكن أنسك بالله وانقطاعك إليه، فإن لله تعالى عبادا استأنسوا بالله، فكانوا في وحدتهم أشد استئناسا من الناس في كثرتهم، وأوحش ما يكون الناس آنس ما يكونون، وآنس ما يكون الناس أوحش ما يكونون [1]". ومن المعلوم أن مطرف هذا من كبار التابعين، وأن عمر بن عبد العزيز من الأئمة الراشدين رضوان الله عليهم.

وورد عن بعض العارفين قوله: إن لله عز وجل عبادا أرادهم بحق حقائق الأنس به، فأخذهم به عن وجد طعم الخوف مما سواه.

ولا يكون هذا الحال – الأنس – إلا لعبد قد كملت طهارته، وصفا ذكره، واستوحش من كل ما يشغله عن الله تعالى؛ فعند ذلك آنسه الله تعالى به.

وأهل الأنس في الأنس على ثلاثة أحوال:

١- منهم من أنس بالذكر واستوحش من الغفلة، وأنس بالطاعة واستوحش من الذنب.

---

[1] اللمع، ص ٩٦

قال سهل بن عبد الله: أول الأنس من العبد أن تأنس النفس والجوارح بالعقل، ويأنس العقل والنفس بعلم الشرع، ويأنس العقل والنفس والجوارح بالعمل لله خالصا؛ فيأنس العبد بالله أي يسكن إليه.

٢- ومنهم من قد استأنس بالله واستوحش مما سواه من العوارض والخواطر المشغلة.

وسئِلَ ذو النون عن علامة الأنس بالله تعالى، فقال: إذا رأيته يؤنسك بخلقه، فإنه هو ذا يوحشك من نفسه، وإذا رأيته يوحشك من خلقه، فهو إذن يؤنسك بنفسه.

وقال الجنيد عن الأنس بالله تعالى: ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة.

وقال إبراهيم المارستاني: فرح القلب بالمحبوب.

٣- الحال الثالث هو الذهاب عن رؤية الأنس بوجود الهيبة والقرب والتعظيم مع الأنس.

وفي هذا يقول بعض أهل المعرفة: إن لله عبادا أوجد لهم من الهيبة له ما أخذهم به عن الأنس بغيره.

وقال الشبلي عن الأنس: وحشتك منك، ومن نفسك، ومن الكون.

وكتب رجل إلى ذي النون: آنسك الله بقربه! فكتب إليه ذو النون: أوحشك الله من قربه. فإنه إذا آنسك بقربه فهو قدرك، وإذا أوحشك من قربه فهو قدره.

ومعنى "أوحشك من قربه": أي يوجدك هيبة قربه[1].

وإن من غلب عليه حال الأنس، لم تكن شهوته، إلا في الانفراد والخلوة، كما حكِي أن إبراهيم بن أدهم، نزل من الجبل، فقيل له: من أين أقبلت؟ فقال: من الأنس بالله.

وذلك لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله، بل كل ما يعوق عن الخلوة؛ فيكون من أثقل الأشياء على القلب.

وقد روي أن موسى عليه السلام، لما كلمه ربه، مكث دهرا لا يسمع كلام أحد من الناس، إلا أخذه الغثيان، ذلك أن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب، كما يوجب عذوبة ذكره، فيخرج من القلب عذوبة ما سواه.

وقيل لرابعة: بم نلتم هذه المنزلة؟ قالت بتركي ما لا يعنيني، وأنسي بمن لم يزل.

---

(1) اللمع، ص٩٦ - ٩٧

وقال بعض الحكماء: عجبا للخلائق كيف أرادوا بك بدلاً؟! عجبا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك[1].

ويتحدث الإمام الغزالي عن علامة الأنس بالله تعالى، فيقول:

"اعلم أن علامته الخاصة: ضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم، واستهتاره بعذوبة الذكر. فإذا خالط فهو كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة، وغريب في حضر وحاضر في سفر، وشاهد في غيبة وغائب في حضور، مخالط بالبدن، منفرد بالقلب، مستغرق بعذوبة الذكر [2]".

ولم يكن بعض المتكلمين على حق، حين ذهب إلى إنكار الأنس بالله تعالى وكذلك إنكار الشوق والحب، بحجة أن ذلك يدل على التشبيه، فلم يقروا إلا مقام الصبر.

والذين أنكروا ذلك، قد جهلوا أن جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات، ولذة معرفتها أغلب على ذوي القلوب.

---

(1) الإحياء، ٤: ٣٣٩ – ٣٤٠

(2) الإحياء، ٤: ٣٤٠

ويقول الغزالي:

"وهذا كله كلام ناقص قاصر، لم يطلع من مقامات الدين، إلا على القشور، فظن أنه لا وجود إلا للقشر. فإن المحسوسات وكل ما يدخل في الخيال من طريق الدين قشر مجرد، ووراءه اللاب المطلوب، فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أن الجوز خشب كله، ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة، وهو معذور، ولكن عذره غير مقبـول[1]".

وقد قيل:

الأنس بـالله لا يحويـه بطـال — وليس يدركه بـالحول محتـال

والآنسون رجـال كلهـم نجـب — وكلهـــم صـــفوة لله عمـــال

٨- حال الطمأنينة:

إن الأمن بالله تعالى يقتضي حال الطمأنينة. وهي حال رفيع لعبد رجح عقله وقوي إيمانه ورسخ علمه، وصفا ذكره، وثبتت حقيقته.

---

[1] نفس المكان.

قال الله تعالى.

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾

(الفجر: ٢٧)

أي المطمئنة بالإيمان

وقال سبحانه:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

(الرعد: ٢٨)

وقال في قصة إبراهيم عليه السلام:

﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾

(البقرة: ٢٦٠)

وقال سهل بن عبد الله: إذا سكن قلب العبد إلى مولاه واطمأن إليه، قويت حال العبد، فإذا قويت أنس بالعبد كل شيء.

وقال الدامغاني تعليقًا على آية:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾

"إن القلوب هشت وبشت وسكنت واستأنست"[1].

أي هشت من معرفة جلال الله تعالى وعظمته، وبشت من معرفة رحمة الله وفضله، وسكنت من معرفة كفاية الله وصدقه، واستأنست من معرفة إحسان الله ولطفه.

وسئِلَ الشبلي عن معنى قول أبي سليمان الداراني: النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت، فقال: إذا عرفت من يقوتها اطمأنت.

والطمأنينة على ثلاثة أنواع[2]:

١- نوع للعامة: لأنهم إذا ذكروا الله تعالى، اطمأنوا إلى ذكرهم له، فحظهم منه: الإجابة للدعوات باتساع الرزق ودفع الآفات، وهو ما قال الله عز وجل:

﴿النفْسُ الْمُطْمَئِنةُ﴾

يعني بالإيمان، بأن لا دافع ولا مانع إلا لله.

---

(1) اللمع، ص ٩٨

(2) اللمع، ص ٩٨ – ٩٩

٢- نوع للخصوص: لأنهم رضوا بقضائه وصبروا على بلائه، وأخلصوا، واتقوا، وسكنوا، واطمأنوا إلى قول الله تعالى:

﴿إِن اللهَ مَعَ الذِينَ اتقَوا وَالذِينَ هُم محسِنُونَ﴾

(النحل: ١٢٨)

وقوله سبحانه:

﴿إِن اللهَ مَعَ الصابِرِينَ﴾

(الأنفال: ٤٦)

فاطمأنوا وسكنوا إلى قوله: "مع"، فكانت طمأنينتهم ممزوجة برؤية طاعتهم.

٣- نوع لخصوص الخصوص: وهؤلاء علموا أن سرائرهم لا تقدر أن تطمئن إليه، ولا تسكن معه، هيبة وتعظيما؛ لأنه ليس له غاية تدرك، لقوله تعالى:

﴿لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيء﴾

(الشورى: ١١)

﴿وَلَم يَكُن لهُ كُفُوا أَحَد﴾

(الإخلاص: ٤)

وفي هذا يقول السراج الطوسي نقلاً عن الواسطي:

"فمَن كانت له الأشياء في سره كذلك فإلى ماذا يطمئن أو يسكن قلبه؟ ومَن وقع في عطش التمني في طلب الزيادة، وقع في البحر الذي لا تجري فيه الأوهام" [1]

والمسألة هنا عبارة عن محاولة لبلوغ الكمال النفسي، بالالتجاء إلى الله عز وجل. وما زال الناس اليوم بحاجة إلى التصوف ومبادئه، للتخفيف من ويلات الحياة وقسوة المجتمع، وبعث الرضا الروحي في نفس كل محروم. وصدق أحد الدارسين إذ قال:

"إن تعلق الإنسان بالله وحده، لمما يرفع من معنوية الإنسان في الحياة، فلا يأبه بطغيان طاغية، ولا بسلطان ذي سلطان ولا يقيم أعماله إلا بميزان دقيق أساسه مراقبة الله وتحكيم ضمير الإنسان في كل عمل وكل خاطرة، وكل التفاتة ...ونحن المسلمين ما أجدرنا أن نعيد نظام بنائنا

---

[1] اللمع، ص ٩٩

الاجتماعي على أساس متين من صوفية الإسلام وروحانيته العميقة الجليلة الملهمة"[1].

٩- حال المشاهدة:

إن الطمأنينة تقتضي جمال المشاهدة، والمشاهدة حال رفيع، وهي من لوائح زيادات حقائق اليقين؛ ولهذا فإنها تؤدي فيما بعد إلى حال اليقين.

قال الله عز وجل:

﴿إِن فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السمعَ وَهُوَ شَهِيد﴾

(سورة ق: ٣٧)

يعني: حاضر القلب.

وقال سبحانه وتعالى:

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ **(البروج: ٣)**

---

[1] د. محمد عبد المنعم خفاجي : التراث الروحي للتصوف الإسلامي في مصر، ص١١، ط١،"بدون تاريخ" دار العهد الجديد للطباعة بالقاهرة.

فالشاهد الرب، والمشهود الكون. فمن شاهد بقلبه تلاشى كل شيء وغاب عند وجود عظمة الله تعالى، ولم يبقَ في القلب إلا الله عز وجل.

وقال عمر بن عثمان المكي: المشاهدة ما لاقت القلوب من الغيب بالغيب، ولا يجعلها عيانًا ولا يجعلها وجدا. وهي أيضا: وصل بين رؤية القلوب ورؤية العيان؛ لأن رؤية القلوب عند كشف اليقين في زيادة توهم.

وهو قول النبي ﷺ، لعبد الله بن عمر، رضي الله عنه:

"اعبد الله كأنك تراه" الحديث.

ويؤخذ من كلام المكي أيضا، أن المشاهدة محاضرة أي مداناة وقرب[1].

ويجري في كلام الصوفية كثيرا لفظ "الشاهد" ويريدون به: ما يكون حاضر قلب الإنسان، وهو ما كان الغالب عليه ذكره، حتى كأنه يراه ويبصره، وإن كان غائبا عنه. فكل

---

(1) اللمع، ص١٠٠

ما يستولي على قلب صاحبه ذكره، فهو شاهده؛ لأن المحبة توجب دوام ذكره المحبوب واستيلائه عليه[1].

وأهل المشاهدة على ثلاثة أحوال[2]:

الأول: حال الأصاغر، وهم المريدون؛ لأنهم يشاهدون الأشياء بأعين الفكر.

الثاني: حال الأوساط؛ لأن الواحد منهم يكون في قبضة الحق وفي ملكه، فإذا وقعت المشاهدة فيما بين الله وبين العبد، لا يبقى في سره ولا في وهمه غير الله تعالى.

الثالث: حال العارفين: وفيه تكون قلوب العارفين قد شاهدت الله مشاهدة تثبيت، فشاهدوه بكل شيء، وشاهدوا كل الكائنات به، فكانت مشاهدتهم لديه ولهم به، فكانوا غائبين حاضرين، وحاضرين غائبين، على انفراد الحق في الغيبة والحضور، فشاهدوه ظاهرا وباطنًا، وباطنًا وظاهرا، وآخرا أولاً، وأولاً آخرا، كما قال عز وجل:

---

(1) الرسالة القشيرية، ص ٧٤

(2) اللمع، ص ١٠١

﴿هُوَ الأولُ وَالآخِرُ وَالظاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُل شَيءٍ عَلِيم﴾

(الحديد: ٣)

والمستوى الثالث والأخير هو الأسمى والأعلى، وهو الذي يسمونه حال خاصة الخاصة. وهذا الحال لا يمكن البرهنة على صدق الحال فيه أو كذبه، ومن الممكن أن يكثر المدعون في هذا المجال، وعلى هذا المعنى يحمل كلام شيخ الإسلام ابن تيمية؛ فقد حذر المسلمين مما ينسب إلى كثير من مشايخ الصوفية على يد أتباع الطريق، مما هو كذب ونفاق وبدع، فهو يقول:

"وهذا كثير ملأ العالم، نجد كل قوم يدعون من الاختصاص بالأسرار والحقائق ما لا يدعي المرسلون، وأن ذلك عند خواصهم، وأن ذلك لا ينبغي أن يقابل إلا بالتسليم، ويحتجون لذلك بأحاديث موضوعة، وتفسيرات باطلة"[1].

---

[1] ابن تيمية (٦٦١ – ٧٢٨ هـ) : نقض المنطق، ص ٦٤ وانظر ٦٣، تصحيح: محمد حامد الفقي، ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م ، مكتبة السنة المحمدية بالقاهرة.

١٠- حال اليقين:

إن اليقين أسمى من المشاهدة، فهو يقوي الإيمان في نفس الصوفي، ويستولي على جميع حواسه وخواطره، حتى يرى الحق بقوة إيمانه رؤية العيان.

فيبلغ عندئذ الدرجة القصوى من كمال العلم، ويفعم قلبه سرورا وشوقًا إلى دوام الرؤية؛ فيصير البلاء عنده نعمة، والرخاء مصيبة. وكذلك يقف على جميع صفات الله وأسمائه الحسنى، التي تفتح المغلاق من أسرار الكون.

وقد ورد ذكر اليقين في مواضع عديدة في القرآن الكريم وفي السنة النبوية، على ثلاثة أوجه:

علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.

ويقول ابن القيم موضحا الفرق بين هذه الأوجه الثلاثة:

"الفرق بين علم اليقين وعين اليقين: كالفرق بين الخبر الصادق والعيان. وحق اليقين: فوق هذا".

ثم يعطي مثالاً من الواقع فيقول:

"وقد مثلت المراتب الثلاث بمن أخبرك: أن عنده عسلاً، وأنت لا تشك في صدقه، ثم أراك إياه؛ فازددت يقينًا. ثم ذقت

منه. فالأول علم اليقين، والثاني عين اليقين، والثالث حق اليقين".

ويقدم بعد هذا مثالاً من أمور الآخرة فيقول:

"فعلمنا الآن بالجنة والنار: علم يقين. فإذا أزلفت الجنة في الموقف للمتقين وشاهدها الخلائق، وبُرزت الجحيم للغاوين وعاينها الخلائق؛ فذلك: عين اليقين، فإذا أُدخِل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار: فذلك حينئذ حق اليقين [1]".

قال النبي ﷺ:

"سلوا الله تعالى، العفو والعافية واليقين في الدنيا والآخرة".

(رواه الإمام أحمد والترمذي عن أبي بكر. وهو حسن صحيح).

واليقين: هو المكاشفة كما يرى الصوفية.

وقال عامر بن عبد قيس: "لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا، يعني عند معاينتي لما آمنت به من الغيب" وهذا كلام غلبات وجد وتحقق. أو أنه يعني: ما ازداد علم يقين.

---

[1] مدارج السالكين، ٢: ٤٠٣

واليقين هو المكاشفة، والمكاشفة على ثلاثة أوجه:

١- مكاشفة العيان بالإبصار يوم القيامة.

٢- مكاشفة القلوب بحقائق الإيمان بمباشرة اليقين بلا كيف ولا حد.

٣- ومكاشفة الآيات بإظهار القدرة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بالمعجزات، ولغيرهم بالكرامات والإجابات.

ويتضح من هذا أن اليقين حال رفيع[1].

ويقول أبو عبد الله الأنطاكي عن ثمرات اليقين:

"إن أقل اليقين إذا وصل إلى القلب نورا، وينفي عنه كل ريب، ويمتلئ القلب به شكرا، ومن الله تعالى خوفًا [2]".

وأهل اليقين على ثلاثة أحوال:

الأول: الأصاغر وهم المريدون: وهو أول مقام اليقين. ومعناه الثقة بما في يد الله تعالى، والإياس مما في أيدي الناس.

---

[1] اللمع، ص ١٠٢

[2] الرسالة القشيرية ، ص ١٤٠ - ١٤١

وهو معنى ما قاله الجنيد، حيث سئِلَ عن اليقين، فقال: اليقين ارتفاع الشك.

وقال آخر: إذا وجد العبد الرضا بما قسم الله له؛ فقد تكامل فيه اليقين.

وقال رويم عن اليقين: تحقق القلب بالمعنى على ما هو به.

الثاني: الأوساط وهم الخصوص: وهو ما سئِلَ ابن عطاء عن اليقين. فقال: مازالت فيه المعارضات على دوام الأوقات.

وقال أبو يعقوب النهرجوري: العبد إذا تحقق باليقين، ترحل من يقين إلى يقين، حتى يصير اليقين له وطنًا.

الثالث: الأكابر، وهم خصوص الخصوص: وهو ما قال عمرو بن عثمان المكي عن اليقين: تحقيق الإثبات لله عز وجل بكل صفاته.

وفيه قال أبو يعقوب النهرجوري:

"لا يستحق العبد اليقين، حتى يقطع عن كل سبب حال بينه وبين الله تعالى، من العرش إلى الثرى، حتى يكون الله لا غير، ولا يؤثر الله تعالى، على كل شيء سواه، وليس

لزيادات اليقين نهاية، كلما تفهموا وتفقهوا في الدين، ازدادوا يقينًا على يقين"[1].

واليقين أصل جميع الأحوال، وإليه تنتهي جميع الأحوال، وهو آخر الأحوال، وباطن جميع الأحوال.

هذا وقد ربط سهل التستري، بين اليقين وبين التوكل، فقال: "**فرع اليقين التوكل**"[2]، وهذا يشير إلى أن مقام التوكل لعظمته، يثمر حال اليقين الذي يصل بين العبد وربه وصلاً قويا.

كذلك ربط سهل بين مقام الرضا، وبين حال اليقين، فقال:

"**حظ الخلق من اليقين على قدر حظهم من الرضا، وحظهم من الرضا على قدر علمهم منه**"[3].

إذن فالعلم بالله أولاً، ثم الرضا، ثم اليقين. وكل منها كالمقدمة لما بعده، وكالثمرة لما قبله.

---

(1) اللمع، ص ١٠٣

(2) المعارضة والرد ، ص ١١٩

(3) نفس المصدر، ص ١٤٦

١٠- الولاية والكرامة

حقيقة الولاية:

إن الولاية ثابتة بنص القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ. وهي تكون للبشر، وهم بين أولياء الله تعالى وأولياء الشيطان.

وفي آية واحدة، يفرق القرآن الكريم بين نوعين من الولاية: إما لله تعالى، وإما لما يعبد من دونه، فقال عز من قائل:

﴿اللهُ وَلِي الذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظلُمَاتِ إِلى النورِ وَالذِينَ كَفَرُوا أَولِيَاؤُهُمُ الطاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِنَ النورِ إِلى الظلُمَاتِ أُولئِكَ أَصحَابُ النارِ هُم فِيهَا خَالِدُونَ﴾

(البقرة: ٢٥٧)

وقد لاحظ ابن عربي في هذه الآية، أن الله تعالى سمى نفسه بالولي وأن هذا من شرف الولاية[1].

وأفرد أولياء الرحمن بقوله:

---

[1] ابن عربي: فصوص الحكم ص ١٣٥

﴿ألاَ إِن أَولِيَاءَ اللهِ لاَ خَوفٌ عَلَيهِم وَلاَ هُم يَحزَنُونَ. الَذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتقُونَ. لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدنيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الفَوزُ العَظِيمُ﴾

(يونس: ٦٢- ٦٤)

وأفرد أولياء الشيطان بقوله:

﴿فَقَاتِلُوا أَولِيَاءَ الشيطَان إِن كَيدَ الشيطَان كَانَ ضَعِيفًا﴾

(النساء: ٧٦)

وقال:

﴿وَمَن يَتخِذِ الشيطَانَ وَلِيا من دُون اللهِ فَقَد خَسِرَ خُسرَانًا مبِينًا﴾

(النساء: ١١٩)

وغير ذلك من الآيات.

وصار من واجب كل عاقل مكلف، أن يفرق بين هذين النوعين من الأولياء: أولياء الرحمن، وأولياء الشيطان، كما فرق الدين بينهما.

فأولياء الله: هما الذين آمنوا واتقوا: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ كما سبقت الآية. فلا ولاية دون هذين الركنين: الإيمان والتقوى.

وفي الحديث الذي رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة ﵁، عن النبي ﷺ قال:

"**يقول الله تعالى: من عادى لي وليا، فقد بارزني بالمحاربة - أو فقد آذنته بالحرب - وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي. ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه**".

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية معلقًا على هذا الحديث الشريف:

"وهذا أصح حديث يروى في الأولياء، فبين النبي ﷺ، أنه من عادى وليا لله، فقد بارز الله بالمحاربة [(1)]".

وفي حديث آخر:

"وإني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب".

أي آخذ ثأرهم ممن عاداهم، كما يأخذ الليث الحرب ثأره:

"وهذا لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به ووالوه، فأحبوا ما يحب، وأبغضوا ما يبغض، ورضوا بما يرضى، وسخطوا بما يسخط، وأمروا بما يأمر، ونهوا عما نهى، وأعطوا لما يحب أن يعطي، ومنعوا من يحب أن يمنع، كما في الترمذي وغيره عن النبي ﷺ، أنه قال: "أوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبغض في الله"[(2)].

وفي حديث آخر رواه أبو داود، ما يفيد أن الولاية استكمال الإيمان، ونصه:

[(1)] ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام):
الفرقان بن أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص٧. مراجعة وتقديم: أحمد حمدي أمام، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، مطبعة المدني بالقاهرة.

[(2)] نفس المكان

"من أحب لله، وأبغض لله وأعطى لله، فقد استكمل الإيمان"

وليعلم أن الله تعالى أباح الدنيا كلها لأوليائه، وهو سبحانه يعلم أنهم لا يتناولونها ألا على ما يجب وكما يجب. وإذا تناولوها وضعوها كما يجب وحيثما يجب[1]. وعلى هذا قال سبحانه:

﴿إن الأرضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتقِينَ﴾

(الأعراف: ١٢٨)

وقال:

﴿...أن الأرضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالِحُونَ﴾

(الأنبياء: ١٠٥)

هذا وإن أصل الولاية: المحبة لله تعالى، والقرب منه. وهي بهذا ضد العداوة؛ لأن أصلها يعود إلى البغض والبعد.

---

[1] الأصفهاني (الراغب المتوفى ٥٠٢ هـ) : الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص ٤٠٦ ، تحقيق ودراسة : د. أبو اليزيد العجمي، ط١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥م، دار الصحوة بالقاهرة.

وبذلك يكون معنى الولي: المحب القريب. وكذلك الموالي للطاعات أي المتابع لها المداوم عليها، فيما يحبه الله تعالى ويرضاه، ويبغضه ويسخطه، ويأمر به وينهى عنه[1].

فإذا كان العبد قريبا من حضرة الله تعالى، بسبب كثرة طاعته وإخلاصه، وكان الرب قريبا منه برحمته وفضله وإحسانه، فهناك تحصل الولاية حقيقة[2].

ومن هنا كان المعادي لولي الله، معاديا لله، ومن عاداه فقد حاربه. قال تعالى:

﴿يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تَتخِذُوا عَدُوي وَعَدُوكُم أَولِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيهِم بِالْمَوَدةِ﴾

(الممتحنة: ١)

وفي الحديث القدسي السابق:

"من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة".

---

(1) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ص ٨

(2) النبهاني: جامع كرامات الأولياء، ١: ١٤، تحقيق ومراجعة" إبراهيم عطوة، ط٣، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، مصطفى البابي الحلبي بمصر

ويرى الشعراني، أن بداية مقام النبوة، يبتدئ من بعد انتهاء مقام الولاية، فالولاية مقدمة للنبوة[1].

وإن أفضل أولياء الله تعالى حقًا، هم أنبياؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولو العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله تعالى وسلم عليه وعليهم أجمعين.

قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيينَ مِيثَاقَهُم وَمِنْكَ وَمِن نوحٍ وَإبرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابن مَريَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم ميثَاقًا غَلِيظًا. لِيَسأَلَ الصادِقِينَ عَن صِدقِهم وَأَعَد لِلْكَافِرِينَ عَذَابا أَلِيما﴾

(الأحزاب: ٧، ٨)

وإن أفضل أولى العزم: محمد ﷺ، فهو بهذا أفضل الأنبياء والأولياء؛ لأنه:

"خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيد ولد آدم، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا، وخطيبهم إذا وفدوا، صاحب المقام المحمود، الذي يغبطه الأولون والآخرون، وصاحب لواء

---

[1] الشعراني: لطائف المنن والأخلاق، ص٤٠

الحمد، وصاحب الحوض المورود، وشفيع الخلائق يوم القيامة، وصاحب الوسيلة والفضيلة. الذي بعثه بأفضل كتبه، وشرع له أفضل شرائع دينه، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم، وهم آخر الأمم خلقًا، وأول الأمم بعثًا [1]".

ومن الأحاديث الصحيحة في ذلك، قوله ﷺ:

"نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه – يعني الجمعة – فهدانا الله له، الناس لنا تبع فيه. غدا لليهود وبعد غد للنصارى".

وقوله ﷺ كذلك:

"أنا أول من تنشق عنه الأرض"

ومنه قوله ﷺ:

"آتي باب الجنة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: أنا محمد، فيقول: بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك".

---

[1] الفرقان : ص ٩

لقد صار محمد ﷺ، من يوم بعثته إلى الناس، فارقًا بين أولياء الله تعالى وبين أولياء الشيطان، فلا يكون وليا لله إلا من آمن به ربما جاء به، واتبعه باطنًا وظاهرا.

فمن ادعى محبة الله وولايته، وهو لم يتبع محمدا ﷺ، فليس من أولياء الله، بل من خالفه كان من أعداء الله وأولياء الشيطان. قال تعالى:

﴿قُلْ إِن كُنْتُم تُحِبونَ اللهَ فَاتبِعُونِي يُحبِبكُمُ اللهُ﴾

(آل عمران: ٣١)

فقد أنزل الله تعالى هذه الآية، في شأن قوم ادعوا محبة الله تعالى، فكانت الآية محنة لهم؛ فقد وضح فيها أن من اتبع الرسول فإن الله يحبه، ومن ادعى محبة الله ولم يتبع الرسول ﷺ، فليس من أولياء الله.

وربما ظن كثير من الناس، في أنفسهم أو في غيرهم، أنهم من أولياء الله، وهم ليسوا كذلك ولا من ظنوا فيهم الولاية، مثلما ادعى اليهود والنصارى أنهم أولياء الله وأحباؤه، وهم لم يتبعوا محمدا ﷺ. قال تعالى ردا عليهم:

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنْتُم بَشَر ممن خَلَقَ﴾

(المائدة: ١٨)

كذلك كان مشركو العرب" يدعون أنهم أهل الله لسكناهم مكة ومجاورتهم البيت الحرام، الذي كانوا يستكبرون به على غيرهم، كما قال الله عز وجل:

﴿قَد كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيكُم فَكُنْتُم عَلَى أَعقَابِكُم تَنكِصُونَ. مُستَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرا تَهجُرُونَ﴾

(المؤمنون: ٦٦، ٦٧)

وقوله سبحانه:

﴿وَهُم يَصُدونَ عَنِ الْمَسجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَولِيَاءَهُ إِن أَولِيَاؤُهُ إِلا الْمُتقُونَ﴾

(الأنفال: ٣٤)

ويتضح من الآية الكريمة، أن المشركين ليسوا أولياءه ولا أولياء بيته، إنما أولياؤه هم المتقون.

وفي الصحيحين عن عمرو بن العاص، ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول جهارا من غير سر: " إن آل فلان ليسوا لي بأولياء – يعني طائفة من أقاربه – إنما وليي الله وصالح المؤمنين".

وهذا موافق لقول الله عز وجل:

﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(التحريم: ٤)

وصالح المؤمنين: هو من كان صالحا من المؤمنين، وهم الأولياء الذين تحقق فيهم الإيمان الصحيح والتقوى، مثال هذا: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وسائر أهل بيعة الرضوان، الذين بايعوا تحت الشجرة، وكانوا ألفًا وأربعمائة، وكلهم في الجنة بمشيئة الله تعالى وفضله.

وقد ثبت في الصحيح قوله ﷺ:

"لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة [1]"

***

وإذا كان من الكفار من يدعي أنه ولي الله، مع أنه عدو لله، فإن من "المنافقين" الذين يظهرون الإسلام من يقر في الظاهر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأنه مرسل إلى جميع الأنس، بل إلى الثقلين: الإنس والجن. وهم يعتقدون في الباطن ما يناقض ذلك.

---

[1] الفرقان، ص ١٠ – ١١

وذلك مثل عدم إقرارهم في الباطن، بأنه رسول الله، وإنما كان – حسب اعتقادهم الفاسد – ملكًا مطاعا ساس الناس برأيه، من جنس غيره من ملوك الأرض.

وأيضا مثل اعتقادهم أنه رسول الله إلى الأميين، دون أهل الكتاب. وهو اعتقاد كثير من اليهود والنصارى.

وكقول من ذهب إلى أنه ﷺ، مرسل إلى عامة الخلق، وأن لله أولياء خاصة، لم يرسل إليهم، ولا هم بحاجة إليه، بل لهم طريق إلى الله من غير جهته، كما كان من الخضر مع موسى عليه السلام، أو أن هؤلاء يأخذون عن الله كل ما يحتاجون إليه وينتفعون به من غير واسطة.

ومثل قول بعضهم أنه ﷺ، مرسل بالشرائع الظاهرة، وهم موافقون له فيها. أما الحقائق الباطنة فلم يرسل بها،أو ليس له معرفة بها مثل معرفتهم[1].

فلم يرد في الأحاديث الصحيحة، فما ذهب إليه الصوفية، من عدد الأولياء والأبدال والنقباء والنجباء والأوتاد والأقطاب، على أنهم أربعة أو سبعة أو اثنا عشر أو أربعون

---

[1] نفس المصدر، ص ١١ – ١٢

أو سبعون وثلاثمائة وثلاثة عشر، أو حتى "**القطب الواحد**"، فلم يرد في ذلك شيء صحيح عن النبي ﷺ.

ولم يحدث أن نطق السلف بشيء من هذه الألفاظ، إلا بلفظ "الأبدال". وروي فيهم حديث أنهم أربعون رجلاً، وأنهم بالشام، وهو في "المسند" من حديث علي رضي الله عنه، وهو حديث منقطع ليس بثابت[1]. وسنعرف بعد ذلك أنهم من الجن الذين يسكنون الجبال.

وقد نسج بعضهم روائع خيالية، تدور حول قدرة القطب، وأخذه العهد على الكون، وأن الرحى لا تدور بدون قطبها، وأن موته قد ينتج عنه اختلال أحوال الديار[2]؛لأنه كان مدد الخلائق في رزقهم[3]. وهذا كفر باتفاق.

***

---

[1] الفرقان، ص ١٣ - ١٤

[2] د. توفيق الطويل: التصوف في مصر إبان العصر العثماني، ص ١٢٨

[3] د. عبد الرحمن بدوي: تاريخ التصوف الإسلامي، ص ٧٦ – ٧٧

وليس صحيحا ما يردد في المحيط الصوفي، وفي ميدان الولاية، من أن النبي ﷺ، تواجد حتى سقطت البردة عن منكبه، فإنه كذب باتفاق أهل العلم بالحديث.

وأشد كذبا منه ما يرويه بعضهم من: "أنه مزق ثوبه، وأن جبريل أخذ قطعة منه فعلقها على العرش" وهو من أظهر الأحاديث كذبا عليه ﷺ.

ومثله ما يروونه عن عمر رضي الله عنه أنه قال: "كان النبي ﷺ وأبو بكر يتحدثان وكنت بينهما كالزنجي" وهو كذب موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث[1].

ولا يكتمل إيمان امرئ، ما لم يؤمن بأن محمدا ﷺ، خاتم النبيين، لا نبي بعده، وأن الله أرسله إلى جميع الثقلين الجن والإنس، فكل من لم يؤمن بما جاء به، لا يكون مؤمنًا، فضلاً عن أن يكون من أولياء الله المتقين. وكذلك فإن من آمن ببعض ما جاء به فهو كافر ليس بمؤمن:

"فمَن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقًا إلى الله، من غير متابعة محمد ﷺ؛ فهو كافر من أولياء الشيطان[1]".

---

[1] الفرقان، ص ١٤ - ١٥

ولو بلغ إنسان ما، في العلم والعبادة والزهد، ما بلغ، ولم يؤمن بجميع ما جاء به محمد ﷺ، فليس بمؤمن، ولا ولي لله تعالى، مثل الأحبار والرهبان من علماء اليهود والنصارى وعبادهم، والمشركين من العرب والترك والهند وغيرهم، ممن كان له علم وزهد وعبادة في دينه، وليس مؤمنًا بما جاء به محمد ﷺ:

"فهو كافر عدو لله، وإن ظن طائفة أنه ولي لله، كما كان حكماء الفرس من المجوس كفارا مجوسا"[(2)].

وهؤلاء قد تقترن الشياطين بحكمائهم، وتتنزل عليهم، فيكاشفون الناس ببعض الأمور، ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر، وهم من جنس الكهان والسحرة الذين تتنزل عليهم الشياطين. قال تعالى:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم عَلَى مَن تَنَزلُ الشيَاطِينُ. تَنَزلُ عَلَى كُل أَفاكٍ أَثِيمٍ. يُلْقُونَ السمعَ وَأَكْثَرُهُم كَاذِبُونَ﴾

(الشعراء: ٢٢١ – ٢٢٣)

---

(1) الفرقان، ص ١٦ – ١٧

(2) نفس المصدر، ص ١٧

والصوفية أو الأولياء الذين ينتسبون إلى "المكاشفات" وخوارق العادات، إذا لم يكونوا متبعين للرسل، فلا بد أن يقعوا في الكذب وتكذبهم شياطينهم. ولا بد كذلك أن يكون في أعمالهم ما هو إثم وفجور، مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلو أو البدع في العبادة؛ ولذا تتنزلت عليهم الشياطين، واقترنت بهم، فصاروا من "أولياء الشيطان"، لا من "أولياء الرحمن".

قال الله عز وجل:

﴿وَمَن يَعشُ عَن ذِكْرِ الرحمَن نُقَيض لهُ شَيطَانًا فَهُوَ لهُ قَرين﴾

(الزخرف: ٣٦)

وذكر الرحمن هو الذكر الذي بعث به رسوله محمدا ﷺ، مثل القرآن. فمن لم يصدق بالقرآن ويعتقد وجوب أمره، فقد أعرض عنه، فيقيض له الشيطان فيقترن به.

قال عز من قائل:

﴿وَمَن أَعرَضَ عَن ذِكْري فَإن لهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحشُرُهُ يَومَ الْقِيَامَةِ أَعمَى. قَالَ رَب لِمَ حَشَرتَنِي أَعمَى وَقَد كُنتُ بَصِيرا. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَومَ تُنْسَى﴾

(طه: ١٢٤ – ١٢٦)

وقد دلت الآيات الكريمة على أن ذكره، هو آياته التي أنزلها. ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، موضحا أن الولاية لا تبعد عن القرآن:

"لو ذكر الرجل، الله سبحانه وتعالى دائما، ليلاً ونهارا، مع غاية الزهد، وعبده مجتهدا في عبادته، ولم يكن متبعا لذكره الذي أنزله – وهو القرآن – كان من أولياء الشيطان، ولو طار في الهواء أو مشى على الماء، فإن الشيطان يحمله في الهواء [1]".

وقد ثبت في عصرنا هذا، أن الملكات الجسدية - فضلاً عن الملكات العقلية والروحية – قابلة للنمو والمضاعفة إلى الحد الذي لا يخطر لنا على بال، ولا نصدقه إلا إذا شاهدناه. فقد تدرب رجل أكتع (وهو من رجعت أصابعه إلى كفه) على أن يصنع بالقدم كل ما يمكن صنعه باليدين، أو ما تعجز عنه اليدان[2]. دون ارتباط ذلك بتدين

---

[1] الفرقان، ص ١٩

[2] العقاد: الفلسفة القرآنية ، ص ١٧٧

أو كرامة.

وفي ميدان الولاية، فإن إيمان العبد وتقواه هما اللذان يحددان درجة ولايته لله تعالى، فمن كان أكمل إيمانًا وتقوى، كان أكمل ولاية لله، فالولاية على هذا فيها تفاضل بين المؤمنين، ويقال مثل هذا في عداوة الله، لقوله عز وجل:

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَن يَقُولُ أَيُّكُم زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَما الذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُم إِيمَانًا وَهُم يَستَبشِرُونَ. وَأَما الذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَض فَزَادَتْهُم رِجسا إِلَى رِجسِهِم وَمَاتُوا وَهُم كَافِرُونَ﴾

(التوبة: ١٢٤ – ١٢٥)

فقد يكون في شخص قسط من ولاية الله بحسب إيمانه، وقد يكون فيه قسط من عداوة الله بحسب كفره ونفاقه.

***

وأولياء الله على طبقتين:

سابقون مقربون، وأصحاب يمين مقتصدون. ففي أول سورة الواقعة، جاء ذكر المقربين في قوله عز وجل:

﴿وَالسابِقُونَ السابِقُونَ.أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَاتِ النعِيمِ﴾

(الواقعة: ١٠ – ١٢)

وجاء ذكر أصحاب اليمين في آخر السورة عند ذكر الموت:

﴿وَأَما إِن كَانَ مِن أَصحَابِ الْيَمِين. فَسَلاَم لكَ مِن أَصحَابِ الْيَمِين﴾

(الواقعة: ٩٠ – ٩١)

وورد هذان أيضا في سورة الإنسان، والمطففين، وفاطر.

والأبرار أصحاب اليمين: هم المتقربون إليه بالفرائض، يفعلون ما أوجب الله عليهم، ويتركون ما حرم الله عليهم، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات، ولا الكف عن فضول المباحات.

أما السابقون المقربون: فهم الذين تقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض، ففعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات. فلما بذلوا كل وسعهم فتقربوا إليه سبحانه بكل ما يقدرون عليه من محبوباتهم أحبهم ربهم حبا تاما، كما ورد في الحديث القدسي: "ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه" أي الحب المطلق. فقد صارت المباحات في حقهم طاعات، يتقربون بها إلى الله عز وجل، فكانت

أعمالهم كلها عبادات لله[1]. ولهذا كانوا أفضل من أصحاب اليمين.

***

إن من علم من أمة محمد ﷺ بما جاء به، وآمن به إيمانًا مفصلاً، وعمل به، فهو أكمل إيمانًا وولاية لله، ممن لم يعلم ذلك مفصلاً ولم يعمل به، وكلاهما ولي لله تعالى.

ومن هنا يكون التفاضل في نعيم لآخرة، فالجنة درجات متفاضلة تفاضلاً عظيما. وإن أولياء الله المؤمنين المتقين في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم. قال تعالى:

﴿وَمَن أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِن فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مشْكُورا. كُلاًّ نمِد هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِن عَطَاءِ رَبكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبكَ مَحظُورا. انْظُر كَيفَ فَضلْنَا بَعضَهُم عَلَى بَعض وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾

(الإسراء: ١٩ – ٢١)

وتشير الآيات إلى أن أهل الآخرة متفاضلون فيها، أكثر مما يتفاضل الناس في الدنيا، وأن درجاتها أكبر من درجات

---

[1] الفرقان، ص ٢٥ – ٢٦

الدنيا، فمن يتقرب إلى الله تعالى، لا بفعل الحسنات، ولا بترك السيئات، لم يكن من أولياء الله تعالى:

وإن "**المجنون**" لا يصح له فعل من عبادة أو معاملات، بل لا يصح منه إيمان ولا كفر، ولا يستطيع أن يتقرب إلى الله تعالى بالفرائض والنوافل؛ ولهذا امتنع أن يكون وليا لله، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولي الله، مهما رأى له من مكاشفات أو تأثيرات كأن يشير إلى شخص فيموت أو يصرع؛ لأن الكفار والمنافقين لهم أيضا مكاشفات شيطانية، كالكهان والسحرة وعباد المشركين وأهل الكتاب. ويلاحظ أن المجنون قد يصدر منه ما ينافي الاعتقاد وصحة العبادات.

فلا بد – قبل تسمية الأمر كرامة أو ولاية – أن نتأكد من أن هذا الذي صدرت منه يعتقد وجوب اتباع محمد ﷺ باطنًا وظاهرا، ويتبع الشرع عموما ظاهرا وباطنًا[1].

---

(1) قارن د. توفيق الطويل: التصوف في مصر، ص ١٥٥ حيث يذكر أن ادعاء سقوط التكاليف عن الولي، كان من عوامل انتشار التصوف في مصر إبان العصر العثماني.

ويذهب بعض من يدعي الولاية، إلى أن الأنبياء ضيقوا الطريق، أو هم على قدوة العامة دون الخاصة. فهؤلاء فيهم من الكفر ما يناقض الإيمان، فضلاً عن ولايتهم لله عز وجل. ومن اعتقد ولايتهم صار مثلهم[1].

***

وإن ولي الله حقًا، ليس له شيء يتميز به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات. فلا يتميز بملابس معينة إذا كان سواها مباحا، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ضفره إذا كان مباحا. فقد قيل:

"كم من صديق في قباء، وكم من زنديق في عباء".

فالأولياء حقًا يوجدون في كل أصناف أمة محمد ﷺ: في أهل القرآن وأهل العلم وأهل الجهاد وأهل التجارة والصناعة والزراعة. وفي كتاب الله العزيز إشارة إلى ذلك:

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مرضَى وَآخَرُونَ يَضرِبُونَ فِي الأرضِ يَبتَغُونَ مِن فَضلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيسرَ مِنْهُ﴾ (المزمل: ٢٠)

---

[1] الفرقان، ص ٣٧ – ٣٨

"والعصمة" ليست شرطًا لولاية الله تعالى[1]، بل يجوز على الولي أن يخفى عليه بعض علم الشريعة، ويجوز أن تشتبه عليه بعض أمور الدين، حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به، ومما نهى الله عنه.

كذلك يجوز أن يظن في بعض الخوارق، أنها كرامات أولياء الله تعالى، وتكون من الشيطان لبسها عليه لنقص درجته[2]، ولا يعرف أنها من الشيطان، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى، فقد تجاوز الحق سبحانه وتعالى لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما أُستُكرِهوا عليه.

قال الله تعالى:

﴿وَلَيسَ عَلَيكُم جُنَاح فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن ما تَعَمدَتْ قُلُوبُكُم﴾ (الأحزاب: ٥)

وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ، من حديث أبي هريرة وعمرو بن العاص، رضي الله تعالى عنهما مرفوعا أنه قال:

---

[1] الفرقان، ص ٤٦، وما بعدها

[2] قارن د. عبد الرحمن بدوي : تاريخ التصوف الإسلامي، ص ٧٥

"إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر" فلم يؤثم المجتهد المخطئ، بل جعل له أجرا على اجتهاده، وجعل خطأه مغفورا له، ولكن المجتهد المصيب له أجران؛ فهو أفضل منه.

وحيث جاز الغلط على ولي الله، فلم يجب على الناس الإيمان. بجميع ما يقوله من هو ولي لله، لئلا يكون نبيا، بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يلقى إليه في قلبه، إلا أن يكون موافقًا للشرع، وعلى ما يقع له مما يراه إلهاما ومحادثة وخطابا من الحق، فمن واجبه هنا أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ، فإن وافقه قبله، وإن خالفه لم يقبله، وإن لم يعلم الموافقة والمخالفة توقف في الحكم.

والناس في هذه المسألة على ثلاثة أصناف:

١- منهم من إذا اعتقد في شخص أنه ولي لله وافقه في كل ما يظن أنه حدث به قلبه عن ربه، وسلم إليه جميع ما يفعله.

٢- ومنهم من إذا رأى الولي قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع، أخرجه عن ولاية الله بالكلية، وإن كان مجتهدا مخطئًا.

٣- ومنهم المتوسط المتعقل في رأيه، وهو ألا يجعل معصوما ولا مأثوما إذا كان مجتهدا مخطئًا، فلا يتبعه في كل ما يقوله، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده.

والميزان هنا هو اتباع ما بعث الله به رسوله، وأما إذا خالف قول بعض الفقهاء، ووافق آخرين، لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف، ويقول إنه خالف الشرع.

وقد ثبتت الولاية بالفعل في هذه الأمة الإسلامية. فقد جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال:

"قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي أحد، فعمر منهم".

وروى الترمذي وغيره عن النبي ﷺ، أنه قال:

"لو لم أُبعَثْ فيكم لبُعِثَ عمر"

وفي حديث آخر:

"إن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه (وفيه) لو كان نبي بعدي لكان عمر".

وعن قيس بن طارق قال: كنا نتحدث أن عمر ينطق على لسانه ملك. وكان عمر يقول: اقتربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا منهم ما يقولون فإنه تتجلى لهم أمور صادقة.

وهذه الأمور هي التي يكشفها الله عز وجل لهم:

"فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات. فأفضل هؤلاء في هذه الأمة بعد أبي بكر: عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فإن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر[1]".

وقد ثبت في الصحيح تعيين عمر، بأنه محدث في هذه الأمة الإسلامية، فأي محدث ومخاطب فرض في أمة محمد ﷺ، فعمر أفضل منه. ومع ذلك فكان عمر يعرض ما يقع له على شريعة الرسول ﷺ، فتارة يوافقه فيكون ذلك من فضائل عمر، كما نزل القرآن بموافقته غير مرة، وتارة يخالفه فيرجع عمر عن ذلك، كما رجع يوم الحديبية لما كان قد رأى محاربة المشركين، كما ورد في البخاري.

ومع هذا فإن مرتبة "الصديق" – بتشديد الدال – فوق مرتبة المحدث – بدال مفتوحة مشددة – ولهذا فإن أبا بكر متقدم

[1] الفرقان، ص ٤٩

على عمر؛ لأن الصديق يتلقى عن الرسول المعصوم لكل ما يقوله ويفعله، والمحدث يأخذ عن قلبه أشياء، وقلبه ليس بمعصوم، فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبي ﷺ.

ومن هنا كان عمر ﷺ، يشاور الصحابة ﷺ، ويناظرهم ويرجع إليهم في بعض الأمور، وينازعونه في أشياء فيحتج عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسنة، ويقرهم على منازعته، ولا يقول لهم: أنا محدث ملهم مخاطب فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تعارضوني.

وعليه فمن المرفوض شرعا، أن يدعي أحد أو يدعى له، أنه ولي الله، وأنه مخاطب يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله ولا يعارضوه، ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة، فهو وهم مخطئون، ومثله من أضل الناس:

"وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله ﷺ [1]".

فالفرق بين النبي والولي، أن النبي يجب التسليم والإيمان بجميع ما أخبر به عن الله عز وجل، وتجب طاعته فيما أمر به.

---

[1] الفرقان، ص ٥١

أما الولي فلا تجب طاعته في كل ما يأمر به، ولا الإيمان بجميع ما يخبر به، بل يجب عرض أمره وخبره على الكتاب والسنة، فما وافقهما وجب قبوله، وما خالفهما كان مردودا، وإن كان صاحبه وليا لله. مع قبول عذره في خطأ الاجتهاد. لكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان مخطئًا قطعا، والخلاصة كما يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى:

"أن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة، وأنه ليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه، من غير اعتبار بالكتاب والسنة، هو مما اتفق عليه أولياء الله عز وجل. ومن خالف في هذا فليس من أولياء الله سبحانه، الذين أمر الله باتباعهم، بل إما أن يكون كافرا، وإما أن يكون مُفْرطًا في الجهل[1]".

وابن تيمية لا يعارض الانتساب إلى مشايخ الصوفية مثل "القادري"، ولكنه يمنع الاستغاثة بهم أو بأي مخلوق[2].

---

(1) الفرقان: ص ٥٣

(2) انظر د. الطبلاوي محمود سعد: التصوف في تراث ابـن تيميـة، ص ٢٣٦، طبع ١٩٨٤م، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة.

وكان كبار مشايخ الولاية يصرخون باعتصامهم بالكتاب والسنة.

كقول أبي سليمان الداراني: إنه ليقع في قلبي النكتة من نكت القوم؛ فلا أقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة.

ومثله قول الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم في علمنا، أو قال: لا يقتدى به.

وقال أبو عثمان النيسابوري: من أمر – بالتشديد – السنة على نفسه قولاً وفعلاً، نطق بالحكمة. ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة؛ لأن الله تعالى يقول في كلامه:

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾

(النور: ٥٤)

وقال أبو عمرو بن نجيد: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل.

وقد يظن كثير من الناس في شخصي أنه ولي لله، فيقبلون منه كل ما يقوله وما يفعله. وكان الواجب أن يعرفوا مدى مطابقة ذلك للشرع من عدمها. ومن هنا يقع الجمهور

في البدعة والضلال. فقد حرموا الوصول بتضييع الأصول. فإن أصل الأصول هو تحقيق الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ.

هذا وإن كل من خالف شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ، مقلدا في ذلك لمن يظن أنه ولي الله، فإنه بنى أمره على أنه ولي الله، وأن ولي الله، لا يخالف في شيء ولو كان هذا الإنسان من أكبر أولياء الله، مثل أكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان – لم يقبل منه أي قول أو فعل يخالف الكتاب والسنة حتى ولو كان خارقًا للعادة:

"بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم، التي دل عليها الكتاب والسنة، ويعرفون بنور الإيمان والقرآن، وبحقائق الإيمان الباطنة وشرائع الإسلام الظاهرة[(1)]".

وقد توجد بعض خوارق العادات، مثل المشي على الماء، وملء إبريق من الهواء، مع أن صاحبها لا يتوضأ، ولا يصلي الصلوات المفروضة، بل قد يكون كذلك ملابسا للنجاسات، لا يتطهر الطهارة الشرعية، ولا يتنظف.

---

(1) الفرقان، ص ٥٧

وقد ورد في الشرع الحث على النظافة والتطهر في مثل قوله تعالى:

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾

(الأعراف: ١٥٧)

وقول النبي ﷺ:

"إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا"، "إن الله نظيف يحب النظافة".

فإذا باشر شخص ما، النجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان، أو يأوي إلى الأخلية التي تحضرها الشياطين، أو يأكل الحيات والعقارب، أو يدعو غير الله تعالى، فيستغيث بالمخلوقات، ويتوجه إليها، أو يسجد إلى ناحية شيخه، ولا يخلص الدين لله، أو يلابس الكلاب أو النيران، أو يأوي إلى المزابل والمواضع النجسة، أو يأوي إلى المقابر، ولاسيما مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين، أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار، أو يؤثر سماع مزامير الشيطان على سماع كلام الرحمن – دل كل هذا على أنه من أولياء الشيطان، وليس من أولياء الرحمن.

قال عثمان ﷺ: لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله عز وجل.

وقال ابن مسعود ﷺ: لا يسأل أحدكم نفسه إلا عن القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله ورسوله.

وقال كذلك: الذكر ينبت الإيمان في القلب، كما ينبت الماء البقل، والغناء ينبت النفاق في القلب، كما ينبت الماء البقل[1].

إن الإنسان إذا كان خبيرا بحقائق الإيمان الباطنة، مميزا بين الأحوال الرحمانية والأحوال الشيطانية، فيكون قد قذف الله في قلبه من نوره، كما يدل عليه قوله تعالى:

﴿يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا اتقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُم كِفْلَين مِن رحمَتِهِ وَيَجعَل لكُم نُورا تَمشُونَ بِهِ وَيَغْفِر لكُم وَاللهُ غَفُور رحِيم﴾

(الحديد: ٢٨)

وكما في الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدريﷺ عن النبي ﷺ أنه قال:

---

[1] الفرقان، ص ٥٩

"اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله".

قال الترمذي: حديث حسن

فلا ولاية بدون تحقيق الغاية المقصودة من الدين، أي تحقيق حقيقة الدين، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وذلك بأن يستسلم العبد لله رب العالمين، لا يستسلم لغيره، فمن استسلم لغيره كان مشركًا:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

(غافر: ٦٠)

ومن المتفق عليه لدى سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله تعالى، أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء. ذلك أن الله تعالى قد رتب عباده السعداء المنعم عليهم: أربع مراتب، فقال عز وجل:

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾

(النساء: ٦٩)

الأحوال الشيطانية:

إن أهل الأحوال الشيطانية، غافلون عن حقيقة هامة وهي أن أفضل الأمم: أمة محمد ﷺ، لقوله تعالى:

﴿كُنْتُم خَيرَ أُمةٍ أُخْرِجَتْ لِلناس﴾

(آل عمران: ١١٠)

وقوله سبحانه:

﴿ثُم أَورَثْنَا الْكِتَابَ الذِينَ اصطَفَينَا مِن عِبَادِنَا﴾

(فاطر: ٣٢)

وقد اتفقت طوائف الأمة، على أن أفضل هذه الأمة بعد النبي ﷺ، الخلفاء الأربعة، وأنه لا يكون من بعد الصحابة أفضل من الصحابة، وأن أفضل أولياء الله تعالى أعظمهم معرفة بما جاء به الرسول ﷺ، وأكثرهم اتباعا، كالصحابة الذين هم أكمل هذه الأمة في معرفة الإسلام واتباعه.

وأن أبا بكر الصديق أكمل معرفة وعملاً بما جاء به النبي ﷺ؛ فهو لهذا أفضل أولياء الله، إذ كانت أمة محمد ﷺ أفضل الأمم، وأفضلها أصحاب محمد ﷺ، وأفضلهم أبو بكر رضي الله عنه.

ومن هنا يتبين خطأ من ذهب إلى أن "**خاتم الأولياء**" أفضل الأولياء، قياسا على "**خاتم الأنبياء**" وقد وقع في هذا الغلط الشنيع محمد بن علي الحكيم الترمذي المتوفى نحو ٣٢٠ هـ في كتابه "ختم الولاية وعلل الشريعة" هذا بالرغم من أن الحكيم الترمذي يرى أن الله تعالى قد اختص الآدمي دون سائر المخلوقات، بفضل الولاية[1].

ولم يقف الأمر عند هذا الحكيم، بل صارت طائفة من المتأخرين كل منهم يزعم أنه هو "**خاتم الأولياء**"، كما حدث من ابن عربي في الفتوحات والفصوص[2].

إن الولي حقًا هو الذي يستفيد معرفة الله، مما جاء به النبي ﷺ، لا من خاتم الأولياء، فليس آخر الأولياء أفضلهم، لكن آخر الأنبياء أفضلهم، كما ثبت بالنصوص قوله ﷺ "**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**".

وإن كل من بلغه رسالة محمد ﷺ، لا يكون وليا لله إلا باتباع ما جاء به من الله تعالى، وكل ما حصل له من

---

[1] د. عبد الفتاح بركة: الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية، ٢: ٦٧، طبع ١٩٧١م، مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة.

[2] الفرقان، ص ٦٥ - ٦٦

الهدى ودين الحق، هو بواسطة هذه الرسالة الشريفة.

فإذا وجدنا من الأولياء من يدعي أن له طريقًا إلى الله تعالى لا يحتاج فيه إلى رسالة محمد ﷺ، بعد أن بلغته، فهو ملحد كافر.

ومثله من يرى أنه محتاج إلى رسالة محمد ﷺ، في أمور الظاهر لا أمور الباطن، أو علم الشريعة دون علم الحقيقة. وكل هؤلاء شر من اليهود والنصارى؛ لأنه يؤمن ببعض الرسالة ويكفر ببعضها الآخر.

إن هؤلاء الملاحدة يدعون أن "الولاية" أفضل من "النبوة"[1].

ويلبسون على الناس حين يدعون أن ولايته أفضل من نبوته، وأنهم شاركوه في ولايته التي هي أعظم من رسالته. وهذا من أكبر ضلالهم؛ لأن ولايته ﷺ، لم يماثله فيها أحد، لا إبراهيم ولا موسى، فضلاً أن يماثله هؤلاء الملاحدة:

---

[1] فعلاً يرى ابن عربي أن الولي فوق النبي والرسول، لكن ذلك يكون في شخص واحد. وقد خطأه ابن تيمية فيما بعد. انظـر فصـوص الحكم، ص ١٣٥

"وكل رسول نبي ولي، فالرسول نبي ولي. ورسالته متضمنة لنبوته، ونبوته متضمنة لولايته. وإذا قدروا مجرد إنباء الله إياه بدون ولايته لله، فهذا تقدير ممتنع، فإنه حال إنبائه إياه ممتنع أن يكون إلا وليا لله، ولا تكون مجردة عن ولايته. ولو قُدرت مجردة لم يكن أحد مماثلاً للرسولﷺ في ولايته"[1].

ولا صحة لما يدعيه بعض هؤلاء، من أنهم يأخذون من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به للرسول، فقد اعتقدوا عقيدة المتفلسفة، ثم أخرجوها في قالب المكاشفة، حيث أثبتوا عقولاً عشرة يسمونها المجردات أو المفارقات. وقد ثبت عند التحقيق أنها أمور موجودة في الأذهان لا في الأعيان، وهم كذلك يظنون أنها ملائكة.

غير أن الملائكة ليست عقولاً كما تصوروا، فقد أخبرت بهم الرسل على أنهم أحياء ناطقون، وأنهم أعظم مخلوقات الله، وأنهم كثيرون، وليسوا كثرة، وليسوا أعراضا:

﴿وَمَا يَعلَمُ جُنُودَ رَبكَ إِلا هُوَ﴾ (المدثر: ٣١)

---

[1] الفرقان، ص ٦٨

وهؤلاء المتفلسفة، قد يجعلون "جبريل" هو الخيال الذي يتشكل في نفس النبي ﷺ، والخيال تابع للعقل. وقد جاء الملاحدة الذين أخذوا بهذا الكلام فزعموا أنهم "أولياء الله"، وأن أولياء الله أفضل من أنبياء الله، وأنهم يأخذون عن الله بلا واسطة. ويقول ابن تيمية في هذا:

"إن ابن عربي ومثاله، وإن أدعوا أنهم من الصوفية، فهم من صوفية الملاحدة الفلاسفة، ليسوا من صوفية أهل العلم، فضلاً عن أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسنة: كالفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والجنيد ابن محمد، وسهل بن عبد الله التستري وأمثالهم – رضوان الله عليهم أجمعين[1]".

ونلاحظ هنا أن ابن تيمية لا يسوق الصوفية كلهم سوقًا واحدا، بل أنه يميز بين المواقف الباطلة والمواقف الحقة. فإنه كما انتقد ابن عربي، أشاد بالفضيل ومن بعده لحسن مواقفهم.

---

[1] الفرقان، ص ٧٤

وليس من أولياء الله تعالى، من زعم أن فرعون هو الله، ليصحح قوله ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الأعلَى**﴾، ومن زعم أن أهل النار يتنعمون كما يتنعم أهل الجنة، فهذه أقوال شيطانية وإن ادعوا أنهم خلاصة خاصة من أهل ولاية الله.

إن هؤلاء تأتيهم أرواح تخاطبهم وتتمثل لهم، وهي في الحقيقة جن وشياطين، فيظنونها ملائكة، كالأرواح التي تخاطب من يعبد الكواكب والأصنام.

وأول شخص ظهر من هؤلاء في الإسلام: "المختار بن أبي عبيد" الذي أخبر به النبي ﷺ، في الحديث الصحيح، الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال:

"سيكون في ثقيف كذاب ومبير".

وكان الكذاب: المختار بن أبي عبيد والمبير: الحجاج بن يوسف.

ويرى ابن تيمية أن هذه الأرواح الشيطانية، هي الروح الذي يزعم صاحب "الفتوحات" أنه ألقى إليه ذلك الكتاب؛ ولهذا يذكر هو أنواعا من الخلوات بطعام معين وشيء معين،

وهذه مما تفتح لصاحبها اتصالاً بالجن والشياطين، فيظنون ذلك من كرامات الأولياء، وإنما هو من الأحوال الشيطانية.

ويعرف ابن تيمية عددا من هؤلاء، فقد كان منهم من كان يحمل في الهواء إلى مكان بعيد ويعود، ومنهم من كان يؤتى بمال مسروق تسرقه الشياطين وتأتيه به، ومنهم من كانت تدله على السرقات بجعل يحصل له من الناس، أو بعطاء يعطونه إذا دلهم على سرقاتهم ونحو ذلك.

وهذه الأحوال الشيطانية، هي التي جعلت هؤلاء القوم يناقضون للرسل صلوات الله وسلامه عليهم. فهم يمدحون الكفار من أمثال قوم نوح وهود وفرعون وغيرهم، ويتنقصون الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وهارون، ويذمون شيوخ المسلمين المحمودين عند المسلمين كالجنيد بن محمد، وسهل التستري، ويمدحون المذمومين عند المسلمين، كالحلاج ونحوه. ويقول ابن تيمية عن مثال واحد محمود:

"فإن الجنيد – قدس الله روحه – كان من أئمة الهدى، فسُئِلَ عن التوحيد فقال: التوحيد إفراد الحدوث عن القدم. فبين أن التوحيد أن تميز بين القديم والمحدث، وبين الخالق

والمخلوق"[1].

وهذا يختلف كل الاختلاف عن موقف "التلمساني" الذي هو أحذق القوم في الاتحاد. فقد حكي أنه لما قرئ عليه فصوص الحكم لابن عربي فقيل له: القرآن يخالف فصوصكم، قال: القرآن كله شرك، وإنما التوحيد في كلامنا.

فقيل له: فإذا كان الوجود واحدا، فلم كانت الزوجة حلالاً والأخت حراما؟ فقال: الكل عندنا حلال، ولكن هؤلاء المحجوبون قال: حرام، فقلنا: حرام عليكم.

وهذا مع كفره، قد وقع في تناقض ظاهر، فإن الوجود إذا كان واحدا، فمن المحجوب ومن الحاجب؟

ولهذا قال بعض شيوخهم لأحد مريديه: من قال اك: إن في الكون سوى الله فقد كذب. فقال له مريده: فمن هو الذي يكذب[2]؟

وسئِلَ أبو يزيد عن اللوح المحفوظ، فقال: "أنا اللوح المحفوظ"[1].

---

(1) الفرقان، ص ٨٠

(2) الفرقان: ص ٨١ - ٨٢

وقد كذب هؤلاء حين ادعوا أنه قد ثبت في الكشف عندهم، ما يناقض صريح العقل، كما يرون – خطأ – أن من أراد تحقيقهم فليترك العقل والشرع. ومن المعلوم أن كشف الأنبياء، أعظم من كشف غيرهم، ومع هذا فلم يتعارض كشفهم مع صريح الشرع والعقل.

ونود أن نشير هنا إلى أن هذه الأقوال وما يماثله نابعة من حالة الوجد أو الفناء لدى هؤلاء الصوفية، وهي حالات طارئة عارضة، وعندما يعود صاحبها إلى نفسه ربما أنكر ما بدر منه، إذا كان مخالفًا للشريعة[2].

***

ونعرض هنا نماذج من الأحوال الشيطانية[3]، من باب الاعتبار؛ حتى لا يسلك المسلم هذا الطريق.

فقد كان رجل يسمى "عبد الله بن صياد"، وقد ظهر في زمن النبي ﷺ، وكان قد ظن بعض الصحابة أنه الدجال،

---

(1) تلبيس إبليس، ص ٣٥٥

(2) د. الطبلاوي: التصوف في تراث ابن تيمية، ص ٩٢

(3) الفرقان، ص ١٢١ وما بعدها.

وتوقف النبي ﷺ في أمره، حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال، لكنه كان من جنس الكهان.

وقال له النبي ﷺ، قد خبأت لك خبئًا، قال: الدخ الدخ. وقد كان خبأ له سورة الدخان، فقال له النبي ﷺ: "**اخسأ فلن تعدو قدرك**". يعني إنما أنت من أخوان الكهان.

ويكون للكاهن قرين من الشياطين، يخبره بكثير من المغيبات بما يسترقه من السمع، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب، كما ورد في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره، أن النبي ﷺ قال:

"**إن الملائكة تنزل في العنان – وهو السحاب – فتذكر الأمر قُضِي في السماء، فتسترق الشياطين السمع؛ فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم**".

وكل هذا راجع إلى الجهالة، والبعد عن شريعة الله عز وجل[1].

---

[1] تلبيس إبليس، ص ٣٧٨، وانظر ٣٦٩ – ٣٧٠، حيث يرى ابن الجوزي أن قوما من الصوفية بالغوا في الرياضة؛ فوقعوا في الشبهات، وظنوا وصولهم إلى المقصود؛ فتركوا التكاليف.

والأسود العنسي الذي ادعى النبوة، وكان له من الشياطين من يخبره بالمغيبات، ويعينه على بعض الأمور.

ومثله الحارث الدمشقي الكذاب [1] الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان وادعى النبوة، وكانت الشياطين يخرجون رجليه من القيد، وتمنع السلاح أن ينفذ فيه، وتسبح الرخامة إذا مسحها بيده. وكان يري الناس رجالاً وركبانًا على خيل في الهواء، ويقول: هي الملائكة. والحقيقة أنها الجن. ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه، فقال له عبد الملك: إنك لم تسمِ الله. فسمى الله فطعنه فقتله.

وإن أهل الأحوال الشيطانية، تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذُكِر عندهم ما يطردها مثل "آية الكرسي". مثل من يدخل النار بحال شيطاني، أو يحضر سماع المكاء والتصدية فتنزل عليه الشياطين وتتكلم على لسانه كلاما لا يعلَم وربما لا يفْقَه. وربما تكلم بألسنة مختلفة كما يتكلم الجني على لسان المصروع. والإنسان الذي حصل له الحال لا يدري بذلك،

---

[1] تلبيس إبليس، ٣٧٩

بمنزلة المصروع الذي يتخبطه الشيطان من المس، ولبسه، وتكلم على لسان، فإذا أفاق لم يشعر بشيء مما قال؛ ولهذا قد يضرب المصروع، وذلك الضرب لا يؤثر في الإنسي، ويخبر إذا أفاق أنه لم يشعر بشيء؛ لأن الضرب كان على الجن الذي لبسه.

ويذكر أن رجلاً مجذوبا في مصر اسمه علي البكري (١٢٠٧هـ) كان يسير عاريا في الأسواق ويهذي بكلام، فيؤوله الناس بما يتفق مع أغراضهم. وتبعته امرأة كانت تصعد على درج عالٍ وتفحش في القول؛ فيزداد إيمان الكثيرين بها، ويقبلون يدها تيمنًا ببركتها، وقد تبعهما آخرون. ثم قبض الوالي على الجميع وضربهم حتى أطار الولاية من رءوسهم. ولما ماتت المرأة عملوا لها الموالد[1].

وقد يأتي الشيطان لأحدهم بأطعمة وفواكه وحلوى، وغير ذلك، مما لا يكون في ذلك الموضع. وهذا كله "**استدراج**" لأهل الضلال؛ وهم بذلك يزدادون بعدا من ربهم عز وجل[2].

---

(1) د. توفيق الطويل: التصوف في مصر، ص ١٣٢

(2) النبهاني جامع كرامات الأولياء، ١: ٢٤

ومنهم من يطير به الجني إلى مكة أو بيت المقدس أو غيرهما، ومنهم من يحمله عشية "عرفة" ثم يعيده من ليلته فلا يحج حجا شرعيا، بل يذهب بثيابه، ولا يحرم إذا حاذى الميقات، ولا يلبي، ولا يقف "بمزدلفة"، ولا يطوف بالبيت، ولا يسعى بين الصفا والمروة، ولا يرمي الجمار، بل يقف بعرفة بثيابه، ثم يرجع من ليلته؛ وهذا لا يكون حجا شرعيا.

وإذا كانت كرامات الأولياء سببها الإيمان والتقوى، فإن الأحوال الشيطانية سببها ما نهى الله عنه ورسوله. قال عز وجل:

﴿قُلْ إِنمَا حَرمَ رَبيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيرِ الْحَق وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَم يُنَزلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعلَمُونَ﴾

(الأعراف: ٣٣)

ويفهم من الآية الكريمة، أن القول على الله تعالى بغير علم، والشرك والظلم والفواحش، قد حرمها الله تعالى ورسوله؛ فلا تكون سببا لكرامة الله تعالى بالكرامات عليها.

ومن هؤلاء من يتصور له الشيطان، ويقول له: أنا الخضر مع أن الخضر قد مات. وربما أخبره ببعض الأمور،

وأعانه على بعض مطالبه، كما قد جرى ذلك لغير واحد من المسلمين واليهود والنصارى، وكثير من الكفار بأرض المشرق والمغرب. يموت لهم الميت، فيأتي الشيطان بعد موته على صورته، وهم يعتقدون أنه ذلك الميت، ويقضي الديون، ويرد الودائع، ويفعل أشياء تتعلق بالميت، ويدخل على زوجته ويذهب. وربما يكونون قد أحرقوا ميتهم بالنار، كما تصنع كفار الهند، فيظنون أنه عاش بعد موته.

وقد أوصى شيخ بمصر خادمه فقال: إذا أنا مت فلا تدع أحدا يغسلني، فأنا أجيء وأغسل نفسي. فلما مات رأى خادمه شخصا في صورته، فاعتقد أنه هو دخل وغسل نفسه، فلما قضى ذلك الداخل غسله – أي غسل الميت – غاب، وكان ذلك شيطانًا، وكان قد أضل الميت، وقال: إنك بعد الموت تجيء فتغسل نفسك، فلما مات جاء أيضا في صورته؛ ليغوي الأحياء كما أغوى الميت قبل ذلك.

ومن هؤلاء من يرى عرشًا في الهواء وفوقه نور، ويسمع من يخاطبه ويقول: أنا ربك. فإن كان من أهل المعرفة، علم أنه شيطان فزجره واستعاذ بالله منه فيزول.

وهناك من يرى أشخاصا في اليقظة، يدعي أحدهم أنه نبي، أو صديق أو شيخ من الصالحين.

وقد يرى بعضهم في منامه، أن بعض الأكابر: إما "الصديق" رضي الله عنه أو غيره، قد قص شعره أو حلقه أو ألبسه طاقيته أو ثوبه، فيصبح وعلى رأسه طاقية وشعره محلوق أو مقصر، وإنما الجن قد حلقوا شعره أو قصروه.

ويلاحظ أن هذه الأحوال الشيطانية، تحصل لمن خرج عن تعاليم الكتاب والسنة، وهم في ذلك درجات، كما أن الجن الذين يقتربون بهم درجات كذلك، وهم على مذهبهم.

أما المطيع لله ورسوله باطنًا وظاهرا، فلا يمكن لهؤلاء الدخول معه في ذلك، أو مسالمته؛ ولهذا لما كانت عبادة المسلمين المشروعة في المساجد التي هي بيوت الله، كان عمار المساجد أبعد عن الأحوال الشيطانية.

أما أهل الشرك والبدع، فإنهم يعظمون القبور ومشاهد الموتى، فيدعون الميت، أو يدعون به، أو يعتقدون أن الدعاء

عنده مستجاب. وكل هذا من الأحوال الشيطانية، وهي شرك[1].

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ، أنه قال:

"لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد".

وفي ذلك سد لباب الشرك، كما أنه سد للأحوال الشيطانية؛ ومن هنا أيضا نهى الإسلام عن الانقطاع في المغارات والبوادي، لأن الشياطين تأوي إليها.

ومن الشياطين من يظهر بصورة رجل متنسك، فيظن من لا يعرفه أنه إنسي وإنما هو جني.

ويقال في المحيط الصوفي إن الإبدال بكل جبل من الجبال المشهورة وعددها أربعون. وهؤلاء الذين يظن أنهم الإبدال، هم جن بهذه الجبال.

---

[1] محمد بن عبد الوهاب: كشف الشبهات، ص ٣١ – ٣٢، بتصحيح وتعليق: محمد حامد الفقي، ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م، مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة.

ويقول ابن الجوزي: "وقد لبس إبليس على قوم من المتأخرين، فوضعوا حكايات في كرامات الأولياء؛ ليشيدوا بزعمهم أمر القوم"[1].

كرامات الأولياء:

وكرامات أولياء الله تعالى، إنما حصلت ببركة اتباع رسوله ﷺ، فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول ﷺ، مثل: انشقاق القمر، وتسبيح الحصى في كفه، وإتيان الشجر إليه، وحنين الجذع إليه، وإخباره ليلة المعراج بصفة بيت المقدس، وإخباره بما كان وبما يكون، وإتيانه بالكتاب العزيز، وتكثير الطعام والشراب مرات عديدة، كما أشبع في الخندق العسكر من قدر طعام وهو لم ينقص، وذلك في حديث "أم سلمة" المشهور.

وكذلك أروى العسكر في غزوة خيبر من مزادة ماء ولم تنقص، وملأ أوعية العسكر عام تبوك من طعام قليل ولم ينقص، وهم نحو ثلاثين ألفًا، ونبع الماء من بين أصابعه مرات متعددة حتى كفى الناس الذين كانوا معه، كما كانوا

---

[1] تلبيس إبليس، ص ٣٨٤

في غزوة الحديبية نحو ألف وأربعمائة أو خمسمائة، ومثل رده لعين أبي قتادة حين سالت على خده فرجعت أحسن عينيه.

ولما أرسل محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الأشرف، فوقع وانكسرت رجله فمسحها فبرئت، وأطعم من شواء مائة وثلاثين رجلاً كلاً منهم حز له قطعة وجعل منها قطعتين فأكلوا منها جميعهم، ثم فضل فضلة.

وأشار ابن تيمية إلى أنه قد جمع من معجزات النبي ﷺ هذه، نحو ألف معجزة[1]. وقد ذكرنا أمثلة منها؛ لأنها أصل الكرامة ومنبع البركة.

ويجب أن يعلم أن ربط المسببات بأسبابها العادية، إنما هو لحكمة اقتضتها إرادة الله الأزلية، كوجود الري عند شرب الماء. كما يجب أن يعلم كذلك: أن لله خرق العوائد، فقد يوجد السبب ولا يوجد المسبب كجعل النار بردا وسلاما على

---

[1] الفرقان، ص ١١٤ – ١١٥، وقارن النبهاني: جامع كرامات الأولياء، ١: ٤١

إبراهيم عليه السلام[1].

فلا مجال إذن لإنكار الكرامة، بعد أن ثبت حصولها ببركة اتباع النبي ﷺ، وبعد أن تأكد دخولها في معجزاته ﷺ. وبالرغم من ثبوتها بالنص، فإنها تثبت أيضا بدلائل العقل؛ لأنها أمر يمكن حدوثه، ولا يؤدي إلى رفع أصل من أصول الدين، وهي أيضا أمر مقدور لله تعالى، وما كان مقدورا كان جائز الوقوع[2].

فمن الكرامات الثابتة أمثلة عديدة حصلت للصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين[3]. ونذكر طرفًا منها للعظة والعبرة وبيان بركة اتباع ﷺ.

- كان "**أسيد بن حضير**" يقرأ سورة الكهف، فنزل من السماء مثل الظلة، فيها أمثال السرج، وهي الملائكة نزلت لقراءته.

---

[1] محمود محمد خطاب السبكي: إتحـاف الكائنـات، ص ٢٤٣، ط٢، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م، القاهرة.

[2] النووي: بستان العارفين، ص ٥٩، ط١، ١٤٠٥ هـ ـ - ١٩٨٥م، دار الكتاب العربي.

[3] الفرقان، ص ١١٥، وما بعدها.

- كانت الملائكة تسلم على "**عمران بن حصين**".
- كان "**سلمان الفارسي**"، "**وأبو الدرداء**": يأكلان في صحفة، فسبحت الصحفة، أو سبح ما فيها.
- **و** "**عباد بن بشر**" **و** "**أسيد بن حضير**": خرجا من عند رسول الله ﷺ، في ليلة مظلمة، فأضاء لهما نور مثل طرف السوط، فلما افترقا افترق الضوء معهما. رواه البخاري وغيره[1].
- وقصة "**الصديق أبي بكر**" في الصحيحين، لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته، وجعل لا يأكل لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها، فشبعوا، وصارت أكثر مما هي من قبل، فنظر إليها أبو بكر وامرأته، فإذا هي أكثر مما كانت، فرفعها إلى رسول الله ﷺ، وجاء إليه أقوام كثيرون، فأكلوا منها وشبعوا.
- **و** "**خبيب بن عدي**" كان أسيرا عند المشركين بمكة – شرفها الله تعالى – وكان يؤتى بعنب فيأكله، وليس بمكة عنب.

---

[1] وانظر النبهاني: جامع كرامات الأولياء، ١: ١٤٧

- و "**عامر بن فهيرة**" قُتِلَ شهيدا، فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه، وكان لما قتل رفع، فرآه عامر بن الطفيل وقد رفع، وقال عروة: فيرون الملائكة رفعته.
- وخرجت "**أم أيمن**" مهاجرة، وليس معها زاد ولا ماء، فكادت تموت من العطش. فلما كان وقت الفطر، وكانت صائمة، سمعت حسا على رأسها فرفعته فإذا دلو معلق، فشربت منه حتى رويت، وما عطشت بقية عمرها.
- و"**سفينة**": مولى رسول الله ﷺ، أخبر الأسد بأنه رسول رسول الله ﷺ، فمشى معه الأسد حتى أوصله مقصده.
- و"**البراء بن مالك**": كان إذا أقسم على الله تعالى أبر قسمه، وكانت الحرب إذا اشتدت على المسلمين في الجهاد يقولون: يا براء! أقسم على ربك، فيقول: يا رب! أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم؛ فيهزم العدو. فلما كان يوم " القادسية" قال: أقسمت عليك

يا رب لما منحتنا أكتافهم، وجعلتني أول شهيد، فمنحوا أكتافهم وقُتِلَ "البراء" شهيدا.

- و"**خالد بن الوليد**": حاصر حصنًا منيعا، فقالوا: لا نسلم حتى تشرب السم؛ فشربه فلم يضره.
- "**سعد بن أبي وقاص**": كان مستجاب الدعوة، ما دعا قط، إلا استجيب له، وهو الذي هزم جنود كسرى، وفتح العراق.
- "**عمر بن الخطاب**": لما أرسل جيشا، أمر عليهم رجلاً اسمه "سارية" فبينما عمر يخطب، فجعل يصيح على المنبر: يا سارية الجبل، يا سارية الجبل، فقدم رسول الجيش فقال. يا أمير المؤمنين لقينا عدوا فهزمونا، فإذا بصائح: يا سارية الجبل، يا سارية الجبل، فأسندنا ظهورنا بالجبل، فهزمهم الله.

ويسمى هذا في عصرنا "التلباثي" أي حالات الشعور على البعد[1].

---

[1] العقاد (عباس محمود): يوميات، ١: ٢٣٩ – ٢٤٠، ط٤، ١٩٨١م، دار المعارف بمصر.

- ولما عذبت "**الزبيرة**" على الإسلام في الله، فأبت إلا الإسلام وذهب بصرها، قال المشركون: أصاب بصرها اللات والعزى، قالت: كلا والله، فرد الله عليها بصرها.

- "**سعيد بن زيد**": دعا على "أروى بنت الحكم"، فأعمى بصرها لما كذبت عليه، فقال: اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها، واقتلها في أرضها؛ فعميت ووقعت في حفرة من أرضها فماتت.

- "**العلاء بن الحضرمي**": كان عامل رسول الله ﷺ، على البحرين، وكان يقول في دعائه: يا عليم! يا حليم! يا علي! يا عظيم! فيستجاب له. ودعا الله بأن يسقوا ويتوضئوا لما عدموا الماء والإسقاء لما بعدهم فأجيب. ودعا الله لما اعترضهم البحر، ولم يقدروا على المرور بخيولهم، فمروا كلهم على الماء، ما ابتلت سروج خيولهم، ودعا الله ألا يروا جسده إذا مات فلم يجدوه في اللحد.

- "**أبو مسلم الخولاني**": مشى هو ومن معه من العسكر على دجلة، وهي ترمى بالخشب

من مدها، ثم التفت إلى أصحابه فقال: تفقدون من متاعكم شيئًا حتى أدعو الله عز وجل فيه؟ فقال بعضهم: فقدت مخلاة، فقال: اتبعني فوجدها قد تعلقت بشيء فأخذها.

وطلبه الأسود العنسي لما ادعى النبوة، فقال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع، قال: أتشهد أن محمدا رسول الله: قال نعم، فأمر بنار فألقي فيها، فوجوده قائما يصلي فيها. وقد صارت عليه بردا وسلاما.

وقدم المدينة بعد موت النبي ﷺ، فأجلسه "عمر" بينه وبين أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أرى من أمة محمد ﷺ من فُعِلَ به كما فُعِلَ بإبراهيم خليل الله.

ووضعت له جارية السم في طعامه، فلم يضره.

وخببت – أي أفسدت – امرأة عليه زوجته، فدعا عليها فعميت، وجاءت وتابت، فدعا لها، فرد الله عليها بصرها.

- "**عامر بن قيس**": كان يأخذ عطاءه ألفي درهم في كمه، وما يلقاه سائل في طريقه إلا أعطاه بغير عدد، ثم يجيء إلى بيته فلا يتغير عددها ولا وزنها.

كذلك مر عامر بقافلة قد حبسهم الأسد، فجاء حتى مس بثيابه الأسد، ثم وضع رجله على عنقه، وقال: إنما أنت كلب من كلاب الرحمن، وإني أستحي أن أخاف شيئًا غيره، ومرت القافلة.

ودعا الله تعالى، أن يهون عليه الطهور في الشتاء، فكان يؤتى بالماء له بخار.

ودعا ربه أن يمنع قلبه من الشيطان وهو في الصلاة فلم يقدر عليه.

- "**الحسن البصري**": تغيب عن الحجاج، فدخلوا عليه ست مرات، فدعا الله عز وجل، فلم يروه. ودعا على بعض الخوارج كان يؤذيه فخر ميتًا.
- "**صلة بن أشيم**": مات فرسه وهو في الغزو، فقال: اللهم لا تجعل لمخلوق علي منة، ودعا الله عز وجل، فأحيا له فرسه. فلما وصل إلى بيته قال: يا بني خذ سرج الفرس فإنه عارية، فأخذ سرجه فمات الفرس.

وجاع مرة بالأهواز، فدعا الله عز وجل واستطعمه، فوقع خلفه رطب في ثوب حرير، فأكل التمر وبقي الثوب عند زوجته زمانًا.

وجاء الأسد وهو يصلي في غيضة بالليل، فلما سلم قال له: اطلب الرزق من غير هذا الموضع. فولى الأسد وله زئير.

- "**سعيد بن المسيب**": كان في بعض الأحيان يسمع الأذان من قبر رسول الله ﷺ أوقات الصلاة، وكان المسجد قد خلا فلم يبقَ غيره.
- "**أويس القرني**": لما مات وجدوا في ثيابه أكفانا لم تكن مع قبل، ووجدوا له قبرا محفورا فيه لحد في صخرة، فكفنوه في الأثواب، ودفنوه في ذلك اللحد.
- "**عمرو بن عقبة بن فرقد**": كان يصلي يوما في شدة الحر، فأظلته غمامة، وكان السبع يحميه وهو يرعى ركاب أصحابه؛ لأنه كان يشترط على أصحابه في الغزو أنه يخدمهم.
- "**مطرف بن عبد الله**": كان إذا دخل بيته سبحت معه آنيته.

- "**الأحنف بن قيس**": لما مات، وقعت قلنسوة من رجل في قبره، فأهوى ليأخذها، فوجد القبر قد فسح فيه مد البصر.
- "**عتبة الغلام**": سأل ربه ثلاث خصال: صوتًا حسنًا، ودمعا غزيرا، وطعاما من غير تكلف. فكان إذا قرأ بكى وأبكى، ودموعه جارية دهره، وكان يأوي إلى منزله فيصيب فيه قوته ولا يدري من أين يأتيه.
- "**عبد الواحد بن زيد**": أصابه الفالج، فسأل ربه أن يطلق له أعضاءه وقت الوضوء، فكان وقت الوضوء تطلق له أعضاؤه، ثم تعود بعده.

ومما تجدر ملاحظته أن شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – هو الذي ساق هذه الكرامات في كتابه الفرقان، مع تحفظه الشديد في مثل هذه الأمور. وهو نفسه كان ملهما وسجلت له عدة كرامات، من أظهرها أنه ما سمع

بأحد عاداه أو غض منه، إلا ابتلي بعدة بلايا، غالبها في دينه[1].

ومما تجدر ملاحظته أيضا أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الإنسان. فقد يحتاج إليها الضعيف الإيمان، فيأتيه منها ما يقوي إيمانه ويسد حاجته.

ويستغني عن ذلك، من هو أكمل ولاية لله منه، فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عن الكرامات، وليس لنقص ولايته.

وهذا يفسر لنا، لماذا كانت هذه الأمور في التابعين، أكثر منها في الصحابة، بخلاف النبي فإنه يجري الخوارق على يديه، من أجل هداية الخلق وحاجتهم[2].

تم الكتاب بحمد الله تعالى وكرمه وفضله.

---

(1) البزار (الحافظ علي البزار المتوفى سنة ٧٤٩ هـ): الأعلام العليـة في مناقب ابن تيمية، ص ٦٢، تحقيق: زهيـر الشـاويش، ١٤٠٠ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

(2) الفرقان، ص ١٢١

وصلى الله تعالى وسلم على نبينا المصطفى محمد، وعلى آله وصحبه.

***

تم كتاب "التصوف في الإسلام، وأهم الاعتراضات الواردة عليه" لمؤلفه" الدكتور عبد اللطيف محمد العبد في يوم الأربعاء الثامن من ربيع الثاني عام ألف وأربعمائة وسبعة من الهجرة، الموافق للعاشر من ديسمبر عام ألف وتسعمائة وستة وثمانين من الميلاد. وذلك بمدينة القاهرة بمصر.

وأرجو من الله تعالى أن يغفر لمؤلفه وقارئه، وأن ينفع الناس بما فيه من علم نافع، وأن يعفو بفضله عما فيه من هفوات، والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر

أ- باللغة العربية:

١- الآجري (أبو بكر بن الحسين بن عبد الله، المتوفى عام ٣٦٠ هـ): أخلاق العلماء. دار الكاتب العربي. بيروت "بدون تاريخ".

٢- د. إبراهيم مدكور: في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه. ج٢، ١٩٨٣م. دار المعارف بمصر.

٣- أبو الحسن الندوي: إلى الإسلام من جديد. ط٤، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م. المختار الإسلامي بالقاهرة.

٤- أبو شامة (الشيخ أبو محمد عبد الرحمن إسماعيل، المعروف بأبي شامة ٥٩٩ – ٦٦٥ هـ): الباعث على إنكار البدع والحوادث. تقديم وتحقيق: عثمان عنبر. ط١، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م، دار الهدى بالقاهرة.

٥- أبو طالب المكي (أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي، المتوفى عام ٣٨٦ هـ): قوت القلوب في معاملة المحبوب. (جزءان) ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

٦- د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي. ط٣، ١٩٨٣م، دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة.

٧- أحمد أمين: الأخلاق. ط٢، ١٩٢١م، المطبعة الرحمانية، بالقاهرة.

٨- د. أحمد محمود صبحي: الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي ط٢، ١٩٨٣م، دار المعارف بمصر.

٩- الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل، المعروف بالراغب الأصفهاني، المتوفى عام ٥٠٢ هـ): الذريعة إلى مكارم الشريعة. تحقيق ودراسة: د. أبو اليزيد العجمي. ط٢، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥م، دار الصحوة بالقاهرة.

١٠- أنور الجندي: المؤامرة على الإسلام. ط٢، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م، دار الاعتصام بالقاهرة.

١١- البزار (الحافظ عمر بن علي البزار، المتوفى عام ٧٤٩ هـ): الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية. تحقيق: زهير الشاويش، ١٤٠٠ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

١٢- البقاعي (العلامة برهان الدين البقاعي ٨٠٩ – ٨٨٥ هـ): مصرع التصوف، أو تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي. تحقيق وتعليق: عبد الرحمن الوكيل.

١٣- التستري (سهل بن عبد الله): المعارضة والرد على أهل الفرق وأهل الدعاوى في الأحوال. تحقيق ونقد وتعليق: د. محمد كمال جعفر. ط١، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، مكتبة دار الإنسان، بالقاهرة.

١٤- د. توفيق الطويل: التصوف في مصر إبان العصر العثماني. طبع ١٩٤٦م. مكتبة الآداب بالقاهرة.

١٥- ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، ٦٦١ – ٧٢٨ هـ): الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان. مراجعة وتقديم: أحمد حمدي إمام، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، مطبعة المدني بالقاهرة.

١٦- ابن تيمية: مختصر الفتاوى المصرية. القاهرة ١٩٤٩م.

١٧- ابن تيمية: نقض المنطق. تصحيح: محمد حامد الفقي ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م، مكتبة السنة المحمدية بالقاهرة.

١٨- جبور عبد النور: التصوف عند العرب، ١٩٣٨ م بيروت.

١٩- جولد تسهر: العقيدة والشريعة في الإسلام. ترجمة: د. محمد يوسف موسى، وآخرون، ١٩٤٦م، دار الكاتب العربي، القاهرة.

٢٠- ابن الجوزي (الحافظ الإمام جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي البغدادي، المتوفى عام ٥٩٧ هـ): تلبيس إبليس. نشر دار الكتب العلمية، بيروت "بدون تاريخ".

٢١- ابن الجوزي: ذم الهوى. تحقيق مصطفى عبد الواحد. مراجعة محمد الغزالي ط١، ١٣٨١ هـ- ١٩٦٢م، دار الكتب الحديثة بالقاهرة.

٢٢- ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد بن حنبل. ط٢، ١٩٧٧م دار الآفاق الجديدة – بيروت.

٢٣- ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. ج١٠. حيدر آباد ١٣٥٧هـ.

٢٤- ابن حزم (٣٨٤ – ٤٥٦ هـ): الأخلاق والسير في مداواة النفوس. ط٢، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م دار الآفاق الجديدة. بيروت.

٢٥- الحلاج: الطواسين (ضمن أخبار الحلاج لعلي بن أنجب الساعي المتوفى عام ٦٧٤ هـ) تصحيح: عبد الحفيظ هاشم. طبع ١٩٧٠م، مكتبة الجندي بالقاهرة.

٢٦- الرازي والكرماني: إصلاح النفس بين الرازي في الطب الروحاني، والكرماني في الأقوال الذهبية. دراسة وتحقيق: د. عبد اللطيف محمد العبد. ط٢، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م، دار الثقافة العربية بالقاهرة.

٢٧- ابن رجب الحنبلي (٧٣٦ – ٧٩٥ هـ): كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة. تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، نشر المكتبة القيمة بحدائق القبة بالقاهرة.

٢٨- ابن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي ٥٢٠ – ٥٩٥ هـ): بداية المجتهد ونهاية المقتصد. ط٤، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

٢٩- د. زكريا إبراهيم: المشكلة الخلقية ط٢، ١٩٧٥م، مكتبة مصر بالقاهرة (مشكلات فلسفية – ٦).

٣٠- د. زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق (جزءان) ط١، ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨م، مطبعة الرسالة بالقاهرة.

٣١- السهروردي (شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد): عوارف المعارف (ملحق إحياء علوم الدين للغزالي) المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة "بدون تاريخ".

٣٢- الشعراني (عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني الشافعي المتوفى ٩٧٣هـ): الطبقات الكبرى، ١٣٤٣ هـ مصر.

٣٣- الشعراني: لطائف المنن والأخلاق (المعروف بالمنن الكبرى) ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦م، عالم الفكر بالقاهرة.

٣٤- الشعراني: منح المنة في التلبس بالسنة، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، مكتبة عالم الفكر بالقاهرة.

٣٥- د. الطبلاوي محمود سعد: التصوف في تراث ابن تيمية، ١٩٨٤م، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة.

٣٦- الطوسي (أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، المتوفى عام ٣٧٨ هـ): اللمع. تحقيق: د. عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي سرور، ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠م، دار الكتب الحديثة بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد.

٣٧- د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): مقال في الإنسان – دراسة قرآنية. طبع ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م. دار المعارف بمصر.

٣٨- عارف تامر: القرامطة، أهلهم، نشأتهم، تاريخهم، حروبهم. دار مكتبة الحياة. بيروت "دون تاريخ".

٣٩- د. عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر، نشأتها ونظمها وروادها. طبع ١٩٧٨ م مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة.

٤٠- العاملي: الكشكول. تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة.

٤١- د. عبد الحليم محمود: فتاواه. ج١، ط٢، ١٩٨٥. دار المعارف بمصر.

٤٢- د. عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، ١٩٨٣ م دار المعارف بمصر.

٤٣- د. عبد االرحمن بدوي: تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني. ط١، ١٧٥ م، نشر وكالة المطبوعات بالكويت.

٤٤- د. عبد الرحمن بدوي: شطحات الصوفية: الجزء الأول: أبو يزيد البسطامي. ط٣، ١٩٧٨ م وكالة المطبوعات بالكويت.

٤٥- عبد العزيز بن باز (الشيخ): التحذير من البدع. طبع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. نشر دار الاعتصام بالقاهرة، ١٩٧٧م (رقم ٥ من السلسلة).

٤٦- عبد الفتاح أبو غدة: صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل. ط١، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م، مكتب المطبوعات الإسلامية.

٤٧- د. عبد الفتاح بركة: الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية. طبع ١٩٧١ م، مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة.

٤٨- د. عبد اللطيف محمد العبد: الأخلاق في الإسلام. ط٢، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م. مكتبة دار العلوم بالقاهرة.

٤٩- ابن عتيق (سعد بن محمد بن عتيق المتوفى عام ١٣٤٩ هـ): مجموعة الرسائل. طبع عام ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، دار الاعتصام بالقاهرة.

٥٠- ابن عربي (محيي الدين، المتوفى عام ٦٣٨ هـ): تحفة السفرة إلى حضرة البررة. تحقيق: محمد رياض المالح، دار الكتاب اللبناني، بيروت "بدون تاريخ".

٥١- ابن عربي التعبيرات الإلهية. طبعة نيبرج.

٥٢- ابن عربي: فصوص الحكم. تعليق ودراسة وتحقيق: د. أبو العلا عفيفي، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي بالقاهرة.

٥٣- العطاس (عبد الله بن علوي): ظهور الحقائق في بيان اللطائف. طبع عام ١٣١٢ هـ مطبعة بكراز حسني.

٥٤- العقاد (عباس محمود): بين الكتب والناس. ط١، ١٩٦٦ م دار الكتاب العربي، بيروت.

٥٥- العقاد: عبقرية عمر. طبع ١٩٧٦ م دار المعارف بمصر.

٥٦- العقاد: الفلسفة القرآنية. طبع ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧م. المكتبة العصرية، بيروت.

٥٧- العقاد: مطالعات في الكتب والحياة. ط٣، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦ م دار الكتاب العربي، بيروت.

٥٨- العقاد: يوميات. ج١، ط٤، ١٩٨١ م دار المعارف بمصر.

٥٩- ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب. ج٢، طبع ١٣٥٠ هـ. القاهرة.

٦٠- عمر الدسوقي: الفتوة عند العرب. ط٣، ١٩٥٩م، مكتبة نهضة مصر بالفجالة بالقاهرة.

٦١- الغزالي (حجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفى ٥٠٥ هـ): إحياء علوم الدين. المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة "بدون تاريخ".

٦٢- الغزالي: إلجام العوام عن علم الكلام. طبع ١٣٥١ هـ، القاهرة.
٦٣- الغزالي: بداية الهداية، ١٩٨٣، مطبعة حسان بالقاهرة.
٦٤- الغزالي: فضائح الباطنية. طبع ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤. تحقيق وتقديم: د. عبد الرحمن بدوي. نشر الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة.
٦٥- الغزالي: قانون التأويل، ١٩٤٠م القاهرة.
٦٦- الغزالي: المنقذ من الضلال. تحقيق: د. عبد الحليم محمود مع أبحاث له في التصوف. دار الكتب الحديثة بالقاهرة. بدون تاريخ.
٦٧- ابن قدامة الحنبلي (الإمام موفق الدين عبد الله بن أحمد ٥٤١ – ٦٢٠ هـ): ذم الموسوسين والتحذير من الوسوسة (كتاب هدية مجلة الأزهر) ذو القعدة ١٤٠٤ هـ.
٦٨- القشيري (أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري المتوفى عام ٤٦٥ هـ): الرسالة القشيرية. طبع ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م، مكتبة محمد علي صبيح بالقاهرة.
٦٩- القونوي (أبو المعالي صدر الدين): إعجاز البيان في تأويل أم القرآن. دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا. ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م دار الكتب الحديثة بالقاهرة.

٧٠- ابن قيم الجوزية (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب ٦٩١ – ٧٥١ هـ): مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. تحقيق: محمد حامد الفقي. ج١ طبع ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥م، ج٢، ج٣ طبع ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦. مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة.

٧١- الكاشاني (عبد الرازق المتوفى عام ع٧٣٠ هـ): اصطلاحات الصوفية. تحقيق: د. عبد اللطيف محمد العبد. ط١، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م. مكتبة دار النهضة العربية بالقاهرة.

٧٢- ماسينيون (لويس)، ومصطفى عبد الرازق: الإسلام والتصوف. طبع ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، مطابع دار الشعب بالقاهرة.

٧٣- المالكي (الشيخ محمد بن أحمد بن محمد المالكي): الدر الثمين والمورد المعين، ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م، مصطفى البابي الحلبي بمصر.

٧٤- الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي المتوفى عام ٤٥٠ هـ): أدب الدنيا والدين.ط٤، ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦ م، المطبعة الأميرية ببولاق مصر.

٧٥- الماوردي: أعلام النبوة. ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٦- المحاسبي (أبو عبد الله الحارث بن أسد، المتوفى عام ٢٤٣ هـ): الرعاية لحقوق الله عز وجل. راجعه وقدم له: د. عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي سرور. نشر، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، ومكتبة المثنى ببغداد "بدون تاريخ".

٧٧- محمد أحمد جاد المولى: الخلق الكامل. ط١، ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م، مطبعة حجازي بالقاهرة.

٧٨- محمد أحمد الحوامدي: السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات. طبع ١٣٠٢ هـ، مكتبة ابن تيمية بالقاهرة.

٧٩- د. محمد حسين الذهبي: الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم، دوافعها ودفعها. ط٣، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٨٠- محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام. ج١. طبع ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م القاهرة.

٨١- د. محمد السيد الجليند: من قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة. طبع ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م، مطبعة التقدم بالقاهرة.

٨٢- محمد متولي الشعراوي (الشيخ): الطريق إلى الله (محاضرة ألقاها بقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة، في شهر رجب ١٣٩٤ هـ - يوليو ١٩٧٤ م) نشر المكتبة السلفية بالقاهرة.

٨٣- د. محمد عبد الله الشرقاوي: في الفلسفة العامة – دراسة ونقد، طبع ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م، مكتبة الزهراء بالقاهرة.

٨٤- د. محمد عبد المنعم خفاجي: التراث الروحي للتصوف الإسلامي في مصر. ط١ "بدون تاريخ" دار العهد الجديد للطباعة بالقاهرة.

٨٥- محمد بن عبد الوهاب (الشيخ): كشف الشبهات. بتصحيح وتعليق: محمد حامد الفقي. طبع ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م، مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة.

٨٦- محمد الغزالي (الشيخ): عقيدة المسلم. طبع ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م دار الكتب الإسلامية بالقاهرة.

٨٧- محمد الغزالي: علل وأدوية.ط٢، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤م، دار الكتب الإسلامية بالقاهرة.

٨٨- محمد الغزالي: ليس من الإسلام. ط٥، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، دار الكتب الإسلامية بالقاهرة.

٨٩- د. محمد كمال جعفر: تأملات في الفكر الإسلامي، ١٩٨٠م، نشر مكتبة دار العلوم بالقاهرة.

٩٠- د. محمد كمال جعفر: التصوف طريقًا وتجربة ومذهبا، ١٩٧٠م، دار الكتب الجامعية بالإسكندرية.

٩١- د. محمد يوسف موسى: بين الدين والفلسفة في رأي ابن رشد وفلاسفة العصر الحديث. ط ١٩٥٩م، دار المعارف بمصر.

٩٢- د. محمد يوسف موسى: القرآن والفلسفة. ط٤، ١٩٨٢م، دار المعارف بمصر.

٩٣- محمود شلتوت (الشيخ): الفتاوى – دراسة لمشكلات المسلم المعاصر في حياته اليومية والعامة. ط٣. دار القلم.

٩٤- د. محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس، الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، طبع ١٩٦٨م، دار المعارف بمصر.

٩٥- محمود محمد خطاب (المتوفى عام ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣م): إتحاف الكائنات (ببيان مذهب السلف والخلف في المتشابهات، ورد شبه الملحدة والمجسمة وما يعتقدونه من المفتريات) ط٢، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م، القاهرة.

٩٦- د. محمود محمد عمارة: من الذي يغير المنكر، وكيف؟ العدد الثالث عشر من رسالة الإمام – المحرم ١٤٠٧ هـ - سبتمبر ١٩٨٦ م. وزارة الأوقاف بمصر. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٩٧- مسكويه (الشيخ أبو علي أحمد بن محمد، المعروف بابن مسكويه، المتوفى عام ٤٢١ هـ): تهذيب الأخلاق. طبع

١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح بمصر.

٩٨- مشيخة عموم الطرق الصوفية: التصوف الإسلامي، رسالته ومبادئه، ماضيه وحاضره. ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م، مطابع دار الكتاب العربي بالقاهرة.

٩٩- د. مصطفى حلمي: التصوف والاتجاه السلفي في العصر الحديث. طبع ١٩٨٢م، دار الدعوة بالإسكندرية.

١٠٠- د. مصطفى حلمي: ابن تيمية والتصوف. طبع ١٩٨٢م، دار الدعوة بالإسكندرية.

١٠١- النبهاني (يوسف بن إسماعيل ١٢٦٥ – ١٣٥٠ هـ): جامع كرامات الأولياء. تحقيق ومراجعة: إبراهيم عطوة عوض. ط٣، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

١٠٢- نجيب المندراوي: كيف تعيش مائة سنة. طبع ١٩٢٢ م. مطبعة التوفيق بمصر.

١٠٣- النووي (الإمام أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي المتوفى عام٦٧٦ هـ): بستان العارفين. ط١، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م دار الكتاب العربي، بيروت.

١٠٤- النووي: رياض الصالحين، ١٩٨٣م، المكتبة التوفيقية بالقاهرة.

١٠٥- الهجويري (أبو الحسن علي بن عثمان بن أبي علي الجلابي الهجويري الغزنوي ٤٥١ – ٤٩٢ هـ): كشف المحجوب. الترجمة عن الفارسية والدراسة والتعليق للدكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل (راجع للترجمة: د. أمين عبد المجيد بدوي) الكتاب التسعون – ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر.

١٠٦- د. يوسف القرضاوي: ثقافة الداعية. ط٢، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م. مؤسسة الرسالة. بيروت.

ب- مراجع باللغة الإنجليزية:

1. Richard Bell: The origin of Islam in its Christian Environment. London, 1968.
2. Cornford (F. M.): Before After Socrates, Cambridge, 1974
3. Heiler, F.:Prayer, History and Psychology, London, 1958.
4. Dr. Muhammad Iqbal: The way of the Moslim (Printed in Great Britain by Martin’s of Berwick) 1979.
5. Ivanow: On the Recognition of the Imam. India, 1947

6. James. W.:Varieties of Religious Experience, London, 1902
7. Nicholson: The idea of Personality in Sufism, Cambridge, 1923.
8. Russell (B): Mysticism and Koguc, Selected Papers The Modern Library, New York, 1957.
9. Underhill: Mysticism, London, London, 1949.
10. Yolton (J. W.): Metaphysical Analysis, George Allen and Unwin LTD, 1968.